

رواية

رمّاد الشّوق

محمود السامرائي



الرواية الفائزة بالمركز الثاني / شباب

جائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع

Rashid bin Hamad Al Sharqi Innovation Award

2019

الرواية الفائزة بالمركز الثاني / شباب

جائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع

Rashid bin Hamad Al Sharqi Innovation Award

رواية رَّمَادُ الشَّوق
محمود رمضان السامرائي
الرواية الفائزة بالمركز الثاني / شباب
لجائزة راشد بن حمدالشرقي للإبداع
الطبعة الأولى 2019
رقم الطلب: MC-03-01-1932147
الترقيم الدولي : ISBN: 978-9948-37-803-7
التصنيف العمري: 13+
تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتاب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.

الفجيرة دولة الإمارات العربية المتحدة
ص . ب. 7444 -الفجيرة
هاتف: 678 2222 9 971+ فاكس: 959 2222 9 971+
Website : www.darrashid.ae Email : Info@darrashid.ae

تصميم الغلاف: فيصل جواد
الإخراج الداخلي: آية خليل
التدقيق والمراجعة: فيصل جواد



رواية

رَّمَادُ الشَّوق

مقدمة

والجائزة تضع معاييرها كان ثمة سؤال علقته استحالة الدقة في الجواب على قارعة إنتظار لحين موعد إنتهاء المحكمون من أعمالهم المنوطة بهم قراءةً وتقييماً ، وربما كان السؤال مبكراً في تزامنه ووضع القواعد والأسس التي تقوم عليها الجائزة فقد حَمَلَنا حلم الديمومة في مسارها على أن نسأل دون أن نجد سبيلاً لحدس يشفع لإجابة قطعية ، فطرحنا السؤال دون إخفاء توجسنا مما يمكن أن يجيء به الجواب ولم نحاول أن نمرره باطناً في ظاهر السؤال ، فإننا نرى فيه مشروعية يقررها الحرص على بقاء الجائزة عنواناً لدعم البنى الإبداعية ولبانيها من الأدباء والنقاد العرب ، وعليه فقد كان السؤال « هل ستحظى جائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع بعناية المبدعين عبر عديد المشاركات التي نأمل ؟ « ، وهل سترقى تلك المشاركات إلى مايكفل حلم الجائزة بحيازتها على كم من الأعمال الأدبية التي تشير إلى إبداع عربي لطالما كان محوراً أساسياً في الرؤية التي قامت عليها الجائزة ؟ بطرحنا التساؤلات لم نكن نتوخى إجابة عاجلة طالما أن الإجابة تلك مرهونة بالنتائج ، وتلك النتائج هي الأخرى مرهونة بآراء المحكمين التي تعدل عندنا ماتنطوي عليه المحصلات الرقمية في التقييم حرصاً على ضرورة إقتران الكم بالنوع ، بما يأخذ حلمنا لمنطقة تحقيقه بأحقية

تحليق المنجز الإبداعي العربي في الفضاءات الأدبية العالمية ليغدو الكتاب العربي طائر الشمس الذي ينشر إبداعه تجليات دافئة فوق المساحات البيضاء التي حالت دون تحليقه فوقها عوامل التسويق له وإضاءته إعلامياً كما يستحق فالنتاج أي نتاج مالم تتهيأ له فرصة الإعلان عنه والترويج له وحظوته بالإهتمام من خلال الكتابة عنه أو فوزه بإحدى الجوائز الأدبية التي تحظى باهتمام ومتابعة جمهور الأدب والثقافة لايمكن أن يكون ملفتاً للأنظار، وهذا بالطبع يشمل كبرى النتاجات الأدبية العالمية ، ولعل هذا الهدف كان الهاجس الأول للرؤية التي وضعها سمو الشيخ الدكتور راشد بن حمد الشرقي رئيس هيئة الفجيرة للثقافة والإعلام ، والتي منها انطلقت اللجنة التحضيرية في وضع الأسس في رسم آفاق تلك الرؤية وحددت آليات العمل لتنفيذها ،والتي تمخض عنها شمول العدد الأكبر من المرشحين للجائزة بدءاً من القائمة الطويلة ، فالقصيرة ، فالمراكز الثلاثة الأولى بعناية الجائزة لطبع نتاجاتهم وفق استحقاق أقرت به لجان التحكيم في فروعها السبع، وتسعى الجائزة لإنجاز ماوضعت لأجله متخذه الموضوعية عنواناً لمهنيتها ، عبر اختيار المحكمين المتمرسين والمعروفين بحيادية أحكامهم ، وعدم التدخل بقراراتهم ، كيما تكتمل صورة مقاصد النبل من ورائها بصفتها تنشد دعم الإبداع العربي والمبدع العربي دون أن يخالط الهدف هذا هدف آخر ، لتضع نفسها جهة فاعلة في الحراك الإبداعي العربي إيماناً منها بأن أرض العرب موطن الخصب المعرفي والنماء الحضاري ، وليس ثمة غايات تتخطى حدود رعاية المنجز ودعمه وتقديم مايكفل المبدع ونقل منجزه للأقاصي البعيدة من جهات الأرض ، وبالتالي فهي تسعى لخدمة القارئ

والكاتب على حد سواء ،وأخيراً إذا كان لابد من شهادة بحق تلك المشاركات فلا أدل على أهميتها شيء من آراء محكميها التي وثقت بتدوينهم إياها بمعرض توصيفهم لها والمقدمة لأمانة الجائزة التي تحتفظ بها كوثيقة تحفظ ألق الأسماء التي ندعم كي تأخذ من المساحات المضيئة ماتستحق ، مغتبطون لما آلت إليه النتائج ولما ورد الجائزة من حجم فاق التوقعات من المشاركات التي نافت على ال ٩٥٠مشاركة حفلت بتنوع ثر ونصوص نوعية كشفت عن مواهب كبيرة وقدرات عالية في مجالات الجائزة كافة،ممايقتضي منا الإشادة بها مشيرين لآراء المحكمين ومشيدين بدقة أحكامهم التي كشفت عنها النتائج ، الحمد لله على نجاح المسعى ، والحمد له جل في علاه على بلوغ المطمح بحدود الخطوة الأولى لجائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع، والتي نضع ثمار قطافها الأول على مائدة قراءاتكم مشفوعة بالمحبة .

الأمانة العامة

لجائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع

الدورة الأولى 2018-2019

تقديم عام

لم تكن مسيرة التحكيم سهلة، ولم تكن صعبة، كانت بين بين، طرقاتها مليئة بالدهشة حيث الزخم الروائي الجميل الذي يخبرنا أن الرواية مازالت بخير، وكلجنة تحكيم أطلعنا في البداية على أربعة عشر رواية وكانت تتراوح ما بين الجيد، والممتاز، ومع تحديد القائمة الطويلة والتي كانت عبارة عن عشر روايات ارتفعت وتيرة التميز حتى وصلنا للقائمة القصيرة بخمس روايات ، وبعد الإعلان عنها ،تم الاجتماع النهائي لاختيار الفائز الأول والثاني والثالث بالإجماع ، ومعروف في سياسة الجائزة أننا نقرأ روايات بلا أسماء أصحابها، أحياناً قد نستدل على جنسية الراوي من خلال السياق والأماكن، وقد يكون حدسنا خاطئاً في الكثير من الأحيان فالحديث عن الأمكنة غير كافٍ بالتعرف على هوية الكاتب لذا لأننا في النهاية نعمد إلى منهج عمل لجان التحكيم باختيار الروايات من خلال معايير محددة جرى الاتفاق عليها .

ومن أبرز الروايات التي تم استبعادها منذ البداية تلك الروايات المكتوبة باللهجات العامية ،والأخرى التي تثقلها أخطاء نحوية وإملائية ، وتلك التي تتحدث عن الذات الإلهية وغيرها مما يعد مخالفاً لشروط قبول الرواية مثل الإيحاءات الإيروتيكية التي تتنافى وضوابط الأخلاق ومعايير القبول في المنطقة العربية أيضاً ، بالإضافة إلى التي لا

تتوفر فيها أسس البناء الفني للرواية، كذلك السير وفق محددات ومعايير الجائزة التي وضعتها الأمانة العامة للجائزة كمعايير مهنية اتفق المحكمون على الإلتزام بها ، ولم يكن الاختيار سهلا لوفرة المتميز من النصوص ربما لم نتوقعها ولكن كان لدينا الوقت الكثير لنقرأ بعناية ثم نختار، بعض الروايات كتبت بلغة سلسة ومبتكرة وناقشت فكرة مستهلكة بطريقة خلاقة ونقلت إحساس مختلف وربما نشترك كفريق محكمين بدهشاتنا من بعض الأفكار وتقانات السرد و ثيمات الروايات المقدمة التي عمد بعضها إلى إحياء التاريخ وتعرية مفاهيم نحملها عنه والبعض الآخر تخلى عن فكرة الرواية الجمعية إلى الرواية الواعية بالذات والتعرف على توجهات الشباب وقضايانا الشائكة في العالم العربي .

والجائزة في النهاية ماهي إلا تقدير للأعمال المنتجة وهي ليست نهاية المطاف للروائي سواء فاز بالجائزة أم لم يفز .

لجنة تحكيم الرواية شباب

جائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع

..مَن كَانَ يُعقُوبيَّ الحُزنِ، جَلَى عَن بَصَرِهِ العَمَى،
بِطرحِ البَشِيرِ إليهِ قَمِيصَ يوسُف!

عبد الكريم الجيلي

كُلُّ الطُرقِ كانت مؤدية إلى سامراء..

ولكنَّها متعرجة ضيقة، لاذوا بها عندما اشتدّ الخطب وتحطمت الآمال على شاطئ الحرب والفقد، لتبقى تلك المدينة تصلينا نار الذكرى وتوقد الوجع الذي لا اوار له.. تلك المدينة لا تجيد النسيان، كلّ شيء فيها يوقد ذكرى وجرحاً وحزناً..

تلك المدينة لا تتقن لعبة النسيان!!

القسم الأول

١

أوَّلُ الرَّمَادِ

-١-

فَتحت عينيها، كان صوت المؤذن يتسلل الى أذنيها، لم تستطِع تمييزَ الوقتِ والنومُ ما زالَ متمكنًا منها، وسرعان ما أدركت ما حصلَ في هذه الليلة من أهوال وأوجال مريعة، واستغربت كيف أخذتها سِنَةٌ خفيفةٌ ، ورأت الساعة وإذ بها الثانية والنصف، لم يحن وقت الفجر بعد؛ فلمَ الشيخ ماض في أذانِه الذي قَد طالَ؟ لتسترق السمع جيدًا فتسمع الشيخَ ماضٍ فيَ تكبير وتسبيح لله على ما جرى في هذه الليلة. قامت ولفت فوطتها لتمشي متئدةً وقلبها قد طار الى المسجد وتسبيح الشيخ الذي غمر قلبَها ذكرًا وتسبيحًا وتبتلًا، وراحت تسير نحو الغرفة الأُخرى وهي تُدَمدمُ بالدعوات والأذكارِ القليلةِ التي تحفظها، وهي على قلتها إلّا انها تُعَد بين قريناتهاَ تقية، ولها إلمام يسير بسيرة الأولياء ورجال آل البيت الذين دفعوا بلاءً وعذابًا عنها وعن بلادِها غير قليلِ حسب زعمها، فهي تحفظ قصة الامام علي الهادي مع المتوكل وما بها من أساطير، وولده الحسن العسكري، وقصة جدهما الحسين واستشهاده، وتحفظ شيئًا من أخبار الجيلاني وأبي حنيفة، ولها تجارب معهم، كلما اشتدت استصرختهم وتوسلت بهم ونادتهم. وبينما تريد الوصول الى الغرفة المقابلة لحجرتها سمعت صوت انفجار هائل كادت تتفجر اذنيها لشدَّته، فقالت تلقائيًا وهي تتوكأ على الحائط بعد أن كادت تسقط: اللهم

صلِّ على محمد وآل محمد . وبقيت تتلو الصلوات الى أن عاد الهدوء شيئًا فشيئًا، فقامت ومشت الى غرفة أولادها فرأتهما مستغرقيَن في نوم عميق، فحمدت الله على ذَلك، إلا انها وكمن تذكر شيئاَ قالت: أين صوت الشيخ؟ فصاخت السمع ولكن لا شيء، هدوءٌ يلف المكان، فخرجت وفتحت الباب ونظرت نحو مكان المسجد ولكن لم ترَ المنارة! فصُعِقَت ودُهِشَت، وسرعان ما انحدرَ الدمعُ من عينيها، هل حقّا زَالت وتهدمت على رأس ذلك الشيخ الزاهد المتبتل ولن تسمعه ثانية كما تسمعه كلّ ليلة؟ هذا الشيخ الذي سمعت عنه وأحبت حديثه وإن لم تلقَه يرحل أمام عينيها وتحت الانقاض! وصارت تتخيل صورة الشيخ وهو مدفون تحت مسجده الذي قضى عمره قارئًا ومؤذنًا له، وبينما تتموج الأفكار ومشهد الشيخ تحت الانقاض عادت الذكرى لتصليها ألمًا على ألم. ألم يكن يحبه ويتردد عليه؟ ولا تزال تذكر كلما مضت معهً في ذلك الخلاف التي يتحول غالبًا الى صياح غيرِ مستساغ، كان يقول لها: كما قال لنا الشيخ في المسجد: (إنما المالُ غنى اليد، والإيمان غنى القلب، والسعيد من أغنى قلبه، ولم يشغله غنى يده عن قلبه فيخسرهما معًا). وعادت صورة ثانية حية أمامها عندما آثر أخاه بمحصولِ ذاك العام وباعه المحصول بثمن بخس، فثارت وصرخت بوجهه، فردّ عليها بهدوء: كما قال الشيخ: (إنما السمو سمو الروح، أما الجسد فحقه التراب وحفرة تُردم عليه، وليس الغني من ملك مالا، انما الغنى غنى النفس). هكذا كان يلقي عليها حكم الشيخ الرابض تحت الانقاض، فيقابل غضبها وسخطها ــــ وما أكثره ــــ بهدوء وحكم شيخ كُتِبَ عليها سماعها كما تسمع صوته وهو يؤذن للأوقات الخمسة، ولكن بعد الآن لن تسمع صوته أبدَ العمرِ..

وبينما تذكر صوته الرخيم المشبوب ببحة اضافت ميزة له، ذلك الصوت الذي يوقظها فجرًا رحل، وبينما تحاول استيعاب الفكرة والتي بدت عصية على الفهم على بساطتها أقبل من البيت المجاور يسير بهدوئه الرتيب المعتاد وكأن شيئًا لم يكن. فقال تحيته المعتادة بصوتٍ خفيضٍ:

-مساء الخير يُمَّة.

-مساء الخير يا ولدي.

فدخل معها البيت دون أن ينبس ببنت شفة، وتهاوى على سريره والنعاس قد أخذَ منه كلّ مأخذ، فنظر فوجدها ترمقه بانتباه واستنكار، فعلم ما بها، ولكنّه ًقال بدون اهتمام:

-ما بكِ؟

-لمَ تأخرت الى هذا الوقت؟ ألا تعلم الوضع؟ ألا تعي ما يجري حولك؟ الوقت ليس وقت السهر.

-أماه، إن البيت مجاور لنا، فأيُّ تأخيرٍ؟ والبيتان كالبيت الواحد.

-ليسا كالبيت الواحد!

فقال بيأس:

-هذه عادةٌ قديمة.

-الوقت تغير.

فقال وفي لهجته شيء من السخرية:

-تغير! منذ متى؟ منذ سنين طوال وأنا متواجد في بيتهم أكثر مما في بيتنا. فهل من جديد؟

-قلت لك مرارًا، بيت عمك لم يعد كما كان، لا يحق لك أن تبقى معهم وتسهر، وإن بقيت على هذا الحال فسيصدق الناس ما تلوك به نورية عمتك.

فقال متأففًا ضجرًا:

وماذا تقول هذه الأخرى؟

-أنت تريد الزواج من رحمة، وإنك غدوت صهرهم، هكذا تدعي عمتك، فعليك أنّ تقطع ادعاءها.

-قريبًا لن يكون ادعاءً.

-ماذا تعني؟

-أعني ما فهمتيه، سوف أخطب رحمة.

فقالت بدهشة مصطنعة وكأنها لا تعلم وكل من يمَّت بهم بصلة يعلم بمشاعره ونواياه تجاه رحمة.

-رحمة! هل جننت؟؟ تتزوج رحمة!

فعدل من جلسته، وقال باهتمام:

-وما بها رحمة؟ بنت عمي وأنا راغبٌ فيها، ونويتُ أن أتزوجها على شرع اللّه، وهو امرٌ طبيعيٌّ، كل الناس تتزوج بنات أعمامهم، بل لَي ولرحمة مزية لم يحظَ بها الا القليل، أنا أحِبّ رحمة، فلها مزيتان تزيد أواصر المحبة وتؤكد اسباب رغبتي بها: بنت عمي، وحبيبتي.

فلم تعلم ماذا تقول، فقالت بعد أن تكدر وجهها:

-تتزوج وهذا حالنا وأبوك لم تمضِ سنة على وفاته؟

فقال وهو يدلف رأسه في فراشه:

-ليس الآن يا أمي، وكما تأمرين بعد أن تحول سنة على وفاة أبي...

وبينما هم يتكلمان بدأت اصوات الرصاص تعودُ مجددًا، ويبدو أنَّها بعيدةٌ، وبدت أنَّها كثيفة، ثم تبعها انفجارات، وقامت ونظرت من النافذة ورأت الدخان يتعالى من بعيد، والانفجارات متتابعة، وعاد أزيز الرصاص يُسمع في كل مكان، وها هي الشظايا تنير دياجي الظلمة الحالكة لتتناثر على الأرض. وتعود فتقف وتصلي على النبي وتدعو الله وتستنجد بالأولياء، فقالت لولدها:

-ولدي، هذه المعارك على اطراف تكريت على ما يبدو، وأنا خائفة على أخيك.

-اتصلتُ به قبل ساعة ونصف، وقال إن الوضعَ مستقرٌ، بعضُّ المناوشات التي حصلت، وهم سيعودون الى القاعدة، ولن يبقى، وأخبرني أنه سيأتي غدًا صباحًا، فاطمئني ولا تقلقي.

-كيف لا أقلق، آه.. أشعر أنَّ نارًا شبت في قلبي.. ولدي جواد، يُمَّة اتصل عليه الآن، أريد أن أسمع صوته.

وأخذ الهاتف واتصل به، ولكنَّ الرقمَ مغلقٌ، يعيدُ الاتصال، ولكنّه لا يجيب، فيعود يطمئنها، ويقول لها: سيكون بخير لا تقلقي، لن يكون هناك خطر عليه. ويعود ثانية ويقول: أماه جواد شجاع باسل، لا تقلقي، ولا تهتمي، مجرد زوبعة ومعركة وسيتخلصون منهم. وهي مع ذلك تجلس وكأنها في مأتم والخوف يأكل قلبها الى الصباح، وما أن اشرقت الشمس وطبعت أول قبلاتها على دجلة حتى لبست عباءتها وجلست عند باب البيت تنتظر أوبته.

لم يكن جنب دارها الا بيوتات معدودة، وقد سموها مع الأيام (قرية)، وما قريتهم الا عشرون بيتًا لهم ولأبناء عمومتهم ومعها أراض زراعية واسعة جنوب غرب تكريت، تلك المساكن والأراضي ألتي استقروا بها صار لها شأن وأي شأن، فأمام اراضيهم تقع (العوجة)، تلك القرية الصغيرة التي خرج منها أحد ابنائها فقبض على دفة الحكم خمسة وثلاثين عامًا!!

الآن قريتهم أصبحت تعرف بـ(لوعة عباس)، وعباس هذا هو جدهم.

-٢-

كانت الأخبار متسارعة؛ سقطت الموصل.. ثمّ تكريت.. دُكت السجونُ .. فرَّ المحكومون .. انتشرت في تلك المناطق الأنباء عن انهيار الجيش والمؤسسات الأمنية.. هكذا غدا الوطن غير آمن، عادت هواجس الخوف تحيط بالساكنين.. عاد الهلع يتبختر وسطهم.. كلُّ شيءٍ ينذر بأيامٍ حوالك.

جواد لم يَعُد، والأم بقيت تنتظر وتنتظر ولكن لا خبر عنهم، سقطت تكريت ومناطقهم، فرَّ منها رجال الجيش مذعورين، تتسلل أخبار إعلام تقول أنَّ جوادًا ورفاقَهُ رحلوا كلهم في جريمة غاشمة ارتكبها الإرهابيون، الحكومة أنكرت ذلك، وصدقوها! هم كاذبون ونعلم أنهم كاذبون ولكن في تلك الأيام صدقوهم، لم يكن هنا بُدٌّ من التصديق، كيف تقنع الأم أن ولدها قُتل ولا جثة له؟! وفجأة تظهر الحكومة فتنكر ذلك، فيقنع الأهالي أنفسهم بما قالته الحكومة.



كان أجود يرمق الغروب وسمرته الهادئة ولمعان الحنطة المذهبة أوان الحصاد وهو جالس على تلة تشرف على أراضيهم المترامية، وفوق التلة تشمخ نخلات باسقات متعانقات وارفات الظلال يتفيأ أجود في ظلالهنَّ وإن كان وهج الشمس قد ولى. يقال أن هذا الموضع كان مقام جده عباس، وهنا تجرع حسرته ولوعته التي مات بسببها وسميت القرية بهذا الاسم (لوعة عباس). وأهل القرية اعتادوا كلما أُظلِمَت الدنيا بوجههم، وكلما حزنوا ويأسوا أو فقد حبيب أو مات عزيز جلسوا تحتها وراقبوا الغروب وتذكروا حسرة جدهم. تقع هذه التلة خلف بيت أجود وبيت عمه؛ إذ يفصل بين البيتين المتجاورين فرع يؤدي الى التلة المشرفة على حقول، وعند هذه التلة تنتهي حدود بيوتات القرية.

وبينما هو ساهٍ يتابع الغروب جاء صوت عذب طالما انتظر سماعه: أجود..

نظر نحوها وفتر ثغره عن بسمة هادئة، وجلست جنبه، فقالت:

-ما بِكَ؟

ومضى يتابع هبوط الشمس ويقول بفتور:

-أخي جواد لم يأتِنا خبر عنه، نحن خائفون عليه، لعله في خطر ونحن لا نعلم.

فقالت رحمة بسذاجتها المعهودة التي كرهتها أم أجود منذ طفولتها:

-اطمئن، رأيت في المنام جوادًا على فرسٍ أغرٍّ جامحٍ آتٍ إلينا، وهذه بشرى بعودة أخيك فلا تخفً.

لم يكن لأجود مزاج في الرد على رحمة وحديثها المُمل، وهو لأول مرة يشعر أن كلامها ممل لا قيمة له كما تنعتها بتول أختهُ بذلك، ولكنه كان يراها غير ذلك تمامًا، يرى كلامها حكمًا ودررًا، ولكن في هذا الوقت رآه ساذجًا مملًا.

-أيُّ حلم يا رحمة؟ أقول لك لم يعد ولم نسمع عنه خبرا وأنتِ تقوَلين حلم وفرس!

فقامت رحمة غضبى وتركت أجود مع أفكاره. كانت هذه المرة الأولى التي تجرأ فيها وزجرها، علاقتهما منذ الطفولة، يسكنون متجاورين، على عادة العوائل والأقارب في الريف، بيوتاتهم متراصفة في مكان واحد بلا جدار يحدها أو يفصل بينها إلا قبل سنين قصيرة عندما شبت رحمة فقرر أبوها أن يبني جدارًا بينه وبين اقاربه، وهي على أي حالٍ كالبيت الواحد. وما أن بلغ أجود الحلم حتى بدأ يسترق النظَّر إليها، ورأى فيها الفتاة المناسبة له من دون سائر قريباته، مصير الأبناء هنا في الزوج محسوم، عليه أن يأخذ بنت عمه، وإن كان قد شذ عن هذه القاعدة نفرٌ قليل، ولكن هي العادة التي فرضت نفسها، وأجود نشأ وهو يعلم هذه القاعدة جارية في حياته، فهو لم يرَ أحدًا تزوج غير بنت عمه، فعالَمُهُ محصورٌ جدًا، نشأ ولم يرَ الا بيوت أقاربه والفلاحين العاملين عندهم، ولما بلغ التاسعة دخل المدرسة القريبة، وكانت هذه المدرسة القريبة يمشون إليها ثلاثة كيلومترات، لذلك لم يكونوا يرسلون أبناءهم الى المدرسة الا عندما يبلغون التاسعة تزيد أو تنقص قليلا، وكل الرفقاء الذين يعرفهم هناك هم من أبناء الفلاحين، نفس البيئة، أما زيارة المدينة فلم يعرفها الا بعد بلوغ الخامسة عشرة عندما دخل الثانوية الاسلامية في تكريت، وزيارة المدينة عدا ذلك قليلة، في مواسم الحصاد

فقـط، وقـد زار علـوة سـامراء وبلـد والسـريع، ومـع ذلـك فـإن أجـود يعتبـر مثقفًـا قياسًـا بأبنـاءِ عمومتـه، فهـو لـم يرسـب أي سـنة فـي الابتدائيـة والمتوسـطة حتـى الثانويـة التـي لـم يكملهـا، ويمتلك مكتبـة صغيـرة فـي بيتـه يقـرأ فيهـا علـى بسـاطتها، الا أنَّه كان يقـرأ ويشـتري الكتـب علـى أي حـال. كان يأخـذ معـه خمسـة آلاف دينـار كمصـروف فـي يومـه، وهـذا المبلـغ يعتبـر كبيـرًا علـى فتـى فـي السادسـة عشـرة مـن عمـره، الا أن هـذا المبلـغ لـم يكـن مـن جيـبِ أبيـه أو أمـه، إنمـا مـن عمـه سـعيد، إذ كان عمـه هـذا ذا ثـراء، يأخـذ محصولهـم بثمـن بخـس ويبيعـه هـو، فـكان يعمـل معـه، وطالمـا اتهمـت أم أجـود عمـه بأنـه مختلـس لهـم، فتكفـل هـو بمصاريـف أجـود الدراسـية، فأصـرت أم أجـود أن يتقاضـى خمسـة آلاف يوميًـا، كان يأخذهـا، فيبقـى معـه عندمـا يعـود ألفـي دينـار، فيتركهـا فـي محفظتـه وآخر الاسـبوع يشـتري كتابًـا، ويقرأه طـول الاسـبوع، الـى أن اجتمـع معـه طائفـة مـن الكتـب الدينيـة وبعضهـا أدبيـة، ولكـن الأدبيـة التـي كان يقرأهـا ليسـت كالأدبيـة التـي يقرأهـا الشـباب مـن روايـات وقصـص غراميـة وعاطفيـة، إنمـا أدب قـديم كمـا يوصيـه اسـاتذته، كـ (البيـان والتبيـين) للجاحـظ، و(الكامـل) للمبـرد، كانـوا يسـمونه أدبًـا حقيقيًـا، أمـا مـن يقـرأ الشـعر الحـر أو شـعر الحداثـة، أو غيـره مـن أجنـاس الأدب الحديثـة فغالبًـا مـا سـخروا منـه وضحكوا عليـه، ومـا زال يذكـر ذلـك الأسـتاذ الـذي كان يدرسـهم النحـو عندمـا تحـدث لهـم عـن الشـعر الحديـث وكيـف سـخر مـن السـياب وقصيدتـه (صبـر ايـوب) عندمـا قـال لهـم:

وهـذه قصيـدة السـياب (صبـر أيـوب) التـي قدسـوها وجعلوهـا الأدب السـامي الـذي لا تصلـه يـد أديـب بعـده، أمـا واللّه أن سـجع خطيبنـا أفضـل منـه!!!

وهكذا مضوا كارهين للأدب الحديث وضروبه، يرونه مفسدة للسليقة والذوق. وكذلك من شروط أدبهم السامي أن يكون ذا رسالة وهداية ولا تُثر غريزة أو حفيظة أو تمس عقيدة، وما زال يذكر كيف يخفي الكتيب الذي كان يحوي كتاب اخبار مجنون بني عامر وأبياته التي ظن أنها فاحشة، وعندما قال لأصحابه تجمهروا نحوه، فقرأ عليهم هذه الأبيات:

كلانا مظهرٌ للناس بغضًا وكلٌّ عند صاحبه مكينُ

تُبلِّغُنا العيونُ بما أردنا وفي القلبين ثَمَّ هَوًى دَفينُ

وفجأة دخل الأستاذ، فسكتوا، فأمر أجود أن يخرج ما عنده، فقرأ البيتين بخجل كبير، فضحك الأستاذ، وقال: لا بأس، النفس تحب الطرب، وهذا مما لا بأس فيه، ولا شر يرتجى منه.

كان هذا التشجيع دافعا للمضي بمثل هذه الأشعار حفظًا وقراءة ورواية لصحبه، بل تجاوز هذا، عندما كان يعجب بشعرٍ يأتي وينظم على منواله، وهو للسرقة أقرب مما هو للتدريب على النظم، مثلا كان يحفظ قول مجنون بني عامر:

وماذا عسى الواشون أن يتحدّثوا

سوى أن يقولوا أنني لكِ عاشقُ

نَعَم صدق الواشون أنتِ حبيبةٌ

إليَّ وإن لم تصف منك الخلائق

فقال:

وماذا عسى الواشون أن يقولوا

سوى أن ينطقوا أنني لكِ عاشقُ

لكن كذب الواشون أنت حياةٌ

إليَّ وإن لم تصفُ لكِ الخلائق

إلى أن تلاحقه أحد الأساتذة بعد أن قطع شوطا في هذا المضمار، فقال له:

-أجود، هذا ليس ابداعا أو ادبًا، إنما هو سطو وسرقة!

-لمَ؟

أنت لم تبدع شيئًا، مجرد سرقة في سرقة...

-يا ولدي، ما زلت صغيرًا، والعمر أمامك طويل، فلا تضعه في هذه السرقات، كن أنت المبدع، اعتمد على شاعريتك المنتظرة، لا تقلد احدًا، انظم مهما كان شعرك ركيكًا، مع الأيام ستتقوى. وعليك بحفظ الشعر والإكثار من قراءته، حتى تنضج موهبتك.

ثم قال بصوت خفيض:

-إني أرى فيك شاعرية متدفقة، قد تبرز يومًا، جرب أن تكون شاعرًا، أو كاتبًا، وربما روائيا.

في هذا الحوار بدأ يسمع كلمات جديدة لم تمر عليه من قبل: (موهبة، نضوج، مبدع، شاعرية متدفقة، روائي). هناك شيء يطرأ عليه.

فقال الأستاذ:

-ماذا قرأت من النثر؟

-النثر؟

-أجل، قصة، رواية، مقالة، مقامة.

كان ذلك اليوم ايذانا بالتعرف على رجال جدد: المنفلوطي، الرافعي، يوسف زيدان، دوستوفسكي، امبرتو ايكو، أليف شفق، وان لم يتعرف عليهم بعمق.

وكان محل إعجاب عندما يعود من المدرسة حاملا حقيبته، أو عندما يذهب الى الحقل فإنه يحمل كتابًا يقرأ فيه وقت فراغه، ومع ذلك كله لم يفكر يومًا بامرأة عدا رحمة.

من يرَ رحمة أول وهلة يسخر من أجود وذوقه في اختيار النساء، فهو عندهم ذوّاق فهّام، فرحمة قصيرة نحيلة تميل الى السمرة ـــعلمًا أن اجود يميل الى السمرة هو الآخرـــ، وغيرُ متعلمةٍ، ولكن مع ذلك لها قسمات جذابة، وصوت رخيم له وقع، يسحر الفؤاد قبل أن يقع في الآذان، وكل الذين سمعوا بحبِّ أجود لرحمة أولوا وفسروا ذلك الحبّ، منهم من رأى أنه يريد أن يأخذها ليس حبًّا بها، إنما طمعًا بمال أبيها الذي هو مرشح وبشكل قوي لأن يصبح شيخًا لعشيرتهم خلفًا لعمه المتوعك، فهو يسعى للمال والنسب ولكن بدون جمال، ومنهم من قال أنها سحرته كما سحرت أُمها أباها من قبل، ولكن أجود كان مسحورًا بها، هائما شغوفا، وهذا الحب الذي شمل المليح والقبيح، وكلما اعترض أحد من أهله أو اقاربه وبين له ما في رحمة من قبح ظاهر وغباءٍ بادٍ ردَّ عليهم بقول ابن حزم ـــوهو كلُّ ما فَي جعبتَه من حجَجٍ يلوذ بها عن نفسه: (لو كان علة الحُبِّ حُسن الصورة الجسدية لوجب أن لا يُستَحسن الانقص في الصورة). فقال له مرة أحد أبناء عمومته ساخرًا:

–وما معنى هذا الكلام...صورة ومصور ..لم نفهم شيئًا.

فقال أجود متجاهلا سخريته:

-أي أن الحب يشمل المليح والقبيح، ألا ترى أن بعض القبيحات أسرن قلوب الرجال، وما من سبب لذلك إلا لما زرعه اللّه في القلوب من التآلف ـــكما يقول ابن حزمـــ .

وكثيرا ما تهامسوا وظنوه جاهلا في الأذواق على تفوقه عليهم دراسيًا، فهم على جلافة طبعهم، وسذاجة تفكيرهم وأميتهم إلا أنهم يحبون الشقراوات والأجنبيات، وفي نهاية المطاف تُزف إليهم بنات أعمامهم، وما زالوا يذكرون ابن عمهم سامر الذي اعتبروه نابغتهم فقد نشأ معهم كما ينشأون وتأخر في دخول المدرسة كما يتأخرون، فلم يكمل الثانوية حتى بلغ الثانية والعشرين وكان قد سُميت له بنت عمه كلاما، والكلمة عندهم لها شأن وأي شأن، فلما دخل جامعة تكريت فرأى من الحسناوات المليحات ما لم يرَه من قبل تعجب أشد ما يكون العجب، ورأى بنت عمه أمامهن قبيحة ومع ذلك القبح قوية قوة لا تليق بالنساء، وقرأ بعض قصص الحب التي كان الطلاب يتداولونها، فصنع لنفسه قصة حب خيالية، وكلما ذكر ابنة عمه، قال لهم: أحببتها ثلاث سنين، عانيت من البعد والألم ما لم يلقه قيس من ليلاه. حتى صار محل سخرية، فكلهم يعلمون هو لم يحب يوما ولم يُذق طعم الهوى إنما هو حكم العادة.

وكان العائق الأكبر أمام أجود هو أمُهُ، لم تكن تحب رحمة أو ذويها، ولم تتفق معهم يومًا من أيام عمرها، كانت متخوفة متوجسة منهم، وكم سعت سعيًا حثيثًا لئن لا تجاورهم، ولكنها فشلت على مكرها وفرض كلمتها على زوجها، فقد كانت عندهم كلمة الأم هي العليا، وأم زوجها كانت مدركة مكرها، لم تنجح في الابتعاد عن بيت رحمة، بقي الخوف من أن يقع في حبائلها شغلها، ولما ذهب أجود لإكمال دراسته الثانوية

في تكريت اطمأنت، فقد رجحت أن يرى أجود فتيات ألوانًا وأشكالًا مختلفات، وأن رحمة ستبدو في عينيه قبيحة، ولكن أجود كان فتى لا يرفع رأسه أمام بنت غريبة، ولا يتلصص كما يفعل أقرانه، بل كان يغض البصر.

هو خائف من أمه ومكرها في ضياع رحمة منه، لأنه مطيع لأمه، لا يغضبها وإن كلفه الأمر أن يخسر روحه.

-أجود.

انتبه الى الصوت الذي يناديه، واذا بعمه سعيد والد رحمة يناديه، لما رأى عمه بزي المشيخة خاف منه، لعل رحمة دخلت عليه وقالت له أنه صرخ في وجهها وأثقل لها القول فهو قادم للعتاب أو غير ذلك.

-٣-

-أريد أن أرى أمك!

هذه المرة الأولى التي يطلب بها عمه سعيد أن يرى أمه وبهذه اللهجة المتواضعة التي تنمُّ عن حدث جلل، لم يودها يومًا أو يجالسها، واذا رآها صدفةً فغالبًا لاً يبدأهًا بالسلام، وكأنها عدوة، ومن قال أنها ليست بعدوة؟ ألم يتهمها بأنها السبب الأول في وفاة أخيه الذي هو زوجها؟ ألم يطردها من مأتمه وسط ذهول الحاضرين وهو يصرخ بها دون هوادة: أخي علي لم يمُت بل هي من قتلته!!

لعمه سعيد مع أمه تاريخ طويل من الاتهامات وتبادل الصياح والصراخ، أما أبوه فلم يكن الا متفرجًا، أو مناديًا يسكت زوجته وغالبًا ما يضيع ذلك النداء في تلك الفوضى العارمة.

وأمه هي الأخرى كانت ترى عمه عدوًا لأبيه لا أخا، هو وأمه متآمران عليهم وعلى خيرهم ومالهم، ومع ذلك كانت الغلبة دائما لسعيد وأمه على أم جواد، كانت تخرج من المعركة خاسرة منكسرة، وتقلب ليل البيت نهارا، صراخًا وهياجًا وسبًّا بسعيد، وبعد أن تكمل سيل الشتائم ذاك تبدأ فتلعن قسمتها والساعة التي وافقت فيها على الزواج من علي، ومما زاد من حرقتها على نفسها وزاد مستوى الشتائم واللعن على قسمتها هو ذلك الرجل ابن ماجد الحداد الذي كان يعمل سائق سيارة حمل، إذ تقدم لخطبتها وألح هو وأهله ــــ كما تزعم ــــ في طلبها، ولكنها فضلت عليا بطل الفاو على الغريب، والحق أن أباها هو من فضَّلَ ابن صديقه وسميه على الغريب كما جرت العادة.

-ماذا؟ عمك سعيد يريدني؟ وماذا يريد هذا؟ قل له أن أمي مريضة ولا تستطيع لقياك.

فقال بصوت خفيض:

-يمّة، يبدو أنه موضوع مهم، ولا تحسبي عمي سعيدا يأتي لغير ذلك.

فقال بعد تردد وإلحاح أجود:

-هيا لنرَ بماذا جاء هذه المرة من بلايا.

كان واقفا عند باب الديوان ولا يقطع هدأة لحظة الغروب إلا طقطقت حبات مسبحته الفاخرة ولم يدخله، يزعم أن لديه أشغال وأعمال لا تنتظر التأخير، فأقبلت أم جواد بعد أن ارتدت عباءتها، وقالت بهدوء:

-أهلا يا أبا أسامة.

فقال ولم يُدِر وجهه نحوها بل بقي يراقب الأشجار:

-أهلا بكِ... يا أم جواد أنتِ رأيتِ الوضع وكيف هو في تدهور كبير، ونحن لا نعلم ماذا سيحصل غدًا، ولكن ما حصل في الموصل ليس بعيدًا أن يتكرر في تكريت وهنا، وفي الموصل حصل ما حصل من تهجير وقتل ولم يمضِ على ذلك الا أياما قلالا، ونحن سنحزم حقائب الرحيل، الدواعش لا دين لهم، وإن لم نمت على أيديهم سنموت على يد الجيش، منطقتنا هذه ستكون أرض القتال والنزال ولو بعد حين، فاستعدوا أنتم أيضا..

فقال باستنكار:

-تريدني أن أرحل دون أن اعرف مصير ولدي؟

-يا أم جواد إن كان ولدك على قيد الحياة فسيعود ولن يجد صعوبة في العثور عليكم، وإن..

فقالت بحزم:

-لا تكمل، ولدي لم يمت.

-قلت إن..

فقالت بصرامة:

-لا تقل..

-الموت حق..

فصرخت به:

-أقول لك لم يمت، فلماذا هذا الحقد القديم يحز في نفسك، حسبي الله ونعم الوكيل فيك، هذا ابن أخيك تقول إن

مـات هكـذا بـكل بسـاطة..

ثـم أغلقـت البـاب بعنـف وانفرطـت فـي بـكاءِ حـادٍ، وأتـت بتـول لتهدأهـا وإذا بهـا تدخـل معهـا فـي ذلـك البـكّاء.

-عماه.. عماه...

توقف سعيد عن سيره السريع، فقال أجود:

-عمـاه، أمـي لـم تقصـد مـا قالتـه، حالتهـا سـيئة منـذ أن غـاب أخـي جـواد، وأنـت أعلـم بحـال الأم إذا فُقِـدَ ولدهـا.

-أعلم ذلك، أنا أقدر مشاعرها.

قال ذلك ثم مضى يقطع الظلمة الكثيفة.

ولما فـرغ أجـود مـن حـوار عمـه مع أمه والمشكلة العتيقـة وأحداثها الكثيـرة والتـي عـادت حيـة أمامـه، يـوم وفـاة أبيـة، مشـكلة عمـه سـعيد، جـواد واختفـاؤه المريـب، ورحيـل بيـت عمـه، يعنـي رحيـل رحمـة. وقـف حائـرًا أمـام هـذه المشـكلة، فكـرة معارضـة أمـه لزواجـه مـن رحمـة كان يؤرقـه ويجعلـه يقضـي ليلـه سـاهرًا سـاهمًا متسـهدًا، فكيـف بـه وسـترحل الـى مـدن لـم يسـمع بهـا ولـم تطـأ قدمـه اياهـا؟ سـتجد أناسًـا غيـره، وقـد تتـزوج هنـاك فـي خضـب الحيـاة الصاخبـة التـي لـم يسـمع بهـا، فكـرة الرحيـل وحدهـا تـؤرق الانسـان، فكيـف بـه وسـترحل محبوبتـه وتتركـه هنـا وحيـدا؟

ثـم انقلـب الـى مثـواه يحـث الخطـى ويـركل الأحجـار الصغيـرة المتنـاثـرة علـى الطريـق كمـا يفعـل اليائـس، تُـرى كيـف يقنعهـا أن يرحلـوا معهـم؟ أو ليقنـع عمـه سـعيد ليعـدل عـن فكـرة الرحيـل! ولكـن مـا ذنبهمـا وقـد وقعـا بـين جبلـين مـن الخـلاف والعنـاد، قـد تلتقـي الجبـال، وقـد يتفـق الأعـداء ويأتلفـون، وقـد تجتمـع أحزابنـا السياسـية يومـا، ولكـن عمـه سـعيد وأمـه لـن يتفقـا، همـا

كالضديـن، كالليـل والنهـار، كالمـاء والنـار، لـن يتصـلا.

-لماذا لا نرحل؟

فقالت أمه بعصبية:

-أنت مجنون؟ نرحل؟ لا أراك الا قد جُننت يا ولـد، هـل نسـيت جـواد؟ وهـل نسـيت قبـر أبيـك؟ أتريدنـا نرحـل ونتركهمـا هنـا؟

ثـم مضـت فـي بكائهـا المعتـاد، وهـي تـردد قائلـة: أريـد أن أمـوت هنـا، وأدفـن جنـب أبيـك.. و..لا أعلـم مـاذا أقـول عـن أخيـك، أهـو عـدل أم ميـت، ولئـن أمـوت تحـت قصـف المدافـع والرصـاص خيـر مـن أن امـوت فـي الغربـة حسـرة وكمـدًا... وأنـت ارحـل خلـف تلـك السـمراء الدميمـة.

وقـف خارجـا يقطـع الطريـق نحـو سـهرته المعتـادة وكلامُ أُمِهِ طـاغ علـى تفكيـرِهِ .. سـمراء ودميمـة! هـذه الصفـات كلهـا فـي رحمـةً، ولـم تقـل الثالثـة فتكتمـل : (غبيـة)، يـا ربـاه رحمتـك بقلبـي، الـذي صدعتـه الهمـوم والغمـوم والأشـجان، جـواد.. أيـن أنـت؟ وأي أرض تجـوس؟ أميتٌ أنـت فنريـح ونسـتريح مـن الكـدر الـذي توشـح دارنـا ونحـزن كمـا يحـزن النـاس ونقيـم مأتمـا لائقـا، أم أنـت حـيٌّ؟ إن كنـت حيـا فاظهـر وخفـف عنـي يـا أخـي وجعـي.

-٤-

سـهرتهم المعتـادة كانـت فـي دكان تحسـين، يبقـون معـه الـى أن يمضـي هزيـع مـن الليـل. دكان تحسـين هـو لبيـع المـواد الغذائيـة، يقـع علـى الشـارع العـام، يجلسـون معـه يشـربون الشـاي والقهـوة ويتحـاورون ويضحكـون وقـد يتناقشـون قليـلاً، هـي تقـوم مقـام المقاهـي المنتشـرة فـي المدنِ، ولكـن لا قهـوة هنـا ولا رواد، فقريتهـم

صغيـرة ومعظـم رجالهـا فـي العمـل ولا مجـال لهـم فـي المسـاء للسـهر. وشـلة السـهرة قـد يحتاجـون لعشـرين دقيقـة أو تزيـد حتـى يصلـوا لمكان الـدكان، الـدكان لـه بابـان، الأول والرئيسـي يطـل علـى الشـارع العـام، وأغلـب رواده مـن المسـافرين بـين تكريت وسـامراء أو غيرهـا مـن المناطق المنتشـرة، والبـاب الثانـي خلفـي يطـل علـى بيوتـات القريـة القليلـة والحقـول والمـزارع؛ إذ فيـه الكثيـر مـن النسـاء ولا يسـتطعن القـدوم مـن البـاب الرئيسـي خجـلا وحيـاءً مـن المارين والفضوليـين ومـا أكثرهـم! ولأن الوضـع سـيء لا يطـاق فإنـه يغلـق البـاب الرئيسـي ويفتـح البـاب الصغيـر الخلفـي ليبيـع للفلاحـين والبيـوت القريبـة. أعضـاء السـهرة المعتادين هـم: تحسـين، وأسـامة، وعلـي، وأجـود. جمعتهـم ـــ عدا علـي ـــ الجـوار وصحبـة فـي المدرسـة الابتدائيـة، ثـم الثانويـة الاسـلامية فـي تكريت. أعمارهـم متقاربـة، أما الأفكار فمتباعدة أشـد مـا يكـون البعـد حتـى لتجـد أصواتهـم مرتفعـة وكأنهـم فـي عـراك، ويخيـل لمـن يسـمعهم أن مجلسَـهم الليلـة سـيكون آخـر مجلـس يجمعهـم، ولكنهـم سـرعان مـا يخرجـون وكأنَّ شـيئًا لـم يكن. تحسـين صاحـب الـدكان لـم يكـن يتناقـش كثيـرًا معهـم، ولـم يكـن يهمـه أمرهـم أصـلا، لأنَّـه يحـب المـالَ حبًّـا جمًّـا، فتـراه طـوال الجلسـة منهمكٌ فـي عـد الديـون ومتابعـة أمـور الـدكان، وإن فـرغ فغالبًـا مـا يكـون منهـكًا متعبًـا نعسـانًا، فيجلـس يسـتمع لحديثهـم بفتـور، هـو لـم يبلـغ الثانيـة والعشـرين بعـد، ومـع ذلـك فـإن لـه حصافـةً ومهـارة تجاريـة حـادة نـادرة، حتـى أن رفاقـه عندمـا كانـوا يسـخرون مـن درجاتـه فـي الامتحانـات كان يقـول لهـم: (آنـي عقلـي تجـاري مـو دراسـي)! وبـدأت تجارتـه وهـو صبـي فـي الثالثـة عشـرة عندمـا كان يبغـض الزراعـة وعملهـا المتعـب، ففتـح لـه أبـوه دكانًـا فـي بـاب البيـت يبيـع الحلـوى والعصيـر والكعـك

للأطفال، وبقي شغوفًا مجِدًا في هذه المهنة الى أن توسع دكانه الصغير، الى أن بنى دكانيَن كبيريَن على الشارع فيها كل ما يحتاجه المرء من غذاء، بل وسع دكانه فصار يبيع الجبن والقيمر والحليب الطازج في الصباح الباكر، وفتح فرنًا صغيرًا جنبهما، ودكانًا لبيع الأحذية وجنبه لبيع الملابس، ووضع عمالًا وهو في العشرين من عمره، فصار ذا مالٍ وعمالٍ يأتمرون بأمره ويطيعونه. ولكن هذا الأمر لم يستمرً الا بضعةً شهور، ليحسب تجارة محلاته وإذا به يخسر خسارةً فادحةً، وإذا بمحلاته غارقة في الديون، فجاءه أبوه يرعد ويزبد ويتوعده حاملا عصىً غليظة وما أن رأى تحسين عصى أبيه تلوح حتى فرَّ الى الحقول هاربًا تاركًا لأبيه أمر الدكاكين والديون المثقلة لكاهله، وبقي يوم ويومان، فعاد ليجد أباه قد أغلق الفرن ودكان الأحذية والملابس، ولم يبقَ الا دكان الغذائية، وأعاده الى الغذائية بعد أن وعده أن يبقى على دكانه هذا ولن يحاول فتح دكان آخر، وبقي تحسين أمدًا يفكر في خسارته تلك، كيف يخسر ويعود خاوي اليدين؟ ومن سرقه؟ والحق أن هذا التفكير لم يكن يشغل بال تحسين فحسب، بل كل من يعرفه عن كثب، فتحسين قليل البذل والعطاء، شحيح، لا يعطي سائلًا ولا يتصدق على محتاج ولا يبيع بالدين، والدينار لا يخرجه الا بعد أن يعرف ويدقق ويحسب كي لا يغبن ومع هذا يفارقه بكثير من الحزن والحسرة، فكيف يخسر وما يشتريه يبيعه بألف وخمسمئة لا يتنازل عن الدينار ولو كلفه عمره؟ لم يعرف أحد تعليلًا أو تأويلًا مناسبًا مقنعًا لنكبة تحسين وسقوطه الى القاع سقوطا مدويًا، ولكن عليًّا صديقه ادعى أن (غنية) هي من سرقت تحسين وتسببت بتلك الخسارة، وغنية هذه فتاة من البدو الرحل الذين يرتادون

تلـك المناطـق فـي موسـم الربيـع عندمـا تغـدو أراضيهـم سـهولا منبسـطة خضـراء تسـر الناظريـن، فأُعجـب تحسـين بغنيـة علـى سـواد بشـرتها، لـم يكـن ينظـر الـى الوجـه، إذ لـو لبـث ينتظـر ذات وجـه صبـوح لبقـي دهـرًا طويـلًا، ولكـن رأى فـي غنيـه مـا لـم يـرَه فـي غيرهـا مـن الشـارين، فهـي ترمـي النـكات وتقـف تتجاذب معه الحديث وغالبًا ما يكون حديثها متغنجًا منطويًا على ألـوانٍ وأصنـاف مختلفـة من مكـر النسـاء وسـحرهن الأخّـاذ، ولـو ألقتـهُ وهـي تتلّـوى وتتمايـل أمامـه بعباءتهـا الضيقـة والتـي صـورت جسـدها كامـلًا بل زادتـه حسـنًا ورونقًـا على شـيخ كهلٍ ولـت أيامـه لأغوتـه فكيـف بهـا وهـي تلقيـه علـى فتـى يتّفجـرُ شـبابا؟ وادعـت لميعـة الجـارة ـــ والتـي وصفهـا تحسـين بجـارة السـوء والشـؤمــ أن غنيـة كانـت تأتـي علـى دكان تحسـين فـي الثانيـة ظهـرا وهـو وقـت اغلاقـه وتبقـى لسـاعات ممتـدة، لـم يقتنـع تحسـين في أعمـاق نفسـه أن غنيـة هـي مـن خًسَّـرته وكبَّلتـه بديـون طائلـة سيفني سـنتين في تسـديدها، ولكـن هـذه القناعـة ترسـخت تدريجيًـا فيـه بعـد أن علـم أن غنيـة هاجـرت وإنهـا لـم تعـد الـى دكانِـه مـن يـوم فـراره الـى الحقـل مـن غضـب أبيـه.

وثانـي أعضـاء السـهرة المعتـادة هـو أسـامة الابـن الوحيـد لسـعيد عـم أجـود، وهـو نشـأ مـع أجـود، وذهـب معـه ومـع تحسـين فـي الثانويـة الاسـلامية فـي تكريـت، وكان اوسـمهم وأجملهـم شـكلًا، فعينـاه زرقـاوان ووجـه صقيـل أبيـض، ولكـن بفعـل الشـمس انقلب بياضـه سـمارًا، ولكـن فيـه تعصبًـا فـي الديـن وتشـددًا، لـم يكـن تشـدد أسـامة تشـددًا حـدَّ التطـرف أوَّلَ الأمـرِ، بـل كان شـابًا محافظَـا، يصلـي الصـلاة لوقتهـا، يأمـر بالمعـروف وينهـى عـن المنكـر، وهـذا الشـيء طبيعـي فـي تكريـت موطـن درسـه وحتـى فـي سـامراء التـي زارهـا مـرارًا، ولكـن فـي تلـك البيئيـة كان أمـرًا

منكـرًا، فمعظـم النـاس أُميّـة لا يحسـنون القـراءة، ولمـا دخلـت المدارس مناطقهـم تحسـن وضعهـم ولكـن ليـس لحـد أن يتقبلـوا أمـر أسـامة، أسـامة كان مولعًـا بالمطالعـة وقـراءة القصص كابـن عمـه وسـميه، وكل مـا كان يملكـه مـن كتـب هـي سـيرة ابـن هشـام وتاريـخ الخلفـاء للسـيوطي وكتـاب المعـارف لابـن قتيبـة والمسـتطرف مـن كلِّ فـنّ مسـتظرف، فلمـا درس فـي تكريـت ولقـي أسـاتذة ومعلمـين متمكنـين تعـرف علـى علمـاء ومفكريـن لـم يسـمع باسـمهم الا مـن بعيـد، الغزالـي، الطبـري، ابـن كثيـر، الجاحـظ، ابـن تيميـة، اسـماء كان يسـمع بهـا ولـم يعرفهـا، فلمـا زار المكتبـات فـي تكريـت و قـرأ ودرس انقلـب حالـه، فهـو كان مـن الذيـن يقـرأون فيتأثـرون بمـا قـرأوا بخـلاف أجـود، ارتـاد مسـجدهم ولكـن بفكـر جديـد لـم يسـمعوا بـه، فمثـلا لمـا سـمع أن أبـا حـازم يتعاطـى الربـا ولكـن بشـكل ملتـو، ليحـل مـا حـرم اللّه، وذلـك عندمـا يأتيـه محتاجـا يريـد قرضًـا ًـــوهـو معـروف بهـذا العمـلـــ يقـول لـه: لنفـرض عنـدك بقـرة تريـد بيعهـا بمليـون دينـار، خـذ المليـون (وينقـده المبلـغ) والان سـأبيعها لـك بمليـون وربـع بالآجـل ..!

ويبقـى علـى هـذا الحـال يبيـع ويشـتري بالبقـرة المتخيلـة الـى أن يقرضـه مـن المـال مـا يريـد، فيعطيـه مثـلا خمسـة ملايـين ثمـن تلـك البقـرة التـي تضاعـف لأضعـاف كثيـرة ويبقـى عليـه ديـن سـبعة ملايـين ثمـن البقـرات!!

-عم أبو حازم ما تقوم به حرام، وهو نوع من أنواع الربا .

فقال أبو حازم محتجًا:

-يا ابن أخي كيف يكون ربًا وأنا بعتُ واشتريت؟!

-أيُّ بيع يا عم؟ أنت تضحك على نفسك!

-بيع البقرة.

-أي بقرة؟!

-التي بعتها واشتراها مني ثم باعها لي ثم اشتريتها..

فقاطعه أسامة :

-واشتريت وبعت بزيادة وبقيت تزيد وتبيع في الهواء، ولا يوجد بقرة في الموضوع ولا بيع ولا شراء..

فقال أبو حازم مغمغمًا يريد صرفه:

-لم أجبر أحدًا على شيء، هم من يأتوني.

فقال أسامة بلهجة ظاهرها الهدوء وباطنها ومن قِبلها عصبية متأججة:

-إنما هو رجل ضاقت به السُبُل وماجت به الأيام فلم يجد ركنا يأوي إليه أو شيئًا يلوذ من قسوة ضائقته المالية فجاء مضطرًا مكرهًا لأمثالك من تجار الأزمات. وإن كنت تحب أن تقرض الناس فاقرضه قرضًا حسنًا، والله يضاعف لك الأجر يوم القيامة، ولكنك تستغل عازة الناس.

فقال ابو حازم صائحًا:

-أيها الولد..

فقال أسامة بحزم:

-لست ولدًا بل رجلًا..

-اغرب عني واذهب الى أبيك قبل أن تضيع.. هيًّا..

وانقلب حديثهما الى صياح صاخب، ابو حازم يرعد ويتوعد، واسامة يقول له:

-قبحك الله من رجلٍ، تحتال على شرع الله وتحل ما حرم علنًا ولا ترضى بمن ينصحك؟ والله ليقلبها بكم ربي.

-لم أحتج لك.

وطال الأمر وتحول حديثهما لجلسة عشائرية بين أبي حازم وأبي أسامة، وطالب أبو حازم أن يرد له اعتباره، واجتمع الرجال للفصل ولكن أسامة رفض الاعتذار لرد الاعتبار لابي حازم، لأنه ليس على خطأ، وأعتذر أبوه نيابة عنه. بعد تلك الحادثة صار الكثير من الناس يتجنبون أسامة والحديث معه، حتى الفتيات اللواتي أعجبن بشكله الوديع لم يستسغن صرامة طبعه وعصبيته، ولكن رفقاء السهرة لم يتركوه خاصة ابن عمه أجود، لأنهم مؤمنون أنه أحسنهم وأطيبهم ولكن المجتمع لم يرغب به، ولم يمتلك ثقافة لدرجة قبول أسامة. لذلك آمن أسامة مع مرور الأيام أن المجتمع الذي هو فيه لا يصلح للحياة التي عرفها، هناك فرق كبير بين ما تحمله مظان الكتب وبين الواقع، تلك الأفكار التي تشربها وشبع منها وهضمها، اين تنفذ؟

وثالث أعضاء السهرة علي، المهندس الجديد، وهو ابن عم أجود سالم، ابو علي قضى نحبه منذ وقت مبكر، عندما دخل الجيش الأمريكي العراق انخرط في صفوف المقاومة وقضى نحبه في معركة الفلوجة. علي أكبر منهم ببضع سنين، ولكنه يعاني من مشاكل كما يعاني أهل المدن، بطالة، لا امكانية للزواج، فسخر منه تحسين أول الأمر وحسبه ساذجًا لا يفقه شيئًا من الحياة، وعلي تركه وخرج إذ حسبه جاهلًا، إلا أن اجود تدارك الموقف، فأخبر تحسين أنَّ عليًا له ثقافة تختلف، ثقافة المدينة، فهو لا يستطيع الزواج كما نستطيع نحن، ولا يستطيع العمل كما نعمل نحن.

-يعمل كما يعمل خلق اللّه، فلاحا او صاحب محل أو سائقا، أيَّ شيءٍ.

فقال أجود بتؤدة:

-يا أخي هذا مهندس مدني، ودرس في بغداد، لهم ثقافة تختلف عن ثقافتنا ومعيشتهم تختلف عنا، لا يستطيع المرء منهم أن يتزوج دون معرفة مسبقة، يعني يحبها أولا لا أن يرضى ببنت عمه، وهو عندما يقول لك: (ابحث عن عمل) يعني وظيفة حكومية أو أهلية ضمن تخصصه، يعني تعيينا، ولا توجد تعيينات الا لمن يدفع، وهو رجل لا يملك ما يدفعه للمرتشين لأجل التعيين.

المهندس علي عندما عاد الى ديار أبيه يحمل شهادة الهندسة المدنية فرح به أهله وأبناء عمومته، وعلي هذا كان شيئًا مبهمًا بالنسبة لهم بل رمزًا ملغزًا، فأبوه رمز للشجاعة والنضال، ولم يخفف من مصاب ذويه الا ذلك الفخر الذي بقي ملازمًا لهم، حملته أمه بعد وفاة أبيه وذهبت الى بغداد عند أهلها ولم يكن ليأتيهم الا لمامًا، فلما استقرت الأوضاع وعم السلم وتخرج اعادته أمه الى دار أبيه، خاصة وأن أباه يمتلك بيتًا وأرضًا واسعةً، وهي التي ضمها سعيد الى أرضه في وقتها. أجود وأسامة استأنسا به وارتبطا بعلاقة وثيقة العرى متصلة، الى أن غدا لقاؤهم شيئا رتيبا شبه يومي في دكان تحسين. علي لم يجد أفضل منهم في تلك المنطقة على تباين التحصيل الدراسي بينهم، ولكن من يرَ أجود وأسامة ويحاورهما يرى أنهما يمتلكان نصيبًا من الثقافة غير قليل، وهما جادان في مطالعتهما وتحصيلهما مما حفز علي على الاستمرار والتواصل لإنشاء مشروع (اقرأ) في القرية لو كتب

له البقاء. وقد فرح أجود وأسامة بعلي، فهو روح جديدة قد بثت في مجالسهم ولقاءاتهم، ولما كان تحسين تبعا لهما صار أيضا من أصحابه. علي لا تكاد تعرف له دين أو ملة أو نحلة، تراه يتفق مع الكل ولا يختلف مع أحد، وكم اجتهد أجود في معرفة مذهبه وتوجهه ولكنه فشل في ذلك، لدرجة أن اقر مرة بعجزه فقال له:

-علي، بماذا تؤمن.

فقال له:

-أؤمن بما تؤمنون.

-يعني مسلم.

فقال ضاحكا:

-وهل في ذاك شك.

-لمَ لا تصلي؟

-ومن قال إني لا أصلي؟

-لم أرَك في المسجد أبدا.

-الصلاة في المسجد ليس فرضا كما أعلم.

-صحيح، ولكنك لا تدخله أبدا!!

وعلي هذا هو أول من عرف أسامة وأجود على اسماء لم يسمعوا بها من قبل، فمثلا مرة كان يتكلم معهم عن الزواج في الأديان وكيف ان الاسلام جمع بين النظرة المادية والروحية الصوفية:

لقد أثبت (فرويد) أن الغريزة الجنسية لا يمكن تدميرها وإنما

فقط كبتها، وأنَّ كبت الدوافع الجنسية يجلب مساوئ أكثر.

يا اللّه من (فرويد)؟ هما لم يسمعا به من قبل.

ثم مضى قائلا: ويقول الفيلسوف المسلم علي عزت بيجوفيتش معلقًا على رأي فرويد هذا: فمهما كان مطلب العفة والكبت في المسيحية ساميًا، إلا أن فكرة الاسلام عن ضبط الحياة الجنسية والتوسط فيها أنسب للاسلام، لأن فيها اعتراف بالمشكلة ومواجهتها، وفي هذا المجال ليس الاسلام دينًا مجردًا، ذلك لأن البراهين التي تدعم الحياة الجنسية كلها براهين عقلية وعملية وليست دينية

فبقيا فاغري فيهما لا يعلمون ماذا يجيبون، ومن (بيجوفيتش) هذا؟ الاسماء الغريبة كانت من سمته التي خصوه بها، فهو إذا ذكر الشعراء ذكر (دانتي) و(جوتة) و(فولتير) وهم يعرفون من الشعراء امرئ القيس وأبا الطيب وأبا العلاء المعري، أنى لهم معرفة هذه الأسماء التي لا يستطيعون لفظها أصلا؟!



-لم يبقَ الا القليل، ساعاتٌ قِلالٌ وينتهي أمرنا وتعلن دولتهم هاهنا، انتهى كل شيء، حتى هذا المجلس لن يعود كما نجتمع الآن، ربما هذا الاجتماع الأخير والسهرة الأخيرة، منذ الغد ستكون هذه السيكارة محرمة علينا، وهذه الشعيرات المنتشرات في ذقونكم فرضًا.

قال علي ذلك بيأسٍ بادٍ. فقال أجود:

-ربما ليس الأمر بهذا السوء كما يخيل لك.

-كيف اذن؟ هل شاهدت الموصل؟ كيف مزقت أشلاءً، كيف وئدت، أهذا اسلام ترتضيه؟

-ومـن قـال إنهـم يمثلـون الإسـلام الصحيـح؟ هـم متطرفـون متشـددون.

فقال اسامة:

-لـمَ التطـرف يـا أجـود؟ أليـس مـن الديـن قطـع يـد السـارق والأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر، والدعـوة الـى توحيـد الالوهيـة والربوبيـة والأسـماء والصفـات؟ والدعـوة الـى إقامـة العـدل، أليسـت هـذه مـن صميـم الإسـلام؟

فقال أجود:

-ومـا قولـك فـي القتـل والذبـح الـذي ارتكبـوه، أهـو مـن صميـم الاسـلام الـذي يدعونـه؟ لمـاذا تـرون الحقيقـة مـن جانـب واحـد؟ ألا تـرى أنهـم يأخـذون بالعنـف ويقتلـون بالشـبهة دون رفـق كمـا تدعـون، هـم صـورة عكسـية للإسـلام، بـل هـم صـورة مـن الخـوارج السـابقين.

-الخـوارج خرجـوا علـى علـي بـن أبـي طالـب، فتـى الاسـلام وخليفـة المسـلمين وابـن عـم النبـي صلـى اللّه عليـه وسـلم، وكان مـن الصالحـين المصلحـين الآمريـن بالمعـروف الناهـين عـن المنكـر، أمـا الدولـة الاسـلامية فهـي خارجـة علـى دولـة الظلـم والجـور والتعسـف، أنسـيت أبنـاء جلدتنـا مـن المجاهديـن الذيـن بذلـوا الغالـي والنفيـس فـي جهادهـم ضـد الأمريـكان، ومـاذا كافأتهـم دولتـك؟ هـه؟ المكافـأة كانـت أن زجـوا بهـم فـي السـجون، يعانـون مـن العـذاب أشـده، أي دولـة تسـجن رجالهـا الصالحـين فـلا تـأس عليهـا ولا تنتظـر منهـا خيـرا، الدولـة خيـر مـا تكـون لأبنائهـا الخُلصـاء، فكيـف بهـا ويحـك وقـد ملئـت بهـم السـجون؟ هـذه سـقطة واحـدة مـن سـقطات دولتكـم الرشـيدة (وقـال كلمتـه الأخيـرة بسـخرية لاذعـة) وعـدا ذلـك القانـون الجائـر الـذي لا

يستند الى شرع ولا الى دين، بل هو قانون وضعه البشر وفضلوه على قانون ربهم، امثل هذا يستقيم أمر الدولة؟ ولعلكم لم تسمعوا بحكمة ابن خلدون : (العدل إذا دام عمَّر، والظلم إذا دام دمَّر).

فقال علي ساخرا:

-وهل الدولة التي ستأتينا عارفة بحكم ابن خلدون وفلسفته في شؤون الحكم والعمران والبنيان كما تعرف أنت وهل ستطبقها كما تظن، إني أكاد أراك ساذجًا غُرر به، لا يفقه شيئًا، وستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا، لعل حكمة الشاعر الجاهلي تنطبق عليك خير من حكم ابن خلدون التي تريد أن تطبقها دولتك!! من يسلك مسالك الهمج الهامج لا تظنه قد سمع بابن خلدون والغزالي وحتى ابن تيمية، وحتى ان سمع بهم لا تحسبه قرأ لهم، وان قرا لهم فلا تحسبه فهم عليهم، وإن فهم عليهم فلا تحسبه طبقه، من يفعل ما يفعلون من إجرام لا تتوقع منهم أن يفعلوا خيرا لك.

كل واحد منهم كان يرى نفسه رأسًا، ولكنها كرؤوس البصل، كثيرة رخيصة بلا قيمة، ولكن هذه الرؤوس الرخيصة أوردتهم الهلاك والخراب من حيث لم يحتسبوا.

وقف سعيد أمام أرضه الواسعة، وسرعان ما تحدرت دموعه بسخاء مفرط، وكأنها استغلت الظلمة الحالكة لتنهمر، البكاء لأمثاله عيبًا، بل مخرمًا للمروءة، ولكن هنا أمام تعب الأب الكدوح واخوته الذي افنوا عمرهم في سبيلها حرثًا وزرعًا وحصادًا، ولكن الآن ضاع كل شيء، وغدًا سيتركها هربًا بنفسه وماله، كم كافح ونافح في سبيلها، مع أم جواد وأولادها، مع أم علي التي أتت بعد احد عشر عاما تطالب بأرضها وبيتها،

وكل هـذا سـيزول، بيتـه الفخـم الـذي بنـاه بدمـه قـد لا يعـود إليـه ثانيـة، مـا العمـل؟ الرحيـل كُتِـبَ علينـا أم نحـن مـن يكتبـه علـى أنفسـهم؟ وإن لـم نرحل هـل نَبقـى ننتظـر الموت هكـذا؟ ألـم يكـن آباؤنـا يموتـون فـي سـبيلها ويثـورون ويئـدون حكومـاتٍ ودولا؟ فمالـي أفـر وقـد دنـا الخطـر؟

وفجـأة خطـر خاطـر يبـرر جبنـه ونكوصـه والفـرار مـن المعركـة قبـل بدأهـا: لما كان آباؤنـا يسـتهدون فـي سـبيل الأرض لـم يكـن لهـم وجهـة يولونهـا أو مـال يسـافرون بـه ويعيشـون منـه فـي بلـد آخـر، ونحـن لنـا ..!

بينمـا هـو يطمـأن لهـذا الخاطـر تـراءت صـورة أبيـه فـي الحقـل وهـو ينسـج قصـة كفاحـه وكدحـه الطويـل..

-٥-

مـن كان يصـدق أن هـذه الأراضـي هـي لذريـة عبـاس وقـد انفـرد بهـا ولـده سـعيد دونهـم أجمعـين، لـو أخبـرت عاقـلًا أن ذلـك الفتـى المدلـل الـذي خـرج هائمًـا لا يلـوي علـى شـيء وصـدره ينطـوي علـى فكـرة مجنونـة خلاصتهـا الانتحـار فـي دجلـة سـيملك هـذه الأراضـي الشاسـعاتً لما صدقـك، لـم يكـن يفصـل بـين بيـت الحـاج صبحـي ودجلـة إلا سـور متـآكل، وكان عبـاس قـد قـرر الانتحـار فعـلًا أوَّل مـا يجتـاز ذلـك السـور، ولكـن أيـام المـرء متقلبـة متغيـرة كتتابـع الفصـول، قـد تأتـي مكفهـرة ملبـدة بالغيـوم، وقـد تأتـي شـمس رائقـة هادئـة، وقـد تأتـي محرقـة. الان سـعيد يمتلـك مـا تنـوء عـن حملـه الأبطـال، مـال وفيـر وعيـشٌ رخـيٌّ رغيـد، لـم ينـل سـعيد وإخوتـه مـن نوائـب ومصائـب ممـا نـال ابوهـم مـن قبـل.

ومـع كل هـذه المـال الطائلـة مـن الزراعـة ومـن اضـرب التجـارة التـي كان يعمـل بهـا كابـر سـعيد فـي دفـع الـزكاة وماطـل، وكثيـرًا مـا وقـف أسـامة فـي وجهـه ثائـرًا محـاولًا اقناعـه ولكـن عبثًـا، حتـى أن رجـلًا عجـوزًا مـن صحبـة أبيـه قـال لـه:

-المـال ليـس مالـك لتمنعـه عـن الفقـراء، المـال مـال اللّٰه وقـد جمعـه الحـاج عبـاس رحمـه بجهـده وتعبـه، ولكـن لـم يكـن يمنـع حـق الفقـراء.

فقال سعيد:

-يـا عـم، لـم يكـن أبـي يمتلك هـذا المـال، وأنـا اليـوم أدفـع أضعـاف مـا كان يدفـع هو.

-قياسًـا علـى مالـك اليـوم فهـو أقـل مـن القليـل، يـا ابـا أسـامة هـذا حـق اللّٰه المفـروض.

-وأنا أعطيت هذا الحق، ولا تتدخل في أمر ليس من شأنك.

-وحق زوجة عمك سالم رحمه اللّٰه أم علي؟

-هـذا المـال مـن كدنـا وتعبنـا، ولـم يعمـل أخـي سـالم رحمـه اللّٰه معنـا، لا حـق لهـا ولا لابنهـا، وأنـت تعلـم ذلـك جيـدا.

فقال الرجل العجوز بيأس:

-وحق أم جواد؟

فقال سعيد بانفعال:

-ومـا بهـا أم جـواد؟ مـا شـاء اللّٰه تجلـس فـي بيـت بنيتـه لهـا دون أن تدفـع درهمًـا أو دينـارًا، وأنفقـت علـى ولدهـا أجـود مـا لـم أنفقـه علـى ولـدي.

-تدفعٍ! ومالِ أخيك الذي أخذته؟ هل نسيت؟ أنت تعد الواجب فضلًا ومنةً منك، وأي بيت؟ بيت متواضع لم يكلفك خمسة عشر مليونًا، بينما بيتك ما شاء الله، كأنه بيت أمير أو وزير.

-أتحسدني في تعب عمري؟

لا أحسدك، ولكن أدِ حق الله وحق إخوتك.

هذا جانب من المشاحنات التي لا تنتهي، ولكنَّ سعيدا بقي مصرًّا على جهله، ماضيًا في غيه، الى أن غدا ـــ بأملاك أبيه واخوته ـــ من الأثرياء ثراءً فاحشًا، كل المشاحنات التي تمر عليه هينة، الا ولده أسامة، فقد كان عنيدًا، وعناد أسامة وحده الذي كان يؤرق سعيد، ولولاه ما دفع حق الفقراء ـــ وان كان أقل من نصيب الزكاة بكثير ـــ دفع ذلك النصيب شراءً لراحته وحلًا للمواجدة والمجافاة التي بينهما وما أكثرها، وما أكثر ما يصفح سعيد ـــ وإن بالغ أسامة في عناده ـــ ولكن الأمر لم يقف، كان أسامة يخاطب أباه بعصبية المستضعف المغلوبِ على أمرِه: أتمنع حق الله يا أبتِ؟ هذا حقٌ فرضه اللهُ، فلمَ تغير ما أمرَ الله به أن ينفق؟ يا أبتِ الزكاة تورث البركة وأنت بفعلك هذا تفعل ما يمحق البركة من مالنا، ثم أن حق الزكاة قليل، من كل مليون دينار تدفع خمسة وعشرين ألفًا، وهي قليلة والله قليلة، ومهما ستدفعه سيكون كمن يأخذ من دجلة مجرىً صغيرا على شكل ساقية لأرضِه المجاورة للنهر.

والحق ما قاله أسامة أن مال الزكاة قليلٌ، ولكن الخمسة والعشرين ألفًا إذا أستلت من كل مليون من ملايين أبيه الطائلة سيبدو مبلغًا ضخمًا جدًا وهذا ما يمنع أباه من اخراجه عن طيبِ نفس. هو يطيل نَفَسه مع أسامة كما يقول، فهو وحيده، والولد ذخرٌ، واسم يرثه بعده، ولكنه لم يأتِ على هواه،

وعـزر شـدته وعنـاده للمـدارس والكتـب التـي يقرأهـا، حتـى أنـه قـال مـرة: لعـن اللّٰه تلـك السـاعة السـوداء عندمـا جاءنـي أخـي علـي وقـال لنرسـله مـع أجـود الـى تكريت، يتعلـم الديـن. فقلـت لنفسـي، يتعلـم الديـن ويتثقـف لا أن يكون متشـددا، وهـذا أجـود درس معـه ولكن لا يعاندني أو يجـادل. كان سـعيد يظـن أن أجـود لـم يجادلـه فـي مـال ابيـه الذاهـب إلّا محبـة واحترامًـا، ولكـن الأمـر ليـس كذلـك ويعرفـه أصغـر أفـراد الأسـرة، فأجـود يريـد رحمـة، وهـو سـاكت طمعًـا فيهـا، وهـذا مـا جعـل بعـض الأقربـاء يفسـرون ذلـك السـكوت بأنـه طمـع بميراثهـا الـذي سـترثه ، ولكـن أمـه وأخـاه جـوادا كانـا أشـد عنـادا وشـكيمة مـن أسـامة، لدرجـةٍ أنهمـا أجبـراه علـى بنـاءِ بيـتٍ لهـم، وإن كان هـذا البيـت بسـيطًا لـم يكلفـه شـيئا يسـتحق الذِّكـر أو الشـكر أمـام الأمـوال التـي حصـل عليهـا بشـرائه الحنطـة منهـم بثمـن بخـس وبيعهـا للدولـة بأضعـاف مـا اشـترى، فهـو قليـل مـن كثيـر، ولكـن واجهـوه بـكل صلافـة، وأجلسـوه مـع عمـه أبـي زوجـه ـــوهـو شـيخ قبيلـة ـــ ، وجاءتـه أم علـيٍ هـي الأخـرى تطالـب بحـق زوجهـا الـذي أورثهـم مجـدًا واكاليـلَ مـن الفخـر لا تنتهـي ولكنهـا لـم تقـدر عليـه، وأنـى لسـيدة بغداديـة حضريـة تواجـه رجـلًا صلـدًا مـارس كل أنـواع التجـارة فهـو يملـك حذاقـة التجّـار وذكاءَهـم وقـوة رجـال القريـة وشـدتهم؟!



فـي حديقـة بيـت سـعيد ذات الثـراء والرخـاء انطرحـت مناجـاة رحمـة مجسـدة لمعاناة جدهـا عبـاس، تبـث شـكواها لذلـك الليـل الطويـل ومـا تعانيـه مـن أجـود وهاجـس الرحيـل المؤرق لهـا، تُـرى متـى يطلـع الغـد، فترفـع حُجُبُ الترقـبِ الأليمـةِ؟

كانت رحمة رقيقة كنسمة الصباح الهادئة، تحزن من أصغر كلمة، وتصعَّر خدها لمن آذها بتلك الكلمة الصغيرة، ولكن مع ذلك ترضى بأدنى كلمات الاعتذار، وكم جافاها أجود، فتعود مكفهرة كاسفة البال، وقد تقضي ليلها تذرف الدموع السواجم بسخاء محب عاشق، وفي اليوم التالي يأتيها وترضى بكلمة أو غمزة من بعيد أو حتًى قبلة في الهواء، وكانت تظن هذه المرة كتلك المرات عندما جاء أبوها مكفهرًا يقطر غضبًا.

-ما بِك يا أبتِ؟

فقال بعصبية وصوت يشبه الصراخ:

-ما بي؟ وماذا يحصل أكثر من هذا الذي بي؟

-ماذا حصل؟

-أخوكِ، وهل من شيء في هذه الدنيا يكدر صفوي وينغص عيشي ويقلب الدنيا عليَّ ظلامًا وسوادًا غيره؟ الأفندي أخوك لا يريد الذهاب معنا يوم غد، ماذا أفعل (ثم صرخة ـــ بدت لرحمةـــ أنها شقت الفضاءً) ماذا أفعل؟ ..

وبينما هو يتابع صراخه جاء أسامة من سهرته يسير ببطء..

-تعال يا أفندي تعال..

وقف أمامه وقال بمنتهى الهدوء:

-ماذا هناك؟

فقال أبوه وقد استفزه هدوءه:

-ماذا هناك؟ كأنك لا تعلم، سترحل معنا، إن رضيت وإن لم ترضَ!

فقال أسامة بهدوئه المستفز:

-لن أرحل.

-سأُعصب يدك، واقودك مصفدًا الى السيارة.

فقال باسمًا بسمة أقرب ما تكون الى الاستهزاء:

-شغل عصابات!

-أنت عاقٌ، مراءٍ لا تمت الى الدين بصلة.

-انا لا امثل الدين، وأنت لست بقاضٍ.

فقال سعيد باستسلام أخير:

-لن أدعك هنا، صدقني مستعد أقتلك ولا أتركك هنا، وأترك خلق الله كلهم يتركونا عبرة وحديثًا يملؤون به المجالس، تحسب أني مغفل؟ تظن اني لا أعلم ما يجول في ذهنك؟ اعرف حركاتك وسكناتك، اعرف الدم الذي يجري بعروقك، تريد أن تبقى هنا لتكون مع (داعش)!!!

عندها شهقت رحمة ووضعت راحتيها على فيها، وأمها بدأت تذرف الدموع وتدعو له بالهداية، وأجود وعلي دخلا مسرعين بعد أن سمعا الصوت، ولكن عمهم لم يعبأ بهم:

-أنت صبيٌّ لم تعرف من الدنيا شيئا، أتعلم عندما تكون معهم ماذا يعني؟ يعني أننا سنتشرد، كم يريدون البقاء بقوتهم هذه ؟ شهرا، سنة، سنتين؟ وبعدها؟ (ثم قال بعد أن استعاد شيئا من هدوئه): الجيش الذي فرِطَ حبله سيجتمع، ويعاونه العالم أجمع، فيأتي بما لا تقدرونَ عليه، من مدافع وقنابل وطائرات، ثم ماذا؟؟ كلنا سنكون في نظرهم مجرمين، أنت واحد منهم قد تقتل، أو تسجن ثم تعدم، أما نحن وهؤلاء أبناء

عمومتك، ماذا عنا؟ سنكون مجرمين، مهددين، ونحمل دماءً سفكها الارهابيون، سنتحمل وزرهم نحن، أختك هذه ماذا سيحصل بها، هل تعلم ستكون هي قاتلة إن قتلوا، ومجرمة، منفية، كل الأعراف والمجتمعات سترفضها، ستورثنا عارًا نحمله أبدَ العمر.

فقال بهدوء:

-أنا لا أريد أن أنضم اليهم.

-فلم البقاء؟

-لأنها أرضنا.

-ستغدو أرضا للموت، والخوف، والحرب.

-لمَ نستسلم قبل أن تبدأ الحرب أصلا؟

-ألم ترَ المعركة التي بدأت في الموصل؟ اذا بدأت المعركة علينا أن نعيشها، وهل تتوقع أن اجسادنا النحيلة قادرة ذلك؟ لا اظن.

واستمر الصياح وسط بصيص ضياء خافتٍ متدفق من الأضواء القليلة المنتشرة حول البيت والتي كانت كثيرة ولكن الخوف من أن يكون بيته هدفًا للعسكر يستهدفونه جعلهم يطفئونها.

-٦-

القرية عبارة عن بيوتات تزيد على العشرين بقليل، وبين هذه البيوت صلة قربى ووشائج نسب فيما بينهم لدرجة أنهم تجاوروا، وقد تبدو للناظر من أول وهلة أن اهلها يبالغون اذ

أطلقوا على هذه البيوت القليلة (قرية). ولكن القرية كبيرة تعادل قرية تصل بيوتها لمائة بيت، وذلك أن لأصحاب القرية أراضٍ كبيرة مترامية، وفي هذه الاراضي فلاحون عاملون، وحرس، وكثير منهم يبنون غرفة من الآجر ويسكنون بها، فلذلك هذه القرية تعتبر مصدر رزق، فيها التجارة والزراعة والقروض الربوية.

أما الزراعة فهذه صناعة اهلها كلهم، كل بيت من تلك البيوتات له زرع وفلاحون، وراع يرعى غنمه، وكل بيت من البيوت عبارة عن حقل للحيوانات التي يحتاجونها، الغنم والماعز يشربون حليبها ويجعلونه قيمرًا يفطرون به، ويذبحون للضيف إذا جاء، وكذلك لهم، إذ إن كل بيت يذبح خروفًا يستهلكونه، إذ لا يوجد جزارون كالمدن، والدجاج أيضا للذبح يأكلونه، وبيضه للإفطار، والبقرات السمان للتجارة اكثر مما هنَّ للاستهلاك المنزلي، وإذا جاء ضيف فلا يضعون له الا اكلتهم المعتادة (قوزي)، وغالبًا ما يأتي على صفيحة كبيرة وأرز وفوق الأرز لحم الخروف، أما اللحم وكميته فحسب قدرة صاحب الدار ومكانة الضيف، فإن كان الضيف ذا شأن ومكانة يضعون له خروفًا مشويًا كاملا حتى الرأس معه، وإن كان الضيف رجلا من عامة القوم فيضعون اللحم مقطعًا، أما الدجاج فقد يضعونه معه ولكن الأثرياء الكرماء منهم يرون ذاك عيبًا ونقيصة، فالدجاج لا يسمو سمو الخروف والضأن.

وأما التجارة فسعيد هو صاحبها الحاذق بها وبطرقها وأفنانها، برع في تجارة السيارات، فعظم ماله، وصار أكبر تاجر هناك، ولكن غالب سياراته يبيعها بوعد وأجل معلوم، أي يبيع السيارة أغلى من ثمنها الحقيقي بالآجلٍ أو الأقساط، فنما ماله نموًا فاحشًا آثار حسد الجيران والأقرباء قبل البعداء.

-يبيع أكثر من ست سيارات في اليوم، وأنا حين فتحت دكانا صغيرا جنب دكاني أكلتني الناس حسدًا.

هكذا حدث تحسين نفسه وهو يرى تلك التجارة في رواجٍ مستمر.

وكان هناك تجارة أخرى بين ليلة وضحاها صار صاحبها ثريًا ثراءً فاحشًا، وذلك عمل أبي حازم وأخيه عمرو، وطرق الربا الملتوية، وبعدها فتحوا صيرفة في تكريت، الكل يعلم أن أبا حازم وأخاه عمروا لا يتورعون عن أكل الحرام مهما تعددت طرقه، المهم أن يملكون مالاً. الطمع هو سمتهم. ولكن أمرًا كان يثير الناس (المحافظين) عليه، هو أنه يأكل الحرام ولا يقول هو حرام، بل يحله لنفسه، هكذا بكل صلافة مما أثار عليه اسامة مرارًا.

وبيت الحاج سعود، الذين يعملون في تجارة الشاحنات وحمولات النقل، والحاج سعود يملك من المال ما لا يعد أو يحصى، وهو عجوز طماع ولكنه لا علاقة له بأحد مهما كان، وهو لا يدفع حق الزكاة، ولا يسمع نصحًا من أحد، وكانت فيه شجاعة الباطل، إذ يقول علنا ــــان نصحه اسامةـــــ:

-يا أخي أنا اريد أن آكل الحرام، ما الذي يضرك أنت؟

-وأولادك؟ ينشأون على الحرام؟ أنت تريد أن تدخل جهنم، وأولادك؟ ما ذنبهم حتى يدخلوا النار؟

-لست أنت من يدخلهم النار أيها الصبي.

-أنت تتحدى الله علنًا؟ تجهر في معصيتك.

فقال هازئًا:

-انصح أباك أولًا. (ثم بعصبية): أغرب عن وجهي هيًّا.. أدب سِز.

فغلى الدم في وجهه، وتقدم نحوه وقال:

-ايها العجوز، احترم نفسك..

فقاطعه قائلا:

-وإن لم احترم نفسي ماذا تفعل.

-ستندم!

-رُح من هنا!

بقي الملا عمر، وهذا موظف تابع لأوقاف تكريت، أمام مسجد قريب من القرية، وهو رجل وقور، حفظ العلم الذي لقنوه اياه في المدرسة والجامعة ولكنه نسيه، فيقوم على المنبر ويخطب لهم خطبه المكررة، الى أن ملَّ الناس وضجروا، وقالوا له مرارا: يا شيخ حفظنا خطبك. فوعدهم أن يغير موضوعها، وجاءت الجمعة الأخرى وأملوا أن يخطب ويأتي بشيء جديد، ولكنه أعاد الخطبة الماضية نفسها، فغضبوا، ولكنهم كتموا غضبهم وقالوا لأنفسهم: لعل ظرفًا أو طارئًا شغله. وجاءت الجمعة التي تليها، وإذا هي نفس الخطبة!

فقالوا لهه بعد الصلاة:

-يا ملا عمر، موضوعك أعدته ثلاث مرات.

فقال لهم:

-وهل عملتم به؟ اقول وانصح ولا تسمعون!

وفي الجمعة التالية جاء وخطب خطبة مكررة، واقام الصلاة،

ومـا أن بـدأ يقـرأ الفاتحـة حتـى خـرج كل أهـل القريـة من المسـجد وتركوه يصلـي وحيـدًا! وهكـذا أهـل القريـة اذا ضجـروا مـن أحـد ما .

بقـي شـخص غامـض يسـكن القريـة، لـم يعـرف أهلوهـا سـره أو كنهـه، هـو (ابـو سـليمان)، ولا يعـرف أحـد عنـه شـيئا غيـر ذلـك، يسـكن فـي قصـر فخـم تحـوط بـه البسـاتين، وجـل الـذي يعرفونـه أن أبـا سـليمان هـذا هـو رأس كبيـر مـن رؤوس النظـام السـابق، قيـل أنـه مقـرب مـن صـدام حسـين، دخـل القريـة علـى حيـن غفلـة فـي ديسـمبر ٢٠٠٢، وبنـى وكيلـه وكان مـن سـكان تلـك المناطـق قصـرا فارهًـا، لا يخـرج الا بسـيارة مصفحـة مضللـة، وقليـل جدا، ولا يعرفـون حتـى شـكله علـى وجـه التقريـب، يقـال أن سـعيدا رآه مـرة وجلـس معـه، ونسـجت حـول تلـك الجلسـة التهاويـل الكثيـرة.

هـذه قريـة (لوعـة عبـاس) المليئـة بالقصـص والحكايـات والأسـرار، وكـم مـر عليهـا مـن نوائـب الدهـر المفزعـات الا أنهـا بقيـت واقفـة شـامخة، تشـبه وقفـة عبـاس فـي جنتـه تحـت النخلتـين وهـو يرقـب الحقـول لحظـة الغـروب.

٢

لوعة عباس

من ساءهُ سببٌ أو هالهُ عجبٌ
فلي ثمانون عاماً لا أرى عجبا
الدهرُ كالدهرِ.. والأيام واحدةٌ
والناس كالناسِ.. والدنيا لمن غلَبا

أبو العلاء المعرّي

-٧-

سامراء ١٩٣٠:

صوت المؤذنِ جاء هادئًا رخيًا يشبه جريان دجلة إذا مر بمدينتِهم، قام العجوز يتمتم بأذكاره متكأً على عصىً تسند عجزه وتعينه على المشي نحو الإمام علي الهادي للصلاة هناك تبركًا بالإمام، وكم أصرت زوجه عليه أن يصلي في مسجد (الصديق) ولا يذهب الى الإمام، ولكنها عادة متأصلة في طبعه منذ لم يكن على طريقه مسجد كما هو الآن، ومما أصَّل هذه العادة هو عمله القريب من الإمام، له محل لبيع الأقمشة، وقد راجت تجارة القماش هذه الأيام لكثرة الزائرين، فهو يخرج بعد الصلاة لدكانه لأن الزوار يخرجون عائدين لمدنهم بعد الفجر، فيتبضعون من السوق في ذلك الوقت.

ومضى ماشيًا كعادتِه يقطع الظلمة بمشيته الرزينة وعصاه التي تضرب الأرض بقوةٍ يتردد صداها حوله وكأنه فجرٌ يدب في أوصال الليل الراكد، وبين الفينة والأخرى ينادي بصوته الأجش: (الصلاة يا عباد اللّه). وقبل أن يصل الى الإمام ترامى لصوته صوت صبي في المهاد، فظنه ابن أحد الزائرات اللواتي هجعن هذه الليلة هنا، ولكن بقي صوت الصبي يتردد ولا حركة قريبة، فاقترب من الصوت ليراه وحيدا! فحمله ودخل الى الإمام، وأكمل الصلاة، وبحث عن أبويه فلم يعثر

عليهمـا، وبقـي يبحـث عنهمـا الـى الضحـى، ولكـن الصبـي بقـي يبكـي ويبحـث عـن مـن يرضعـه، فبعثـه لجـارة لـه، وبقـي ينـادي ويشـيع بـين النـاس أنـه عثـر علـى ولـد فـي الإمـام، فلـم يجبـه أحـد، الـى أن أرخـى الليـل سـدوله فحملـه معـه الـى البيـت.

-من هذا يا حاج؟

-ولد عثرت عليه في الإمام.

-ألم تجد أهله؟

-لا.

-والآن؟

-سأبقيه عندنا الى أن يظهر أهله.

فقالت بتوتر:

-وإن لم يظهروا؟

-نبقيه عندنا.

-ومن يطعمه ويسقيه؟

-وهل هذا سؤال؟ أنتِ طبعًا.

-أنـا؟ أتسـخر منـي يـا أبـا عبـاس؟ أنـت تعلـم أن أيامنـا معـدودة وقد بلغنـا الكبـر، لا نقـدر علـى التربيـة وقد نمـوت قبـل أن يعـرف اسمنا.

-الرحمة علينا إذن.

-والصبي؟

فقال العجوز بإيمان الراسخين:

-الذي وضعه في طريقي وهو طفل في المهاد فلن يضيعه وهو فتى يعقل ويفهم، ولعل اللّه يطيل في عمرنا فنربيه حتى يبلغ رجلًا، فإذا بلغ نكون قد كسبنا أجره.

-ونتخذه ولدًا؟

-وماذا نفعل؟ يا امرأة إن استحقرناه ولم نعامله كما يعامل الآباء ابناءهم صار آفة كبرى، وقد يكون مجرمًا، أما اذا عاملناه كعباس رحمه اللّه نلنا أجرًا في الآخرة وعونًا وخلفًا وذكرًا حسنًا في الدنيا.

ولده عباس الذي قُتِلَ في ثورة العشرين، ما زال سر مقتله الى الآن غامضًا، كيف انخرط في صفوف الثوار؟ لم يكن يومًا قوميًا تجذبه شعارات العروبة البائسة، ولا شُجاعًا مقاتلًا، فكيف غدا محاربًا؟ كيف تقتلع ذكرى ذلك المشهد من رأسه عندما أتى به خمسة رجال يحملون نعشه، أوقفوا خيولهم أمام الدكان ويحملونه على عربة تجرها الخيول.

-أنت الحاج صبحي أبو عباس.

لما رآهم وقف حائرًا، كيف يجيب وسيماهم تثير الفضول؟ فقال بقلق بادٍ:

-نعم، أنا هو..

فقال كبيرهم وقد علاه كرب وقتر بالغيَنِ:

-عظم اللّه أجركم في ولدكم عباس، استشهد ولدكم في معركة مع الانجليز !

لم يجد فرصة حتى ليتفكر في خسارته في ولده الوحيد، عندما انهالت عليه التعازي ودعوات الصبر والسلوان، وخرجت

سامراء بشيبها وشبابها تشيع عباس الثائر الرافض للاحتلال الذي غدا بطلًا قوميًا لا يعرفون متى تطوع ولكنه الآن صار شهيدًا بعد أن رحل. بعد ذلك وهنت صحة أبي عباس ودبَّ الوهن في جسده هو وزوجه. ولم يكن يمارس عمله في تجارة القماش عن حاجة، بل هو لهو يقضي وقته وينسيه حزنه، عشر سنين لم تكن كافية لينسى مصيبته، ليأتي عباس الصغير ويحيي ذكراه فيهم، فاحتضنوه وربوه، ونشأ نشأة المترفين في رغدٍ من العيش، الى أن بلغ الثامنة عشرة وكانت زوجة الحاج صبحي قد توفيت قبل ذلك بشهرين، فلما شعر الحاج صبحي أن أجله قد دنا واقترب؛ قال لعباس وهو على فراش المرض:

-ولدي عباس، أنا ماضٍ الى حيث يمضي كل حي، وأريد أن أبرئ ذمتي قبل الرحيل، أنت لست ولدي! ولدي عباس كبير جدا من مواليد ١٩٠٠، استشهد في ثورة العشرين، وأنت وجدتك في مرقد الامام علي الهادي قبل ثمانية عشر عامًا!

لما سمع عباس هذا الكلام لم يستطع أن يكمل سماعه فخرج هائمًا على وجهه كالمجنون لا يعول على شيء، خرج غارقا في لججِ بحرٍ من التساؤلاتِ المفزعة ما يشيب لها الولدان، وكان أول ما أعترض طريقه بعدما اجتاز سور المدينة دجلة يسيل هادرًا رقيقًا تارة وغاضبًا تارة أخرى، وفجأة خطر له فكرة الانتحار، هكذا دون مقدمات، ما العيش وقد أفجعه من كان يظنه أباه وصفعه بحقيقة مرةً؟ أليس من السذاجة والسخافة العودة لتلك الحياة التي لفظتْه؟ الحاج صبحي رجل صالح ولكنه أنكره، فقال بصوت مجروح مخنوق أمام دجلة: لمَ يا حاج صبحي أخبرتني؟ تريد أن تريح ضميرك قبل موتك على حسابي؟ وهذه النفس من يسكتها ويلجم قساوة السؤال الذي

يحـز القلـب قبـل الجسـد؟ هـل تريدنـي أعيـش فـي عـار، وإن لـم يعلمـه النـاس فقـد علمتـه، ليتـك كتمتـه وأخذتـه معـكً الـى قبرك..يـا الله مـاذا أصنـع؟

ثـم عـاد يقـول لنفسـه: ليتنـي ريشـة فـي جنـاح طائـر، أو رصاصـة فـي بندقيـة ثائـر، أو دعـوة تختـرق السـماء لمؤمـن حائـر، أو قطـرة فـي دجلـة ومصبـه الهـادر، لعلـي بـذاك أخـرج مـن ضيـق التسـاؤلات لسـعة الحريـة التـي لا تحدهـا حـدود أو فضـاء أو اجـواء، تختـرق سـماوات وتستنشـق عبيـر الحريـة الفـواح.

ثم مضى يمشي هائمًا ..

-٨-

لمـا توحـد عبـاس بالليـل ولـم يُعَـد يسـمع الا نبـاح الـكلاب وثغـاء شياه يصـل إليـه مـن بعيـد شـعر أن بينـه وبـين الليـل ألفـة، فالليـل هنـا ًأرحـب وأوسـع، خـرج مـن ضيـق أسـوار سـامراء لرحابـة الفـلاة، عندمـا اسـتقر لأول وهلـة بعـد مسـيرة يـوم ولا يعـرف أيـن هـو، ولكـن شـعر أن هنـا شـيئا يربطـه، شـيء يقـول لـه: هنـا الجـذور والأصـول .. ألـم يقـل الحـاج صبحـي أنـه وجـده فجـرا عنـد الإمـام؟ هـو لـم يشـعر يومًـا فـي سـامراء أنهـا أرضـه ومنبتـه، ولكـن هنـا تحفـه سـكينة عجيبـة، وكأنـه نـور مـن تلـك النجـوم السـاهرة قـد لـف قلبـه، وهـو يطالـع النجـوم وقبـل أن يغشـاه النعـاس تفكـر فـي تلـك الحكايـات التـي كان يسـمعها مـن الشـيخ فـي الكتاتيـب، قصـة بنـي العبـاس وذريتهـم وكيـف بنـوا سـامراء ثـم هجروهـا فـي وقـت قصيـر. ثـم أخـذ يجـد التعليـل والتأويـل للخلفـاء فـي تركهـا، وكان اسـمى مـا وصـل لـه أن الخلفـاء كانـوا يشـعرون فـي ضيـق، والنفـس يثقـل عليهـم، وبفعـل ذلـك الضيـق

كانـوا يقومـون بمصائـب ونوائـب تـؤدي الـى فتنـة، لدرجـة أن يقتـل الأخ أخـاه. وبتفكيـره هـذا زاد عبـاس كرهـا ومقتـا لهـا. وبينمـا تشـرّقه الأفـكار وتغرّبـه ذهـب فـي نـوم عميـق.

يشـق الفجـر عتمـة الليـل الداكنـة، وبينمـا يشـعر أن ضـوء الشـمس يتدفـق عليـه شـاعرا بحرارتـه اللاهبـة شـعر بشـيء يحـز فـي صـدره، فقـام فزعًـا هلعًـا، ولكـن سـرعان مـا ابتسـم، ورأى الدنيـا كأنهـا كانـت مظلمـة خابيـة الضيـاء، وفجـأة سـطعت وتبـددت حلكتهـا الداكنـة، فقـد تدفقـت الحيـاة عليـه كالشـلال، كانـت فتـاة متلثمـة لا تبـدو منهـا الا العينـان، ولكـن عينيهـا بـدت لـه سـاحرتين جذابتـين. فقـال لـه:

-غريب ويجوس أرضي وينام بها؟ من أنت أيها الرجل؟ لص؟

فقال ضاحكًا بعد أن رُدَت له شيء من روحه:

-هـداكِ اللّه يـا سـيدتي، ألصُّ وينـام حتـى مطلـع الفجـر، ثـم هـل يوجـد هَنـا مـا يُسـرق؟ لا شـيء يسـتحق السـرقة.

-قـم أيهـا الدعـي وأخـرج، ثـم كيـف وصلـت الـى هنـا؟ ألا تعلـم أن المـدن بعيـدة عنـا.

-تائه في أرض اللّه.

-التيه أنواع وأصناف، ولا أراك الا تائهًا تيه القلوب.

-وكيف يكون ذاك.

-أنـت لسـت سـارقًا أو قاطعًـا، أنـت ضائـع، ولكـن لا تخـف، كلُّ تيـهٍ ولـه نهايـة. مـا زلـت فـي أولـه.

-إذا كان هذا أوله فكيف يكون أوسطه، وكيف سيكون آخره؟

-أولـه شـاق طويـل، طـرق وعـرة، ولكـن سـتعتاده وسـيغدو أمـرًا عاديًـا.

-ولكن تيهي ليس عاديًا ليكون طريقه عاديًا.

-كل شيء أوله يبدو صعبًا مرًا كالغربة، ولكن ستعتاد، بل ستنسى أنك تائه. والآن أيها الغريب قُم وامشِ طريقك، وسِر نحو غايتك.

-وما غايتي؟

-وما أدراني؟

فازداد حيرة، ولما رأته حائرًا، ورأت ما به من تعب وهزل وضنك، قالت عاطفة عليه بلهجة رقيقة بلا ضعف:

-سأصب لك حليبًا سائغًا شرابه، اشرب وارتوِ وارتَح، ثم ارحل، هذه أرضنا وهذه شياهي، وذاك الكوخ مسكَني، ارجوك ارحل بعدها.

ثم راحت تتهادى نحو كوخها، وجاءت بإناء فيه حليب ومعه خبز، وقدمته برفق. وبدأ يأكل، ومع الأكل قصَّ قصته. مع العلم أنه قصها بلا تزييف أو تجميل كما يفعل القصاصون والكذابون والمبالغون والباحثون عن استعطاف السامع، بل قالها هكذا عفوًا وهو يتناول طعامه، وأخبرها أنه لا يعرف وجهته ولن يعود الى الحاج صبحي بعد أن عيَّشه في كذبة كبيرة رماها عليه عند موته. عطفت عليه، واقترحت عليه أن يعمل مع أبيها يحرث الأرض، فوافق مباشرة على هذا العرض الذي بدا مغريًا لا يُرَدُّ، وكلما تذكر عباس تلك اللحظات غمرته سعادة، لأن عرضها هو عرض الزواج منها ولكن من وراء حُجُب، وهذه من سمات حمدية المحمودة، فهي وإن كانت قوية ولكنْ فيها ليونة.

زُفَت إليه، وعاشا عيشة هنية رغيدة هادئة لم يشُبها كدر، وإن لم تخلُ مما يحدث بين الأزواج من منغصات ولكنه لا

يـكاد يذكـر أمـام سـعادتهما . يخـرج فجـرًا، فيـؤدي فرضـه ثـم يمضـي الـى أرض زوجـه التـي تحيط بكوخهمـا الصغيـر فيمضـي النهـار فيهـا دائبًـا عامـلًا لا شـيء يعنيـه سـوى العمل بعـد أن قـرر نسـيان الماضـي ومـا بـه مـن تـرف ـــإذا قيـس بحيـاة الشـظف التـي يعيشـها بعـد زواجـهـــ بـل كما قالـت لـه حمديـة فـي أول لقـاء بينهمـا، لقـد اعتـاد عبـاس علـى التيـه ـــأو مـا كان يـراه تيهاـــ وصـار أمرًا عاديًـا، واشـترى أرضًـا جديـدة ليحرثهـا مـع أرضـه الصغيـرة، ثـم اشـترى معهـا أرضًـا أخـرى أوسـع وأرحـب، وزرع الأرض التـي حـول الكـوخ فغـدت جنـة وارفـة الظـلال، تسـير السـواقي نحوهـا، فتسـقي الـورد والرمـان والنخـلات الباسـقات. وصـار كوخهمـا فـي فـيءٍ وظـلٍ دائـم، يجلـس عبـاس فيهـا كلمـا بلـغ الجهـد منـه مبلغـا، يجلـسٍ مسـترخيًا مطمئنًـا وسـط رائحـة الـورد ولا يسـمع الا صـوت خريـر المـاء وهـو يمشـي فـي سـواقيه، او ثغـاء شـياهه المألـوف عنـده، حتـى ظـن أنهـا جنـة خلـده، لدرجـة أنـه مـرة كان يضـع رأسـه فـي حجـر حمديـة وهـو تظلـه بشـعرها الكسـتنائي، كان الوقـت ظهـرًا وقـت بلـغ منـه التعـب مبلغًـا، فمـا أن اسـتقر راسـه فـي حجرهـا وصـوت العصافيـر المزقزقـة وهـي تقـف علـى السـاقية بـدا جميـلًا طروبًـا، حتـى قـال لهـا :

-يـا حمديـة، فـي رأيـك عندمـا ندخـل تلـك الجنـة التـي وعدهـا ربنـا للمتقـين هـل سنشـعر بالغربـة؟

فقالت ضاحكة:

-أيُّ غربة؟

-اعنـي موطنـا جديـدا لـم نـره مـن قبـل، مـن الطبيعـي أن يبـدو غريبًـا، ولكـن أنـا لـن يكـون لـي غريبـا .

ففتر ثغرها عن بسمة وديعة:

-ولمَ؟

-أنـا الآن فـي الجنـة، أنـتِ يـا حمديـة تقويـن الإيمـان بالآخـرة وجنتها وما وعد به المؤمنون من جنة عرضها عرض السماوات والأرض. كل تلك الصفات التي ربما يعجز المرء منا عن تصوره أنـتِ تجعلينـه يقينًـا، كـم أنـا محظـوظ بـلِ كـم أنـتِ عظيمـة يـا حمدَيـة؟ حُبّكِ إيمـان، والجلوس معكِ جنـةٌ، والابتعـاد عنـك تيـه.

فقالت متعجبة:

-أهذي أنا يا عباس؟

-أجل هذه أنتِ.

-شكرا لأنك عرفتني بنفسي!

-٩-

الحيـاة بهرجـة كاذبـة، وإن كان النعـت قاصـرًا عـن اداء المعنـى ولكنـه ادى بعضـه، مـن ذاق حلاوتهـا واسـتلذ بهـا حسـب أنـه ملكهـا، وبعـد أن يركـن إليهـا ويؤمـن مكرهـا تـأتـي ضرباتها متتابعة قاسـمة وتنسـي مـا لاقـى صاحبهـا مـن فـرح ومـرح وابتهـاج. وهـذا عباس الذي حسب الدنيا دنت لـه، وجمعت من أطرافها بيده، وكأنـه الرشـيد أيـام عـزه، والحـق مـن يـرَ عباسـا أو يكـون مكانـه لآمـن بتلـك الفكـرة ايمـان المتقـين، فبعـد أن كثـر مالـه وعيالـه، واتسـعت أرضـه، وبنـى بـدل كوخهمـا بيتًـا واسـعَ الغـرف رحبًـا، وصار عبارة عن جنـة كبيـرة، وحمديـة التـي رآهـا أول مـرة ترعـى غنمهـا وتهشـها بعصاهـا قـد أصبحـت سـيدة مرموقـة فـي يدهـا

الأساور الكثيرة، وفي قدميها حجلان، وكلما سارت وسط معارفها تعجبن بها ومن ذهبها الذي يكثر يومًا بعد يوم، وزوجها عباس التاجر الصدوق الأمين، الذي صار علمًا لتلك المنطقة لما يملك بها من الاراضي الكبيرة والتي لا تكاد تعد. علي وسالم وسعيد ونورية، أولاده الذين بدو كالأقمار، فكأن قمرين تزوجا فكانا هذه الذرية. وشيء آخر كان زاد من جعل تلك العائلة نموذجًا عاليًا يحذون حذوه ويخطون خطوه، هم أولادهم وتربيتهم الصالحة، تجدهم يوقرون الكبير ويعظمونه، ويحترمون الصغير أيما احترام، إذا نادوا أباهم نادوه بصوت خفيض، يطيعونه ولا يكادون يعصون له أمرًا، إذا تكلم فكلامه هو الفصل، لا كلام بعده، وإذا دخل أحدٌ عليه دخلوا هادئين، وقالوا تحيتهم بعد السلام: كيف حالك يا أبتِ. وما هذا الانضباط الا لقوة عباس وشخصيته الرفيعة، فقدَ تزوج ولده سعيد بنت شيخ قبيلة كبير في القرى المجاورة، وكان عرسًا تحدث به الناس وقتًا غير قليل، ولكن تأبى الحياة الصفاء الدائم، وما زال يذكر عندما جاءه الجند، أول مرة يطئون هذه الأرض، لما رأتهم حمدية يخترقون جنتها ارتعدت وظنت بهم شرًا. وقف الضابط ذو النجمات الثلاث وملامحه الصارمة تدل على أن ما جاء به ليس خيرا. خرج عباس ورحب به. فقال الضابط:

-هذا بيت علي عباس.

-أجل، تفضل سيدي.

-عليه أن يلتحق بالتجنيد.

-التجنيد؟

-نعم التجنيد، وابنك متأخر جدًا ولم يخدم، لمَ؟

-لم يأتنا أحد ويقول أن عليه خدمة.

-حجـي، هـذا ليس عملـي، علـى ولـدك أن يلتحـق الأحـد القـادم، وهـذا الأمـر اسـتلمه، وإن لـم يلتحـق سـيعرض نفسـه عقوبـة قـد تصـل الـى الإعـدام!

-إعدام؟

لمَ؟

-البلـد فـي حالـة حـرب، والفـار مـن الجنديـة كالفـار مـن أرض المعركة، وهـذا واجـب الوطـن المقـدس، أم تريـدون أن نقاتـل وأنتـم قاعـدون؟! هـذا فخـر يجـب أن تفخـر بـه يـا عـم لا أن تخـاف علـى ولـدك، الوطـن يسـتحق منـا التضحيـة لأجـل البقـاء..

ثـم مضـى الضابـط بعـد أن قـرأ الوطنيـات والحماسـيات عليـه وتركهـم فـي حيـرة.

-تريـد أن ترسـل ولدنـا الـى المـوت؟ نرسـله بيدنـا؟ (قالـت حمديـة وهـي تكـاد تـأكل عبـاس بعينيهـا مـن العصبيـة.)

-وماذا نفعل؟ أتحسبيهم سيتركونه؟

-فليهرب!

-أين يهرب؟

-الى اخوالي في العمارة.

-اتركينيِ أتروَ في الأمر.

-أيُّ تروٍ؟

فقال بعصبية:

-حمدية! اسكتِ.

كان علـي ولـده قـد بلـغ الخامسـة والعشـرين، ولكنهـم يسـكنون

بعيـدًا عـن عيـون المدينـة والأمـن، فلـم تبـالِ بهـم آنـذاك ـــأي عندما كان عمره ثمانيـة عشـر عاما وسـائر البعداء أمثاله، فلم تكن الدولـة مستعدة أن ترسـل لجنـة مـن ضابـط وعناصـر وتنفق عليهـم لأجـل البحـث عـن فاريـن مـن الخدمـة، إنمـا تضـع علـى اسـمائهم تأشـيرة فمتـى نزلـوا المدينـة أو دائـرة أو مـروا بمخفـر مسكوا بهم، وهـؤلاء يعرفـون الأمـر، فغالبًـا مـا كانـوا يمكثـون فـي أراضهـم إن كانـوا قـد سـجلوا فـي التعـداد السـكاني، ولكـن الآن الأمـر قـد تغيـر، فهـا هـي الحـرب تحصـد الرجـال كمـا يحصـد المنجـل الـزرع، والدولـة تحتـاج رجـالا اكفـاءً يفدونهـا ويرسـلونهم الـى تلـك الأماكـن.

لـم ينَـم عبـاس ليلتـه، كان يعلـم أن العسـكرية هـذه الأيـام طريـق محفـوف بالمخاطـر، العسـكرية ليلهـم خـوف، ونهارهـم حـرب ومـوت، الجنـدي منهـم يكون كالعبـد بـين أسـياده، أولئـك الضبـاط القسـاة الذيـن كان أكثرهـم يسـتحقر أن ينـادي العسـكرِي باسـمه، يناديـه بـازدراء واسـتحقار: (قشـمر)، هكـذا ينـادونهـم: قُـم قشـمر، واخـرج قشـمر. عـدا الإهانـات والعقوبـات والمرتـب الـذي لا يسـد أجـور السـيارة التـي يغـدو بهـا ويـروح علـى معسـكره وسـكائره، وكثيـرًا مـا يصـرف أهلهـم عليهـم أضعـاف مـا تصـرف الدولـة، هـذا فـي أيـام السـلم. الآن قـد دارت رحـى الحـرب بـين الجاريـن، وصـارت المـدن عبـارة عـن مـآتم كبيـرة، إذ كان فـي ذلـك الوقـت «للميت حرمة» كمـا قالـت الجـدات فيمـا بعـد، كان الحـزن لائقًـا بهـم، كان الشـهيد اذا دخـل حيًّـا انقلـب الحـي كلـه الـى مـأتم، فـلا عـرس ولا فـرح، احترامـا لـه. والآن عبـاس تحيـط بـه تلـك الأفـكار، تحاصـره، هـل يلقـي بولـده فـي النـار؟ هكـذا هـي، نـارٌ حارقـةٌ، لا ترحـم، يعلـم أن النصـر إن انتصـروا سـيكون للقـواد والرؤسـاء، أمـا أولادهـم إن عـادوا مـن الحـرب سـالمين سـيأتون

حفـاةً ذوي أسـمال باليـة ووجـوه شـاحبة. إنهـا الحـرب يـا عبـاس تفـرض عليـك أن تسـقيها مـن نسـلك. لـم يكـن يفكـر عبـاس وهـو يجـوب جنتـه: مـن يحمـي هـذه الأرض؟ مـن يلـوذ عنهـا إن لـم يلـذ أبناؤهـا بدمائهـم، ألـم يعلـم أن الأرض تحتـاج سـقيًا عـدا سـقاية المـاء؟ تحتـاج دمًـا فائـرًا حتـى تختلـط بهـم، وتكـون جـزءًا منهـم. جـاء الصبـاح ولـم تأخـذ عينـه نومًـا، جلـس عنـد حمديـة وهـي تخبـز. فقـال بهـدوء:

-حمديـة، سأُرسـل عليًـا الـى الحـرب، الوطـن يحتـاج منـا التضحيـة ولـو بأبنائنـا، لنبقـى علـى هـذه الأرض يجـب أن نضحـي ونخسـر! أرأيتِ لـو أن عـدوًا وقـف أمـام أرضنـا يريـد العبـث بهـا وبمقدراتنـا، هـل نتركـه يعبـث ويفسـد فـي الأرض أم نقاومـه بمـا أوتينـا مـن قـوة الـى آخـرة قطـرة مـن دمائنـا؟ هـه؟ كذلـك الوطـن هـو أرضنـا مثـل هـذه الأرض التـي نحرثهـا ونسـقيها.

قـال كل ذلـك بهـدوء وفتـور بالـغ ودون أن يظهـر علـى سـماته تأثـر أو قلـق مـن الحـرب وولـده المولـي وجهتـه إياهـا، ذلـك لأن عبـاس كان عندمـا يحـزن، يحـزن بداخلـه، بكوامـن نفسـه، لا يخـر باكيًـا كمـا يفعـل بعـض الرجـال، بـل يـراه عيبًـا ومنقصـةً لرجولتـه، كان يتقـن التظاهـر واللامبـالاة وعـدم الاكتـراث مـع العلـم أنـه قضـى ليلـة صاخبـة وصراعـات وخلافـات فـي نفسـه. الحـزن، الألـم، كلـه يحتفـظ بـه لنفسـه، يتألـم وحـده دون ازعـاج الآخريـن.

فقـال حمديـة بعصبيـة وكانـت أول مـرة تخاطبـه بهـذي العصبيـة المفرطـة:

-كيف تضحي بولدنا؟ ترميه بالنار هكذا بكل بساطة!

-يـا أم علـي، (وعسـى أن تكرهـوا شـيئا وهـو خيـر لكـم، وعسـى أن تحبـوا شـيئا وهـو شـر لكـم)، هـذا حـال الحـروب فـي كل زمـان،

علينا أن نضحي، وعلى ولدنا أن يذهب كما يذهب الفتيان الشجعان، يقاتل ببسالةٍ، دفاعًا عن الأرض والعرض.

فقالت بعناد مشبوب بحنو الأم:

-بل دفاعًا عن طغاة كفروا بنعمة الأمن، وقتلهم الطمع، هم لن يخسروا شيئًا، مكاسبٍ فوق مكاسب، رتب وامتيازات ومجد يملؤون به صفحات التاريخ، وأولادنا يا أبا علي الى القبر، قل لي بالله عليك، لو انتصر العراق نصرًا ساحقًا على أقوى الأمم، وغنم الغنائم، وحاز المجد، وتقلد أوسمة، هل ستبعث شهيدًا من جدثه وترجعه لحضن أمه التي حملته وهنًا على وهنٍ؟ أم ترد غائبًا لم يعرف له قبرٌ تجثو أمه عنده في الأعياد وليالي الجمع فتبكي؟ أجب يا ابا علي يا من يريد أن يبعث ولده قربانًا لقضية لم ننل منها عيرًا ولا نفيرًا.

كان لهجة حمدية حدية وفيها عصبية زائدة، وكان عباس يستفزها بلهجته الهادئة:

-أنتِ تنظرين الى الأمر من جهة واحدة.

-وأي جهة تريدني أن أراها؟ أن اقول لك اذهب وخذ ولدي واعطه لهم، وقل لهم هاكم ولدي خذوه فداءً للأرض، فيضعونه في منتصف الحرب؟

-ولكنهم لن يضعوه وسط الحرب. أخبرني ضابط أنهم لن يضعوا المجندين الجدد في الحرب أو الخطوط الأمامية، بل في مدنٍ آمنة رخية.

-هذا هراء.

-ليس هراءً.

فقالت بإستسلام:

-انها الحرب التي تطحن أبناءَنا يا أبا علي.

فقال جازما:

-سأرسله، وانتهى.

لما قال كلمته الأخيرة قاطعًا ناهيًا كل آمالها، تحدرت منها الدموع، لأنها تعلم عناده واصراره، قامت وجثت ماسكةً بيده تلثمها وتقول: أرجوك يا عباس لا تتركه يرحل، ولدي، لا أُريد أن أخسره، فلذة كبدي... أرجوك.

فسحب يده بهدوء وخرج تاركًا حمدية في بكاءٍ وعويل!

كانت قراراته كلها غير قابلة للنقاش أو المراجعة، بل قطعية نهائية، لأنها غالبًا لم تأتِ الا بعد وقت كافٍ من التفكير والتدبير.

-١٠-

صوت أنين حمدية يصل الى أذن عباس، يخشوشن تارة فيحز قلبه ويغوص كمديةٍ اخترقت القلب، ويتلاشى تارة أخرى فيبقى ذلك الصوتُ الداخلي ـــ وهو أشدَّ فتكًا من صوت حمدية ـــ يصليه عذابًا اسمه ندمٌ. ما أشدَّ أن تقف أمام ضميرك مذنبًا، وتقف عاريًا من أيِّ حجة، فتشعر أنه يسحقك.. في تلك اللحظات، تتمنى لو أنك هويت من مكان سحيق فتخطفك الطير وتقاسمت جسدك فضعت وامتزجت بها وكنت نسيًا منسيًا خير لك من ذلك الصوت القاسم للروح. كلُّ ذنبٍ له حساب ثم عقاب، ولكن عقاب الضمير

الحي أشد أنواع الحساب والعقاب، كقاضٍ عادل ولكنه يتخذ من الأحكام أشدها حيطةً وحذرًا.

أربع سنوات يا علي وأنت في الحرب، والأخبار تزداد سوءًا، أين أنت؟ ماذا تأكل؟ كيف غدوت من جندي متطوع الى مرابط على الجبهة؟ هل عشت أم مت؟ العدو شديد، واسراب الموتى تصل تباعًا ولكن لم تأتِ أنت، هلا أتيت، كيفما كنت، حي أم ميت، المهم ان تأتي. هلا أتيت وكحلت العيون التي رمدت حزنًا، وجفت وجدًا، يا علي أنين حمدية يقطع فؤادي، بكاؤها. صراخها. كل شيء في البيت ينتظرك، كل شيء خلا في البيت، الضحكات المجلجلة، صخب اخوتك وهم يتدافعون للخروج الى الحقل، لم يعد من ذلك شيء، الحزن وحده ما يؤثثه، نحن في انتظار جنازتك منذ سنتين، ولكن أنت حيّ ونحن نموت قبل موتك، نموت انتظارا، فقدك يا علي ريح عاتية أجهزت على مسكننا وجنتنا وبهجتنا.

-قلت لك يا عباس، لا ترسل ولدنا الى الجندية، ليفر الى اخوالي في العمارة ولكنك بدأت تبيع الوطنيات والحماسيات.

فيقول بهدوء:

-لكل أجل كتاب، والمكتوب ستراه العين.

-ولكن الله قال لك خذ حذرك يا عباس لا أن ترميه في تلك النار المحرقة.

-.........

-لمَ أرسلته يا عباس؟

وعلى هذه الشاكلة يقضون ليلهم، أما النهار فيحاول عباس جهد الإمكان أن لا يراها، حتى لا يتضاعف وجعه، تحسب

أنـه لا يشـعر، ولكـن عبـاس كان يتلظـى علـى تلـك النـار الهادئـة، ومـع ذلـك الألـم كان يعمـل دائبًـا وبهـدوء بحثًـا عـن علـي وفـي أيِّ جبهـة هـو، ومـا يخـوض مـن معـارك ضاريـة، وكان يرسـل لـه معونـة، بعـض المـال، وبعـض الثمـار والمحاصيـل التـي كانـت تصـل معظمهـا الـى الضبـاط وقليلهـا لـه يتقاسـمها مـع رفاقـه، وكان بعـض الثمـار يبعثهـا خصيصًـا للضابـط ليحصـل علـى اجـازة لأيـام قـلال يأنسـون بـه، ولكـن هـذه الإجـازة قليلـة متباعـدة قـد تصـلً الـى شـهرين أو ثلاثـة، ومـا أشـده مـن مشـهد عندمـا يعـود علـي ــقبـل أن يبعثـوا بـه الـى الجبهـات الأماميـةــ، كان يأتـي وحالـه يرثـى لهـا، جسـده الضامـر ووجهـه الشـاحب وسـمرته الداكنـة التـي سـقاها قيـظ الصيـف وقيـظ الحـرب فبـدا شـكله مخيفًـا لأول وهلـه، ولكنـه عندمـا يعـود ويتغـذى مـن مطبـخ حمديـة الدسـم تعـود لـه شـيئًا مـن نضـارة وجهـه، عندمـا يـأكل اللحـم والشـحم وكل مـا لاذ وطـاب ممـا لا تخلـو منـه بيـوت أثريـاء الفلاحـين وكبرائهـم. عندمـا كانـت تـرى حمديـة حـال ولدهـا ومـا ينطـوي عليـه مـن ضنـك وتعـب تدعـو علـى مـن تسـبب بهـذه الحـرب بأشـدِّ الدعـوات، ثـم تذكـر أن ولدهـا ــكمـا أخبرهـاــ ليـس قريبًـا علـى الجبهـات، بـل بعيـدا أشـد العبـد ــوكانـت تلـك تعليمـات عبـاســ ، وظلـت شـاكة شـكًا قويًـا الـى أن افتضـح الأمـر عندمـا سـها أمامهـا فـي الحديـث عـن خسـارة الجيـش للفـاو.

-أنت في البصرة؟

قالتهـا بذهـول وتعجـب وتحديـق يـكاد يختـرق جسـده، الـكل ينفـر مـن تلـك النظـرات، نظراتهـا كالشـظايا تتطايـر عليهـم بعشـوائية ولا يعلـم أيهـم سـتصيبه، والويـل والثبـور لمـن سـيقع ضحيـة تلـك النظـرات، وغالبًـا مـا يقـع عبـاس، فيتركهـا تصـرخ وتزمجـر،

ويستمع إليها ساكنًا، فهو عليم بها وبطباعها.

-هل ستشارك في تحرير الفاو؟

سأل عباس عليًّا.

-لا أعلم يا أبتِ.

-متى تبدأ المعركة؟

-لا أعلم.

-ماذا تفعلون اذن؟

-نحن نتدرب على أرض أشبه ما تكون بأرض الفاو، نوحل في الماء المتجمد فجرًا ً في عز الشتاء، على أرض فيها مياه مالحة صعبة الحركة، جغرافيتها معقدة، نحن نتدرب على تلك الجغرافية.

-يا ولدي، إذا اشتدت الحرب، فقف وقفة الصناديد، ولا تسمع كلام أمك، في الموت يستوي الجبان والشجاع، فمت شجاعًا ودع لنا مجدًا وفخرًا نحمله أبدَ العمرِ، وأنت صاحبه.



(يجب أن يموت بعض الأفراد ليعيش العشرات، ويموت العشرات ليعيش المئات، ويموت المئات ليعيش الآلاف، ويموت الآلاف لتعيش الدولة، أنتم فداء للأجيال الآتية، لإخوتك، ليكون لنا موضع قدم في بلدنا، لنقف في وجه من يسلب حقنا ونقول: نحن ضحينا، يا ولدي؛ الشجاعة عز، والشهادة أجر وفخر، الى أن يأتي النصر)

هكذا كان يتذكر عباس نصيحته لعلي قبل أن يخرج الى جبهته، وهو منطوٍ منعزل في جنته التي غدت مصدر شقائه

وبؤسه، هو من حرضه على قبول فكرة الموت والإقدام عليه دون خوف وجل، أو فماله الآن لما انقطع خبره، وحمي القتال تقهقر وندم؟

أهي دموع حمدية التي ستكلفه أن يبقى حبيس جنته ـــ التي انقلبت جحيما ـــ ما بقي من عمره إن لم يعد عليًا سالمًا؟ كيف يقنعها أن السلام لن يعم الا قبل أن يؤمن الناس أن التضحية هي الطريق، الطريق المعبد على قساوته، القريب من السلام على وعورته، الآمن على أهواله وأوجاله؟

نحن على قيد الوفاء ما دام الأب يهب ابنه هكذا، هدرا لوطنٍ تنكّر لنا دومًا، أنكر كفاحنا، نحن وهبناه أغلى ما نملك فلم يعطنا الا نشيدًا نتنغم به، تصدح حناجر أولادنا به صباحًا:

الجلال والجمال ...والسناء والبهاء

-١١-

رسائل حمدية الى علي وهو في جبهات القتال أملاها أخوه سعيد.

(السلام عليكم.. ولدي الحبيب علي كيف حالك؟ هل أنت بخير؟ انقطعت عنا زيارتك من شهور ثلاث، ولم نَعُد نسمع لك خبرًا أو مكالمة، ولو كتابًا صغيرًا إن لم تتوفر المكالمة. أنا خائفة وجلة عليك، لم أنقطع عن البكاء مذ رحلت، أسمع الأخبار، أسترق السمع كلما مرت جنازة أقول: لعله جاء شهيدًا. ابعث لي خبر ليستقر قلبي ولا تدعني هكذا في قلقٍ دائم.

أمك

تكريت، اغسطس ١٩٨٧م)

ولدي الحبيب:

ها أنا أبعث إليك ثانية، وقلبي مكلوم محزون، لم يصل منك الى الآن رد، فهل من سوء؟ الموت بدا في كل شيء، ابوك الذي اعتزلنا ولم يعد يجلس معنا، بل عاكف في الحديقة أمام الحقول ينتظر أوبتك بهدوء كعادته.

أمك

تكريت، سبتمبر ١٩٨٧)

ولدي الحبيب:

وصل كتابك قبل شهر وعشرا، ومنذ ذلك اليوم وأنا في أُنس متصل، ورغد مستمر، وابتهاج، لما وصلت رسالتك ذبحت خمسة خرفانٍ شكرا لله. أنا بخير وكلما وصلتني أخبار عنك زادت سعادتي .

تقول لي: حدثيني عن الحُبِّ والحياة فالموت هنا من كلِّ جانب. ألا تعلم يا ولدي أننا نجرب الموت مرارا، نعيش مع شبحه، بل كل من في البيت كأنهم أموات.

او حبيس ذنب اقترفه في حقك ولن نسامحه إن حصل لك مكروه.

أمك

تكريت، نوفمبر ١٩٨٧م)

(ولدي الحبيب:

عدتَ مجددًا الى الغياب الدائم ، هل جد جديد؟ الحال هنا

يـزداد سـوءًا، أبـوك عنـده أزمـة قلبيـة، وقـد دخـل فـي غيبوبـة استمرت لبضعـة أيـام، وهـو الآن بخيـر، لـم يسـتطيع الحركـة الا قليـلا، ولـم يعد يتكلم، الطبيب أخبرنـا أن أبـاك لا علـة فـي نطقـه، ومـرد صمتـه لحالـةٍ نفسـيةٍ وامتنـاعٍ ذاتـي. والسـلام..

أمك

تكريت، يناير ١٩٨٨م)

رسالة سعيد لأخيه علي قبل معركة الفاو

أخي علي:

أبعـث إليـك رسـالتي هـذه، بعـد أن أوصتنـي أمـي بذلـك، هـي مرهقـة جـدًا، وتتقبـل فكـرة موتـك تدريجيـا، كلمـا سـمعنا بيـان حـرب خفنـا، وحسـبنا كل قتيـل هـو أنـت، إن فكـرة موتـك وحـده مؤلـمٍ، فكيـف إذا غـدت حقيقـة؟ لا أسـتطيع تخيـل فكـرة رحيلـك مقتـولًا، إذ سـتعمى أمـي مـن كثـرة البكـاء، ولسـوف يمـوت أبـي حسـرةً وكمـدًا وندمًـا، إن حالتـه النفسـية تتدهـور كلمـا طـال غيابـك، وفكـرة الخطيئـة العظيمـة التـي ارتكبهـا عندمـا شـجعك تؤرقـه وتصيبـه بإحبـاط فعـلا، عُـد أرجـوك، احفـظ بيتنـا مـن الخـراب الوشـيك، إننـا مرهقـون يـا علـي، لا تحسـب تفكيـري وكلامـي منطلقـا مـن عاطفـة مراهـق أضنـاه مـا يـراه فـيٍ عائلتـه مـن تفكـك فحسـب، بـل هـو صـوت العقـل، فـلا تبـقَ متشـبثًا بفكـرة الرجولـة التقليديـة الخائـرة التـي سـرعان مـا سـتزول وينقلـب موقفـك إذا حقـت الحقيقـة الـى طالـب النجـدة. عـد الـى رشـدك فـإن عائلتنـا لـم تعـد تتحمـل أكثـر مـن هـذا.

أخوك سعيد

تكريت، شباط ١٩٨٨م)

لم تكن رسالة سعيد لأخيه علي ذات نفع أو تأثير في نفسية علي، فهو قد اعتاد على مثل هذا الكلام العاطفي منذ سنين، يعلم أن الذي يقدم عليه هي معركة فاصلة طالما طال انتظارها، كانت عقولهم قد تقبلت فكرة: أما التحرير والنصر، أو الشهادة والأجر. هذان الخياران هما مصيرهم وقدرهم المكتوب، هذه الفكرة كانت منيعة لأي عاطفة مهما كانت جياشة أن تزلزل تلك الفكرة الخالدة، الأرض والعرض أهم من حضن الحبيبة، والمسكن الآمن الهادئ الذي تحلم حمدية أن تحتويهم به، لكن الفكرة التي سطرت بالرؤوس كانت أعظم، تلك الفكرة التي مازجت الدم امتزاج قلب الصائم بالذكر، بل هو ايمان وتسليم بها، وما أعظم الايمان اذا غشي القلوب؟ هو سلاح فاتك لا راد له، هو ريح مزعزعة مزمجرة تقتلع أكبر شجرة من أصولها، هو صبح يفجع أشدَّ الليالي حلكة وظلامًا وطولا، هو غد المظلومين الذي انتظروه طويلا بوعد الدعاء.



كانت معركة الفاو قد انقضت وتوجت بنصر عراقي باهر، ومنذ يومين وأزيز رصاص الفرح لم ينقضِ، كانت حمدية تخاف من لحظات الفرح، تتوجس منها، تشعر بالذعر والهلع، إذ أي نصر سيصحبه دماء وشهداء جدد، وهؤلاء لن يهتم بهم أحد مجددًا، وغالبًا سيصرفون لأهاليهم تعويضا بخسا وراتبا من دراهم معدودة لا تعادل طلقة من طلقاتها أو صرخة ضائعة أو دمعة عندما حملوا ولدها الشهيد مضرجًا بدمه، تلك اللامبالاة والاهمال الذي كانت تتمتع به الدولة ازاء جنودها الذين فدوها ما زال علامة فارقة وحدا فاصلا بين الأمم المتقدمة التي تعني برجالها، والمتخلفة التي ترميهم كما

ترمي منديل السعال لسلة، دون اكتراث أو اهتمام، هذا دأب الأمم المتخلفة.

وبينما تنتظر حمدية كعادتها قبيل الغروب جالسة على التلة ترقب الشارع وعباس على التلة من الجهة الأخرى يرمق الغروب وكيف يطلي الحقول بصبغته المذهبة؛ لمحت حمدية سيارة عسكرية انعطفت نحوهم وفوقها تابوت ملفوف بالعلم، فشهقت شهقات متتابعة قبل أن تصرخ صرختها المدوية التي شقت أذن عباس وهي تراهم يقصدونها، كانت السيارة تتعرج بالشارع الذي ملئ بالحفر تعرجًا يشبه الوطن المشظى. وقفت ونزل الضابط، وقال بهدوء لا يناسب ملامح وجهه الغليظة وشاربه الكثيف:

-بيت (علي عباس)؟

فشعرت أن الأرض وقفت لا حراك بها، تجمدت، تعلم ماذا يريد أن يقول، ولكنها تكافح، لا تنطق يا سيدي والا هشمت رأسك، العطف الذي تدفق بلهجتك لا ينم عن خير، الخير من أمثالك لا يأتي لينًا هكذا.

فقالت بذهول:

-نعم، بيته. انا أمه.

فأدمعت عيناه، وقال بعطف يغالبه البكاء:

-ابنك يا خالة استشهد في معركة الفاو. وهذا جثمانه!! كان بطلًا ألهمك الله الصبر والسلوان!

هكذا قالها، دون ترو، كأنها قنبلة يدوية بيديه ورماها بسرعة، وحسب أن المهمة انتهت. صرخت ونشجت واجتمع ولداها والفلاحون من بعدِهم، هل كانت تتخيل أن أفراح (العوجة)

والرصاص الذي رمته احتفالا بانتصار القائد سيكون هو خبر استشهاد ولدها؟

رحل علي بكرها، وسرعان ما انقلب الواقفون الى بكّاءين .. كالأطفال.. بل كالنساء البكّاءات، وهي تصرخ صرخات تشبه وجع الوطن لو كان له صوت.. أما عباس فما أن سمع تلك الصرخات حتى توقفت الدنيا في عينيه، كل شيء انتهى، لم يستدِر لهم، لم يصرخ بوجعه، بل كتمه، الى أن اتى احد الفلاحين وهو يقول له: يا ابا علي، علي مات..

فلم يرد، حركه، واذا به يسقط ميتًا! مات عباس بلوعته في جنته التي بناها لنفسه، لتبقى تلك الحادثة علمًا على ذريته، وخبرًا تتناقله الأجيال وصدىً من الصبر والكفاح والألم!

٣

أنين الناي

«أنصت الى الناي يحكي حكايته..

ومن ألم الفراق يبث شكايته:

مذ قطعت من الغاب، والرجال

والنساء لأنيني يبكون

أريد صدرًا مِزقًا مِزقًا برّحه الفراق

لأبوح له بألم الاشتياق..

فكل من قطع عن أصله

دائمًا يحن الى زمان وصله..

وهكذا غدوت مطربًا في المحافل

أشدو للسعداء وأنوح للبائسين

وكل يظن أنني له رفيق

ولكن أيًا منهم (السعداء والبائسين) لم

يدرك حقيقة ما أنا فيه»

جلال الدين الرومي

-١٢-

وقف رجال القرية كلهم أجمعون، وعلى وجوههم قَتَرٌ وكَدَر، وقفتهم تنم عن ما في نفوسهم من خوف وفزعٍ رهيبين، كلّ شيءٍ جمد وسكن، والوجوه قد بدأت تسكب عرقًا، لعل وهج شمس يونيو الحارق قد تلافى ما في وجوههم من هلع باد بذلك الحر اللاهب. صامتون صمت من ينتظر الموت، كيف لا والبنادق موجهة عليهم، مجهزة للإطلاق؟ كان الملثمون مستعدين للرمي، لعله الخوف الذي يعتلج في نفوسهم من أن يخرج احدهم بندقيته فيمطرهم رصاصًا! ولكن أهل القرية كانوا أقل من ذلك بكثير. ومضت ساعة الضحى، فتقدم احدهم، وقرأ في ورقة بلغةٍ عربيةٍ فصيحة داهنتها لكنة عجماء:

الحمد لله ربِّ العالمين، القائل (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)، ناصر المتقين، وجنده الغُرِّ الميامين، والصلاة والسلام على الرسول محمد بن عبد الله، القائل (إنما جئتكم بالذبح)، وبعد :

فهذا كتاب والي تكريت، الأمير أبو عبد الله النجدي، أمر بتعميمه وقراءته على سائر الأقضية والنواحي والقرى، لتعلموا أن دولة الإسلام قد عادت قوية متينة، وما هذا الفتح إلا أول الخير، وهو المزن الذي يتبعه المطر، في دولتنا ستأمنون وتمارسون حرياتكم، وسنعود للاسلام سيرته الأولى، وما دخلت الدولة الإسلامية في العراق والشام ارضًا الا واستقام المائل، وأمن السابل، وأمنت الغوائل، وارتدع الجاهل، وانشعب الصَّدع، وسَكَن النقَّع، وزال الرَّوع، وعم النفع، وانتظم الشَّمل، واستحصف الحبل، وانجبر الوهل، واستفاضَ الوهن، وذهب الحزن، وانبتر الشجن، وانحسم الداء، وانكشف البلاء، واندمل

الـداء العيـاء، واعتـدل الميـل، وذهـب الوجـل، وثُقِّـف القاسـط، وأرضـى السـاخط. ومـا تشـاهدوه مـن تشـديد أمنـي، وتكثيـف عسكري، مـا هـذا الا لتستقر البـلاد والعبـاد، وهـو وضـع مؤقت.

والي تكريت الأمير أبو عبد اللّه النجدي،

١٥ شعبان ١٣٣٥هـ)

ومـا أن انتهـى مـن خطابـه حتـى أخـرج قائمـة مـن الممنوعـات وقوانـين الدولـة الوليـد:

• اقامـة الصـلاة: علـى سـكان القريـة أجمعـين وبـدون اسـتثناء الصـلاة فـي مسـجد القريـة جماعـةً، وغيـر ذلـك يعـرض صاحبـه للتعزيـر عنـد القاضـي.

• ايتـاء الـزكاة: علـى جميـع سـكان القريـة دفـع الـزكاة للرجـل الخـاص الـذي تعينـه الدولـة الاسـلامية، وبخـلاف ذلـك يتعـرض صاحبهـا للعقـاب.

• المحرمـات والبـدع مـا ظهـر منهـا ومـا بطـن كلهـا تعاقـب حسـب الشـريعة الاسـلامية وغيـر ذلـك تنالـون عقابـا أليمـا.

• السـلاح: يمنـع منعـا باتًـا أن يحـوي بيتًـا مـن بيوتـات القريـة أي سـلاح كان مهمـا صغـر، ومـن نجـد عنـده سـلاحًا يعـرض نفسـه للمسـائلة.

• أي اتصـال بالخـارج يعتبـر تعاونًـا مـع الكفـرة، ومـن نجـده متصـلا بالخارجـين يعتبـر خارجًـا علـى الدولـة وكافـرًا بمبادئهـا.

• كلُّ جنـدي يعتبـر كافـرًا خارجيًـا يجـب قتلـه أنـى وجـد والتبليـغ عنـه.

• الولاء للدولة الاسـلامية، والتعاون معهم.

• السكائر حرام شربها وبيعها ومن يخالف يعرض نفسه للتعزير.

• من يسرق تقطع يده.

• من يزني إن كان محصنًا (متزوجًا) رُجِم حتى الموت، وإن لم يكن محصنًا جلدناه مئة.

• من يشرب الخمر يجلد ثمانين جلدة.

• لا تخرج امرأة الا منقبة، ولا تتبرج أو تتعطر.

• الدكاكين والتجارة تتوقف اثناء الصلاة.

• باب التطوع في الجهاد ضد الكفرة مفتوح لكم.

وها أنا ادعوكم يا أخوة الايمان، أن تلتحقوا أنتم وأبناؤكم للجهاد في الدولة الاسلامية، فإن هذه الدنيا زائلة فانية، وأيامكم محسوبة معدودة، كم ستعمرون؟ الموت آت لا ينتظر، جاهدوا وصابروا، واستغفروا الله لما فرطتم في جنبه.

ثم قال: ونستسمحكم أيها الأخوة في التفتيش عن محرم أو ممنوع، واخوانكم هؤلاء متعاونون معكم، ونحن نتحلى بأخلاق الحرب كما أمرنا نبينا.



وانقلبوا الى بيوتهم راجعين، ها هم أتوا وسيبدأون تطبيق قوانينهم التي بدت مجحفة لهم، كيف لهم أن يلتزموا بها؟

كان أول مكان دخلوا يفتشونه هو دكان تحسين. كان قائدهم ذلك الذي ألقى الخطاب قبل قليل، وأول ما رآه وخلفه رجلان شاكيا السلاح خاف تحسين وارتعد، فقال ذلك الرجل:

-لا تخف أيها الرجل، إنما نحن أخوة، أخوة الإيمان، هذه الأخوة شديدة العُرى، صلبة لا ينهيها الا الموت، لا صلة الوطنية أو القومية التي سوقها هؤلاء الكفرة (ولما قال الكلمة الأخيرة قالها بعنف لدرجة أن تحسين قد ارتجف)..

فقال تحسين بتوتر:

-نعم يا أخي صدقت.

-أتبيع السكائر؟

فبلع تحسين ريقه بصعوبة وبدا متوترًا:

-أستغفر اللّه، أنا طالب شريعة يا أخي.

-ما شاء اللّه، أين؟

-في تكريت.

فقال بعنف:

-بئس المعلمون.

فقال تحسين بتوجس وبطء:

-لمَ؟

-انظر الى لحيتك الحليقة، كأنك امرأة، حفوا الشوارب واعفوا اللحى، (ثم بصوت خفيض هو للتهديد اقرب) اياك والحلق مرة ثانية، (ثم باستهزاء) يا طالب الشريعة.

-حاضر.

-أتدفع الزكاة؟

-الزكاة!

-نعم الزكاة، ما بك؟ أم لا تعرفها؟ وكيف بك أن تعرفها وأنت لا تعطي حقها؟ قبحك الله من تاجر طامع لا يؤدي حق الله!

-يا أخي، أنى لي الزكاة وهذا المحل بسيط جدًا، لم يبلغ نصاب الزكاة.

-هذا كذب! تتهربون منها.

-ستدفع الزكاة رغما عن أنفك.. أما باقي البضاعة التي لا أعلم ما هي فأوكل رجال الحسبة للتفتيش، ناولني هذا الشراب.

فأخرج تحسين بيد مرتجفة ثلاث علب من العصير وناولها له ولجنده. فأخرج من جيبه ألفًا وناولها لتحسين. فقال تحسين:

-هذا على حسابي، لن آخذ منكم شيئا.

-لا، لن أقبل، هذا حقك وبضاعتك، خذ.

كان هذا الفعل محل استغراب، فهو يعلم جيدًا أنهم لا يتورعون عن قتل مؤمن خالفهم، يقتلونه ويسفكون دمه ولو على الظن، بينما لا يقبل أن يأخذ شرابًا دون أن ينقد ثمنه، تلك الحادثة كانت بداية الانشطار في القرية والتفرق فيما بين اهلها نحوهم، فقد تعددت المواقف، ولكن الأيام وحدها كانت قادرة على كشف ما تحمله القلوب من خفايا وخبايا قد دفنها الزمن لتعود حية جذعة.



-بيت جواد علي عباس؟

فقال أجود:

-نعم هو.

-نريد التفتيش.

أشـرع البـاب وفتشـوا وعبثـوا فـي كل مـكان عـدا الغرفـة التـي تقنطهـا أم جـواد وابنتهـا.

فقال الرجل بهدوء ووجهه يطفح بالتساؤلات:

-أين جواد.

فقال أجود:

-لا نعلم.

-ألا تعلم أين هو؟

-لم يعد منذ أيام.

-لا تكذب..!

فقاطعه أجود بلهجة شابها شيء من العصبية:

-أنا لا أكذب، المؤمن لا يكذب.

-ستأتي معنا للتحقيق.

-الى أين؟

-ساعات وتعود.

ومـا أن اكمـل كلمتـه حتـى خرجـت أم جـواد سـريعة، ومـا أن رآهـا حتـى قـال:

-استري وجهك يا امرأة.

وكانت مكشوفة الوجه ترتدي عباءتها. فقالت بصرامة:

-اسكت، أنا مستورة قبل أن تعرف أنت الاسلام!

-اسكتِ.

-اسكت أنت، آخر الزمن يأتي أجنبي ويعلمني الاسلام!

-وجهكِ عورة.

-ليس عورة الا أن يؤدي الى فتنة، وأنا عجوز.

-استريه سدًا للذريعة.

-لا يوجد لدينا أنذال لدرجة أن يتلصصوا على نساء بعمر أمهاتهن.

فقال آمرًا الرجلين:

-خذوه.

فصرخت به:

-الى أين؟

-تحقيق.

-لن يخرج من هنا، ولن أتركه.

فصرخ بهم:

-خذوه.

وشحطوه وصرخات أمه خلفة متتابعة الى أن اجتمع المارة والجيران، فقال سعيد:

-أخي أين تأخذونه؟

-من أنت؟

-أنا عمه الوصي عليه.

-استفسار صغير.

كان أجود أول من أخذوه بهذه الطريقة وما أكثر الذين أخذوهم

بهذه الطريقة فيما بعد؟ تلك الطرق كانت أبرز المآخذ على الجيش العراقي، الظلم والأخذ بالظن، ولكن الآن اتبعوا نفس الطرق التي كانوا يستنكرونها من قبل، تلك اللحظة جعلت أم جواد تعض أصابعها ندما، لمَ لم تسمع كلام سعيد وترحل كما اقترح عليها قبل يومين؟ ولكن احتدمت الدهماء ولم يعد هناك مفر من مواجهة القدر المسطور.

ولكن سعيدًا لم يهاجر، لمَ؟

-١٣-

لم يكن ذلك المكان سجنًا، ولم يكن هناك وقت لهذه الدولة الفتية لدرجة أن تبني سجنًا في ولاية صلاح الدين، إنما هو بيت كبير اجتمعت فيه القيادة وجعلوا أحد الغرف للتحقيق ـــ وقليلا ما حققوا ـــ مع المطلوبين أو المشتبه بهم. لما فتحوا عينيه المعصوبتين بعد برهة من شدها ـــ بدت له قليلة ـــ كان المكان مألوفًا، بل هو يعرف تفاصيله، رفع رأسه في المكان فلم يتذكر. فدخل رجل آخر ذو لحية كثيفة غزاها المشيب، وشعر طويل أبيض مسدل، وعمامة سوداء، بدت له ملامحه القاسية مألوفة معروفة، ولكن أين؟

قدموا له ماءً باردًا، فشرب، فقال هذا الرجل الكهل:

-اجود، نحن نعرف عنك كل شيء، من أنت وماذا تدرس، ونعرف جواد جيدا، فأين هو؟

-لم يرجع الى البيت منذ أيام.

-كيف لم يرجع؟

-قلت لك لم يرجع.

-اين هو؟

-لا أعلم!



وصل البيت عند العاشرة والنصف، حيا أمه تحية فاترة:

-مساء الخير يمّة.

-ولدي..أنت بخير؟ هل آذوك؟

-بخير والحمد للّه.

وُدق البـاب، فتـح أخـوه الصغيـر جـودت البـاب واذا بعمـه سـعيد يتهـادى ببـطء نحـوه.

-الحمد للّه على السلامة، اللّه لطف بك.

-لم يفعلوا شيئًا، بل كانوا وديعين معي.

-ها ها ها ها ها.. طبعًا.. ادعُ لي.

-لك؟

-أي، أنـا مـن أخرجـك منهـم، علـى العمـوم هـم لـن يأتـوا ثانيـة الـى هنـا، لـن يعـودوا.

-كيف؟

-أمير تكريت، هذا الذي حقق معك.

-أبو عبد اللّه النجدي؟

-ها ها ها ها ها، هو ليس نجديًا بل عراقيًا منا؟

-عراقي؟!

-أجل ومن قريتنا؟

ففغر أجود فاه تعجبًا.

-من؟

-ابو سليمان. هو الأمير.

-غير معقول!

-ولـمَ؟ يأكل ويشرب في قريتنا دهرًا طويلًا، واذا به أمير في الدولة، هكذا تسقط الدول يا عمي، إذا نُخرت وتآكلت من الداخل، أنا رأيته مرة واحدة، وكانت سماته تدل على أنه ضابط من النظام السابق متخف ومكتف براتبه التقاعدي، ولكن يبدو أنه كان يخطط لهذا الأمر منذٍ وقتٍ مبكر، فلما رأيته الآن بدا كأنه أفغاني، بعد أن كان ذا شاربٍ متين كثيف ولكنه حلقه، وبعد القيافة اللائقة لبس ثوبًا قصيرًا، وتركك على اثرها، وهو وعدني أن لا يتقرب لك هو أو رجاله، ولكن من مأمنه يُأتى الحذر، وأنا خائف عليكم هنا، لا تعرف ماذا سيفعلون، وخاصة أن أخاك عسكريٌّ.

-ماذا نفعل اذن يا عماه؟

-الرحيل، أنت وأخوك على الأقل.

-لا يا عم، لن أترك أمي وأختي.

-اذن ننتظر قليلا.

كانت أم جواد جالسة وحدها تستمع الى الحديث مدفونة بعباءتها دون أن تنبس بكلمة، في تلك اللحظات وهي تصغي بغير اهتمام لأمر مصير عائلتها، كانت قد وصلت الى قناعة أنَّ الصمت أنفع وأجدى من كلامها الذي سيتحول الى خلاف ينتهي بزعل جديد، والأمر لا يحتمل. مهدية أم جواد على

رغم ما تطوي في أعماق نفسها من كرهٍ لسعيد الا أنها مؤمنة أن له قلبا عطوفا على أولاد أخيه، ذلك الشعور الذي كان يأتي مرارًا في الأزمات، هذا عدا الرعاية الخاصة التي يوليها لأجود.

كان يحث الخطى نحو صلاة الفجر، دخل المسجد وإذا بالقرية كلها في صلاة وذكر، وإذا بصوت يأتيه من الخلف يقطر تقوىً:

-أخ أجود، لمَ التأخر عن الصلاة؟ لم يتبق على صلاة الفجر الا دقائق خمس!

فاستدار نحو ذلك الصوت المألوف قائلا:

-خمس دقائق، أي ما زال الوقت مبكرًا.

فدهش لما رأى صاحب الصوت!

-يا أخي، أنسيت السنة القبلية؟ وهل في هذه الدقائق القلال ستلحق أن تصلي السنة بذاك الخشوع المنشود وهما خير من الدنيا وما فيها؟

فقال أجود ذاهلًا:

-تحسين! أنى لك هذه التقوى؟

فتقدم نحوه وقال بصوتٍ خفيض:

-اسكت هداك الله، فإنَّ أبا قتادة قد حذرني، إن لم أصلِّ فيغلق المحل ويرميني في السجن.

-ومن أبو قتادة هذا؟

-هذا الذي اعتقلك تلا البيان علينا، وعلمت أنه معاون الأمير

أبـي عبـد اللّه النـجدي.

وبينما هما يتابعان كلامهما جاءهم صوت مألوف آخر:

-يـا أخـوان، المسـجد مخصـص للعبـادة والتـلاوة والطاعـة، لا الـكلام، اتقيـا اللّه وتعـوذا مـن الشـيطان.

فقـالا بصـوت واحـد وعيناهمـا تـكاد تقتلـع مـن محاجرهمـا ذهـولًا:

-أبو حازم!

فقال:

-استعجلا، سيقيم الصلاة!

ربـاه مـاذا حصـل؟ هـل انقلبـت الدنيـا؟ أبـو حـازم الـذي يـأكل الربـا أضعافـا مضاعفـة يأمرنـا بالاسـتعجال؟ قبـل فتـرة وجيـزة أقـام الدنيـا ولـم يقعدهـا لأن أسـامة نصحـه بالكـف عـن أكل الربـا، وهـا هـو اليـوم يأمرنـا، يـا دنيـا لـمَ التقلـب هـذا؟ كيـف غـدا الأوغـاد أسـيادًا؟ أيـن العـدل؟

ولـم يكمـلا عجبهمـا حتـى رأيـا مـا هـو أشـد عجبًـا، علـي! علـي ابـن عمـه سـالم قـادم يتهـادى ببطء ويـكاد يفـر مـن خيالـه وجهـه قـد ملـئ رعبًـا، علـي الـذي لـم يدخـل مسـجدًا قـط ولـم يعلمـوا الـى ذلـك اليـوم هـل هـو مقيـم للصـلاة أم تـارك، هـا هـو سـيصلي الفجـر جماعـة، كيـف لا وأبـو قتـادة أعلـن أن مـن لا يصلـي يعتبـر مرتـدًا كافـرًا وسـيقام عليـه حكـم المرتـد ولـن يدفـن مـع المسـلمين؟

وأُقيمـت الصـلاة، فأشـار أبـو قتـادة للمـلا عمـر أن يتقـدم، وتقـدم الأخيـر بعـد امتنـاع وإبـاء، ومـا أن قنـت حتـى رفـع يديـه داعيًـا: اللهـم انصـر الدولـة الاسـلامية فـي كل مكـان...

وكانت لهجته تقطر خشوعًا مبالغًا لدرجة بدأ نحيبه يطغى على صوته، ومن الناس من بكى معه بكاءً مرًا!! ولم ينسوا أن يترحموا على شهداء الدولة الاسلامية.

خرج أجود ومعه أسامة وعلي، ثم التحق بهما أبو حازم، ودعا لهم بالبركة وأن يتقبل الله أعمالهم. فقال أبو حازم:

-يا شباب، بعد الدعاء في صلاة الفجر لا تمسحوا وجوهكم!

فقال أجود وكان أجرأهم في هذا الموقف:

-وهل في المسح اثم أو حرج؟

-بلى هناك اثم، واثم كبير، لم يرد فعلها عن النبي حتى تفعلها .

-تأدب وصلِّ على النبي عندما تذكر اسمه، قبل أن تتحدث عن الحلال والحرام.

-صلى الله عليه وسلم. ولكن أليس من الأولى الإتباع؟

فقال أسامة بعد أن ضاق من ريائه:

-اتقِ الله يا أبا حازم، أنى لك هذه التقوى واتباع السنن واقامَة الفرائض والنوافل؟ الذي نعرفه عنك أنك أكّال للربا وللسحت الحرام!

فقال مغاضبًا:

-قد تاب الله عليّ إنه هو التواب الرحيم، وقد لطف الله بنا وبعث لنا دولة اسلامية ترشدنا لطريق الصواب..!

-ولكن التقوى لا تباع وتشرى وتقلب بين يوم وليلة الى ورع زاهد في الدنيا بعد أن كنت مكابرًا تحارب الله ورسوله!

-احترم نفسك.

ومضى يذرع الطريق غضبانًا. أما علي فمضى يسير وحده كأن الأمر لا يعنيه. فقال أجود: غريبة الدنيا... تخيل لك أحيانا أنها وفية تسير على نواميس محكمة ولكن سرعان ما تجنح الى فلك متلاطم أمواجه، عاتية رياحه، فتخونك خيانة نكراء، لدرجة أن تقف كما نقف الان يا أسامة، ونلعنها ونعزم الا نثق بها مجددًا ونتواثق على ذلك ..!

فقال أسامة ضاحكًا: ألان حتى عرفت؟

فقال أجود له:

-قل لي واصدقني القول، أنت مع من؟

-أنا مع الحق.

-أيُّ حقٍ؟

-لم يتبين الرشد من الغي بعد.

-ومتى يتبين؟

-لم أعرفك عجولا الى هذا الحد!

-١٤-

(الجهاد أقصر طريق الى الجنة المنشودة، قد ترون فيه جحيمًا، قد تخافون، وقد يبدو وعرًا أوَّل الأمر، ولكن اذا ذقتم لذته، ورفضتم الذل الذي تعيشونه تحت ظل الطغاة الكفرة علمتم غاية الدولة الاسلامية، الدولة الاسلامية أيها الأخوة جاءت لإنقاذكم، للوذ الدهماء عنكم، كي تكونوا مؤمنين حقًا، ولا سبيل الى الحرية الا بالجهاد، أول السلم هو الحرب، ولولا تطاير الرؤوس الكافرة ما قامت دولة مؤمنة، نحن الان في صراع دائم، العالم مقسوم، بقاء وفناء، والبقاء للأقوى،

ولكن قد شاهدتم ما في مسلمي اليوم وحكامهم من جبن وخنوع وخضوع للغرب الكافر، حتى غدت الأمة الاسلاميةً أمة متخلفة جبانة، وأنتم يا أهل العراق، أصل العرب ومادته الأولى ومهد الدولة، أنتم تعانون من ضنك وشظف.. نحن جئنا لتحريركم، يحز في نفوسنا ما نسمع من ظلم وحصار وجوع ودمار، وتصفية عرقية طائفية من قبل كفرة مجرمين، نحن جئنا لننقذكم.. والا ما الذي يدعوني للقدوم من ليبيا الى هنا عبر رحلة طويلة؟ إنه الجهاد أيها الأخوة الذي تقاعستم وتكاسلتم عنه، فأذلكم الله أيما اذلال، وسلط عليكم هؤلاء.. فالجهاد الجهاد)

هكذا أكمل (طلحة) ذلك الشاب الذي لم يتخطَ الثانية والعشرين بعد كلامه لتحسين وأسامة، كان طلحة هذا فارع الطول، لم تكتمل لحيته بعد ولكن كلامه ينمُّ عن رجولة مبكرة شابتها أفكار أودت به الى هنا، هو يرى نفسه قد أحسن صنعًا، كان يتألم وهو يرى حال العراق تحت القصف الأمريكي، وكم تألم وهو صغير وهو يشاهد القتلى والجرحى، كان يشعر بالذعر، يخرج الى فناء المنزل ليلا في برد يناير القارص، يفضل سكون الليل القارص على تلك المشاهد، ومنذ ذلك اليوم وهو يحلم أن يأخذ بندقية وينازل أولئك الذين يقتلون المؤمنين. العراق كان يعني له أشياءً كثيرة، فأبوه الذي لم يرَه عراقيٌّ كما قالت له أمه، فهو يشعر بالجذور تحز في صدره عن ما يعانيه موطنه الأول.

-ماما، هؤلاء الأطفال عندما يموت آباؤهم أين يذهبون؟

هكذا فاجأ طلحة أمه ذات يوم، شعرت بالرعب، كيف تجيبه؟ هي الأخرى كانت لا تقل عنه فضولا لمصير أولئك الأطفال،

هـي تسـمع أن العـراق خـراب، كلـه قتـل وسـفك، بـل تظـن أنهـم فـي صـراع بـاقٍ لا أوار لـه. بـدأ طلحـة حياتـه يتيمًـا، هكـذا فتـح عينيـه وإذا بـهٍ وحيـدًا مـع أمـه، كانـت الحجـة الأولـى لاختفـاء والـده أنـه مسـافر، أبـوه الـذي التحـق بتنظيـم القاعـدة فـي أفغانسـتان منـذ وقـت مبكـر، أم طلحـة لا تعلـم أن زوجهـا يميـل نحـو الجماعـات المقاتلـة. الجهـاد، القتـال، أمريـكا، مصطلحـات لـم تكـن تعلـم عنهـا شـيئا، زوجهـا كان حاذقًـا بهـذه المصطلحـات، عارفًـا بدهاليزهـا، بـل كان يجمـع الكثيـر مـن الشـباب فـي بيتـه، ويقـرأ لهـم بعـض الكتيبـات، كذلـك وجـدت عنـه تسـجيلات كثيـرة عـن الجهـاد ومفهومـه. لـم تسـأله يومًـا: مـا الـذي جـاء بـك مـن العـراق الـى هنـا؟ قالـوا لهـا أنـه ضابـط عراقـي متهـم بمحاولـة انقـلاب فاشـلة ضـد صـدام مـع مجموعـة مـن الضبـاط، وقالـوا هـو جاسـوس عراقـي فـي التنظيمـات المسـلحة المتطرفـة، ولا أحـد يعلـم حقيقتـه.

-انا راحل.

-الى أين تذهب وتتركني، أنا حامل، هل نسيت؟

-لـم أنـسَ، ولكـن أنـا ذاهـب فـداءً لهـذا الديـن. المـوت فـي سـبيل اللّه أمنيتـي وغايتـي.

-والحياة في سبيل اللّه أليست أجدى نفعًا؟

-كيف تقولين هذا يا امرأة؟

فقالت باستسلام وانكسار:

-لا ترحل وتتركنا؟

-كونـي شـجاعة وباسـلة، وقولـي لابننـا أن أبـاك كان شـجاعا ورحـل فـي سـبيل اللّه!

تركهما في خضم الحياة الهادرة لا يجدون شيئا يقتاتون منه، عملت آنذاك خادمة في البيوت، تجني بعض الصدقات، أمه كانت طيبة وساذجة في نفس الوقت، لا تستطيع الكذب ولو كلفها ذلك عمرها، فما أن نشأ ووعى حتى حكت له سيرة ابيه، وعن خروجه وجهاده، ومنذ ذلك الوقت وطلحة يحلم أن يكون كابيه، مجاهدًا في أفغانستان أو العراق أو أي بلاد تدعوه للجهاد، وقد رأى الفرصة مواتية قبل عامين، رأى الوقت قد حان لتنفيذ الواجب المقدس، لطالما حكت له أمه عن أبيه ورحلته في سبيل الجهاد ولم يعد، لم تحاول أن تردع طلحة عن الرحيل أو تحرضه على البقاء والحياة في سبيل اللّه، لأنه ببساطة لم يقل لها أنه ذاهب للجهاد.

-تركيا؟ وهل بلادنا ضاقت ولم يبقَ مكان للعمل الا تركيا؟

-أماه فرصة مناسبة، هناك البلاد أوسع وأرحب، وسينتظرني صديقي الذي وجد لي عملا في شركة تجارية براتب معقول بل ومغرٍ، وفي العام القادم أكمل الكلية هناك بعد أن أتقن التركية.

-ومن هذا الصديق؟

-تعرفت عليه عبر الفيس بوك.

فقالت مدارية هلعها بسخرية بدت باهتة وغير لائقة عليها:

-فيس بوك!! ومن هذا الصديق العظيم الذي وجد لك مأوى وعملا ولم يعرفك أصلا الا في الفيس بوك؟!

-صديقي منذ أمد بعيد..

صحيح ما قاله طلحة لأمه من أن صديقًا ينتظره في تركيا، ولكن لن يعمل هناك، ولن يدرس الكلية هناك بعد سنة، بل

سيتوجه الى الرقة السورية، عاصمة الخلافة المزعومة، ويبايع خليفتها على السمع والطاعة في المنشط والمكرب. وسافر طلحة غير عابئ بدموع أمه الساجمة، تساءلت أمه: لمَ على النساء أن يتحملن دوما ما لا تتحمله صناديد الرجال؟ الموت في ساحات القتال يأتي مرة واحدة، قد يأتي فجأة وأنت تأكل أو تضحك أو حتى تمرح، دون أن تشعر بآلام أو حسرات، هو أهون من ساعات الانتظار القاتلة.

- كم انتظرتُ أباك ولم يعد، فهل ستجعلني أنتظرك أنت الآخر؟

-لن يطول، وهو انتظار بسيط، عمل ودراسة.

ورحل طلحة وانقطع خبره، الى أن وصل تسجيل لأبن خالته على بريده وطلب منه أن يسمعه لأمه:

(أماه، السلام عليكم، أنا الان في تركيا، عندما تسمعين هذا الصوت سأكون في الرقة، عاصمة الخلافة الإسلامية، حيث الجهاد على سنة ابي رحمه الله، سامحيني، أنا لا يمكن أن أعيش والخطر محدق في أمة الاسلام من كل جانب، ادعي لي، لن أعود يا أمي حتى يعود مجد الأمة أو أموت دون ذلك.)

فاحتار ابن خالته ماذا يفعل، فوجد من الأنسب أن لا يخبر أمه، وأن الأنسب أن يجعلها قيد الانتظار!

ولكن ما وجده طلحة في الرقة لا يصدق.. وجد أباه!! لم يجده ساذجًا طيبًا بسيطًا كما تخيله وكما حكت له أمه، وجده حاذقًا حصيفًا متمرسًا في القتال وفوق ذاك مقربًا من الخليفة، ذلك الرجل كان أبو عبد الله النجدي، قائد الجيش

الـذي سـيغزو العـراق والمرشـح لولايـة العـراق!



دخـل أجـود دكان تحسـين فـرأى طلحـة وتحسـين وأسـامة يستمعون إليـه بشغف، فسلم، ثم طلب كيسًا من الشـاي. فقال اسـامة:

-اجلس يا أجود معنا هنا واستمع الى حديث أخينا طلحة.

فقال أجود:

-غير متفرغ للاستماع، عندي عمل.

فقال طلحة:

-يـا أخـي، كل عمـل الـى زوال، الا مـا كان فـي جنـب اللّٰه وفـي سـبيل اللّٰه، أمـا هـذه الدنيـا فـ الـى فنـاءٍ، اسـتمع منـي، لعل اللّٰه يهديـك.

-اللّٰه هدانـي الـى الاسـلام، وأنـا مسـلم وطالـب علم، وأعـرف مـا لا تعرفـه، ولا أحتـاج الـى معرفتك.

فقـال طلحـة بعـد برهـة مـن سـكوت أثـر صدمتـه مـن كلمـة أجـود الجريئة:

-معرفتك واضحـة، أنتم خيـر مـن فيكم هـو عبـارة عـن مبتـدع.. تعبـدون قبـورًا مـن دون اللّٰه وتشـركون بـه.

-كفرتنا بهذه السرعة، للّٰه در علمك!

أخذ الكيس وخرج، بينما تلافى أسامة الموقف قائلا:

-اعـذره يـا طلحـة فإنهـم فـي محنـة، أخوهـم ذهـب ولـم يعـد، وأنتـم مـن أول يـوم شـحطتموه وحققتـم معـه.

-وماذا نفعل اذا كان أخوه كافرًا؟

-نسأل اللّه له الهداية، الدعوة الى اللّه كما تعلم يا أخي تحتاج الى ترو وتأنٍ، والنبي صلى اللّه عليه وسلم صبر على كفار قريش لماً آذوه، حتى يؤمنوا، فاصبر يا أخي عليه. وأجود شاب فاهم ومثقف.

-سأعتبر نفسي لم أسمع شيئًا، لأجلك فقط يا أسامة.

فقال أسامة باسمًا:

-بارك اللّه فيك.

-١٥-

منذ تلك الليلة ودنيا مهدية قد احلولكت واسودت. ما معنى أن تستمر في عراكٍ خاوٍ وابنها لا يُعلم مصيره؟ تلك الخلافات رأتها أمام فقدٍ ولدهاً ضربٌ من البطر الذي ولى زمنه، ما فائدة أن تداعي بمال زوجها وقد غاب ولدها، فقد الولد يحتاج الى توجع لائق، أن تصب كل الحسرات والدموع له وحده، لم تعد تبالي منً سيحكمهم، دولة أم عصابة، كان كل شيء قد خفت ولم يعد له معنى، ثم تذكرت حكاية علي، وكيف عاد وانقلبت القرية الى افراح، علي عباس الذي عاد من فم الموت وصارت قصة عودته حكاية تروى بكثير من التهويل، هي لم تشهدها، ولكن سمعتها حقيقة منه، وسمعت ما لفق عليها من تهاويل واساطير من أهل القرية ومن أمه، ومنه أحيانا أُخر، قريتنا تلحقها علامة، تكاد تكون سمة تعرف بها، الا وهي الحكايات الأسطورية التي تروى عنها، فلما أتسعت الأرض وكثر الخلق في تلك المناطق وما حولها

طار الرواة يحملون تلك الحكايات شرقًا وغربًا، منذ عهد عباس وقصة هروبه من سامراء الى أن رقد في أرض أبي حمدية الى علي، وحكاية علي الأكثر شهرة وقربا لمهدية، ما جعلها تشبه جواد بعلي أبيه.



كان يومًا حزينًا لم ترَ القرية مثله، مات عباس غمًا وهمًا لموت ابنه، وكان مما ضاعف ألم ذويهما ومحبيهما أن عليًا أو تلك الجثة التي نسبوها له__ كان مشوهًا تمامًا، لا يستطيع المرء أن يميز أعلاه من أسفله، ولما نظرت حمدية لجثته: صرخت قائلة: ليس هو،، هذا ليس ابني .. ليس ابني.

ولكن الناس اعتبروا ذلك جنونًا لأن الجثة مشوهة، حتى أنها كانت تقول أيام العزاء: علي لم يمت، الذي مات عباس فحسب، لا تقولوا علي مات، عزوني في أبيه عباس فحسب. الناس ظنت أن حمدية قد جُنت. ومن يرها آنذاك يوقن بجنونها. كانت تقول بحنوٍ:

- قلبي يحدثني أنه على قيد الحياة، وقلب الأم لا يكذب.

فيقول لها سالم بعطفٍ:

-وهل قلب الأم يبعث الولد من اجداثه؟

فتقول له بإصرار طفولي وعناد مشبوب ببكاء وصراخ:

-اخوك علي لم يمت يا سالم، لا تقل إنه مات..

فيحتضنها بقوة ويقول بصوت قوي يشبه صوت جبريل وهو يحتضن محمد ويقول له اقرأ:

-علي مات يا أمي... مات.

لم تكن فكرة تقبل الموت سهلة يسيرة، ولم تكن حمدية تلك المرأة التي تتقبل تلك الفكرة، بل بقيت معاندة مكابرة، حتى أن الناس تركوها تنتظره أو تركوها مستسلمة للجنون! وما هي الا أشهر قلال حتى عادت الأفراح لتضيء القرية الحزينة، إذ صحت ذات يوم على صوت المنادي:

(لقد عاد علي).

وإذا بشبح رجلٍ هزيل موغل في الهزل، اشاروا ، اشاروا اليه: هذا علي.

كثيرون أنكروا أن يكون عليًا هذا الرجل الهزيل الذي عاد من الموت، لم يستطع حتى الكلام لأيام، ولكن الذي عرفوه أن عليًا لم يعد تام العقل، لكثرة ما رأى مِن أهوال تشيب له الولدان، ومن تلك الرصاصة التي أصابته. كان قريبًا من الموت ولكنه لم يمت، كان يقف أمام سيل الرصاص، عندما اصابته تلك الرصاصة وصاح: آه. وبدأ يشخب دما نجده خليله ورفيقه، وأحتضنه ليتلقى هو الرصاص بدلا عنه، وما أن سقطا حتى رأى الفرصة مواتية للهرب، فنزع القلادة التي فيها هويته واسمه، ووضعها في رقبه صديقه، وأخذ هوية صديقه وأخفاها، ثم هرب جريحا. ذلك الصديق هو (أبو جواد)، أبو جواد هذا لم يكن متزوجًا أو لديه ولد أسمه جواد، إنما كان يحلم أن يأتيه ثلاثة أولاد فيسميهم: (جواد، وأجود، وجودت)، وكان لتلك الأسماء معنى في نفسه وفي تاريخ عائلته، فلما عاد علي وتزوج سمى أولاده على أسمه تخليدا لذكراه.

علي بعد ذلك عاش والناس تظنه غارقًا في سذاجته، وهو كان يرى ذلك رأفة وطيبة، كان يواجه العالم بصوته الخفيض، وخلقه الدمث، ولسانه الذي لا يكل من كثر الذكر والتسبيح.

ولكـن النـاس «أكلـوه لحمًـا ورمـوه عظمًـا» كمـا تقـول مهديـة، اسـتغلوه أبشـع الاسـتغلال، فـكان إذا جمـع شـيئًا مـن المـال طالبتـه حمدية بـه، وهـو يعطيـه عـن يد وهـو صاغـر ساكت، وإن اعترضـت مهديـة، أو دخلـت عليهـا شـاكية إليهـا منهـا مـا تفعـل بـه، وأن عليًـا قـد غـدا مفلسًـا، تقـول حمديـة بحـزم:

-أنـا الـذي ربيتـه وتعبـت عليـه، وبقيت أبكي الـى أن ضعف نظري، ونحـل جسـدي، واحـدودب ظهـري، ثـم تأتـين أنـتِ وتريديـن أخـذه منـي؟ لا تحلمـين بذلك.

فتقول بتوسل:

-يـا عمـة، أنـا لا أسـرقه، ولكـن كل عمله فـي الأرض لكم، سـعيد يأخـذ المحصـول بثمـن بخـس، وأنـت تأخذيـن ذلـك الثمـن الا قليـلا، أليـس هـو ابنـك أيضـاً، ولـه حَـق فـي ملـك أبيـه، بـل هـو أكبرهـم.

-ولكـن عليًـا رحـل الـى الحـرب ولـم يعمـل كمـا عمـل أخـواه، بـل حتـى عندمـا عـاد، عـاد معلـولا لا يقـوى علـى شـيء، وأنـا وأخـواه زوجنـاه ورعينـا أولادك، لا تحسـبي أن لكـم كمـا لإخوتـه، الـكل يعلـم أن عليـا صحتـه ليسـت علـى مـا يـرام، أي مـا هـي الا سـنون معـدودة ويقعـد عنـدك فـي البيـت، مـن أيـن سـتصرفين علـى عيالـك؟ مـن الدراهـم المعـدودة التـي آخذهـا أنـا منهـا. يـا بنـت، أنـا لـن أترككـم مهمـا ضـاق بكـم الحـال، فـلا تبقـين هكـذا، بكّـاءة شـكّاءة وتحرضـين الأخ علـى أخيـه.

ولكـن حمديـة التـي كانـت تظـن أن عليًـا سـيموت، وأيامـه قليلـة، وكانـت تحمـل هـم عيالـه ماتـت وعلـي مـا زال يعمـل فـي أرضـه، لكـن عليًـا بقـي يفعـل كمـا كـان يفعـل فـي حيـاة أمـه، يبيـع محصولـه لأخيـه بثمـن بخـس، واسـتمر العـراك بـين مهديـة وسـعيد، الـى أن

كبر ابناؤها، وسجل كبيرهم (جواد) في الجيش العراقي، وكان جواد هذا أسمر مفتول العضل فارع الطول، يتطاير الشر من عينيه إذا غضب، وما أن تمرس في الجيش وزادته البندقية صرامة وشدة حتى وقف جنب أمه بكلِّ صلابة، وكان لجواد مقام سام بقلبِ أبويه، فبعد أن التحق بالجيش وقبض راتبًا مجزيًا وقدَّره مليون وثلاثمئة ألف دينار تحسنت معيشتهم، بدل تلك الأموال القليلة التي تبقى لهم من محصول الزراعة أو التي تدفعها لهم حمدية بعد وتعده منةً منها وفضلًا، بل صار هو ربُّ الاسرة، وكثيرًا ما وقف بوجه عمه سعيد وقد يصرخ به، وسعيد لم ينسَ ذلك اليوم بل بقي محفورًا في ذاكرته، عندما تصايح سعيد مع مهدية، وخرج مغاضبًا الى معرضه، وعاد جواد الى البيت ليجد مهدية وبتول في نوبة بكاء، ولما علم أن السبب عمه سعيد خرج مسرعًا وانطلق الى المعرض مع رفاقه المنتسبين في الجيش وبسيارة عسكرية، ونزلوا شاكين السلاح، فتقدم جواد نحو عمه سعيد الذي كان غارقًا وسط الزبائن في التعامل حول بيع سيارة، فمسكه وازال عقاله وأضجعه أمام التجار والشارين، وسحب بندقيته ووضعها على رأس عمه، وقال بصوت هز أرجاء المكان: لم يلد بعد من يصرخ بوجه أم جواد ويبكيها، قسمًا برب السماء سأدك معرضك هذا على رأسك، وسأجعلك اضحوكة ونكتة تتناقلها وترويها الناس!

ثم أشار الى الجنود الذين معه وكسروا بأسفل البندقية زجاج كل سيارات المعرض وخرجوا تاركين سعيدا غارقا في خجله وحيائه من هذه الفضيحة المدوية. تلك الحادثة توجت مهدية بالنصر بتاريخ ذلك العداء الطويل الذي كانت الغلبة دومًا لسعيد وأمه، ولكن الأيام حبلى بما قلب الموازين.

وتلك الأفعال المنطلقة من بعض الجنود كما فعل جواد مع عمه كانت تمهيد لعداء طويل وشق واسع بين الجيش والأهالي، بل كانت مقدمة لقبول فكرة الدولة البديلة المنقذة من هذا الاضطهاد وما يحمل بين طياته من قسوة وشدة، تلك الافعال التي تسير بقانون الغاب، ولعل هذا أحدً الاسباب المجهولة التي دفعت الأهالي للقعود اثناء دخول التنظيم الى تكريت والموصل من قبل، ولكنهم كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار.

والآن قد رحل جواد ولا يُعرف مصيره، وأجود مداهن لعمه طامع في مصاهرته، ومهدية أيقنت أن لا فائدة من العداء المستمر، ولكن الذي تؤمن به أن جوادًا لم يمت، ولم تنتهِ حكايته بهذه الصورة العجلى، لم يتزوج بعد، ولم ينجب أطفالاً رائعين كما يتمنى، والأهم لم يخلصهم من عمهم سعيد ويبتعد عنه نهائيًا كما وعدها سابقًا، هل الأقدار تأبى الا الدوام لهذا الخلاف؟ الان تتمنى حمدية لو تخرج .. تهرب .. وحدها هي وبنوها تاركين الأرض والبيت لسعيد، بل لن يطالبوه بشيء، ليتها فعلت من قبل. الان تتساءل: إن كان جواد على قيد الحياة هل يستطيع الفرار من داعش؟ هو بين نارين، أهونها فرار لا عودة بعده الى هذه الأرض.

هي لا تقبل فكرة الموت، هي تريد الاقتداء بحمدية، لعل الاقدار تعيد نفسها، ألم يقولوا أن التاريخ يعيد نفسه؟ أليس من الأولى أن تعيد الأقدار نفسها؟

-١٦-

-هل من أمر؟

سـأل سـعيدٌ طلحـة بعـد أن اخبـره الأخيـر أن يجمـع كلّ أهـل القريـة فـي المسـجد عنـد الصـلاة

-ستعلمون ذلك في الاجتماع.

وما ان انفتل أبو قتادة من الصلاة حتى انتصب قائمًا يشمخ برأسه، وينظر الى الحضور باستعلاء، وكان الحضور كل أهل القرية.

فقال: الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد الأمين وعلى اله وصحبه أجمعين، وبعد: فهذا بيان من الناطق باسم الدولة الاسلامية في العراق والشام، واليكموه:

قررت الدولة الاسلامية اعلان الخلافة الاسلامية وتنصيب خليفة للمسلمين ومبايعة الشيخ المجاهد عبد الله ابراهيم بن عواد بن ابراهيم البدرِي القرشي الهاشمي الحسينيِ نسبًا، السامرائي مولدًا ومنشأ، البغدادي طلبًا للعلم وسكنًا، وقد قبل البيعة، وقد صار بذلك إمامًا وخليفةً للمسلمين في كلِّ مكان، وعليه يُلغى اسم العراق والشام من مسمى الدولة في التداولات والمعاملات الرسمية ويقتصر على اسم الدولة الاسلامية ابتداءً من صدور هذا البيان.

وقد تم إزالة الحدود بين العراق والشام، لتكون دولة واحدة، فما بعد ازالة هذه الحدود، حدود الذل وكسر هذا الصنم صنم الوطنية وبقاء خلافة على منهاج النبوة.

ثم قام الناس كلهم متتابعون للبيعة، يقوم الواحد منهم فيصافح أبا قتادة قائلا ــ كما علمهم طلحة ــ : أبايع أمير المؤمنين أبي بكر البغدادي على السمع والطاعة في المنشط والمكرب، وعليَّ عهد الله ورسولِهِ والمؤمنين.

تلك البيعة التي نطق بها أهل القرية لم يكونوا ليعلموا معناها أو مغزاها الا أجود ورفاقه، فقد عرفوا أنّ الخطرَ محدق، وأن الخلافة قد اتجهت الى اتجاه آخر، عداء لكل الدول، والخليفة يخرج على التلفاز علنا في الموصل ومسجدها الكبير ويقولها: أطيعوني ما أطعت الله فيكم.

-إن أمير المؤمنين أبا بكر البغدادي بخطبته هذه أعلن أن للدولة الاسلامية كيانٌ ومنهج؛ حيث قال: (كتاب يهدي وسيف ينصر)، الدولة الإسلامية لم تعد جماعة متطرفة كما يصفها الكفرة الفجرة، إنما دولة تحكم بشرع اللّه، وقريبًا بإذن اللّه ستنتقل الخلافة من الرقة الى بغداد الرشيد..

هكذا قال طلحة لتحسين وأسامة وأجود، فقد انضم طلحة اليهم والى مجلسهم، وعلي قد اعتزل هذا المجلس، وقال إنه تفرغ للقراءة، حاول طلحة أن يحرض أسامة وأجود لجذبه لمجلسهم، ولكنه أبى بشدة، وربما لم يكن صادقًا في تفرغه وعزلته للقراءة، إنما هو الخوف الذي يسيطر عليه، أما أسامة فقد رأى طلحة ليس ممن يخشى شره، وهو الذي انضم لهم.

-بغداد!!

قال اسامة بعد أن رأى طلحة قد شطح بخياله الجامح.

فقال طلحة وهو يعرف أن أسامة له ميول نحوهم عكس أجود:

-أي، بغداد، لم يبقَ الا القليل وعاصمة المرتدين الكافرين تسقط بين أيدينا، ستعود يا أسامة الخلافة الى بغداد، بغداد الرشيد، وتنطلق الجيوش منها فاتحة عنوة وجبرًا، لتنقذ

الانسـان وتحـرره، هـذه الفكـرة تسـتولي علـى والينـا وخليفتنـا، العـراق يـا شـباب هـو أرض الخلافـة الحقيقيـة، فـي العـراق ستقام دولـة مترامية الأطراف، لا تكاد تحدها حدود أو تجمعها رايـة ، كلمـا كبـرت رايـة الدولـة رايـة النـور والعـدل والقـرآن اتسـعت العدالـة لتحقيـق مـا اراده اللّه مـن خلقـه، الاسـتخلاف فـي الارض الـذي يريـده اللّه هـو خلافـة الدولـة الإسـلامية، وهـي باقيـة وتتمدد، نحـن سنغزو العالـم، قد يبدو كلامـي هـذا سـاذجًا، أو محضَ خيـالٍ جامـحٍ، او غـرورَ فتـى منتصـر، أو فتـوة، أو لعـل قائـلًا يقـول: مـاً لـك تعًدهـم وتمنيهـم وأنـت لا تملـك الا شـطرًا مـن العـراق والشـام؟ أقـول لكـم عـودوا الـى تاريـخ أمتكـم، عـودوا الـى مجدكـم التليـد، ألـم يكـن رجـلًا واحـدًا معـه فتـى ورجـل وامـرأة وعبـد؟ وحدهـم بثلاثـة عقـود جعلوهـا أمـة كاملـة يعمهـا السـلام والرخـاء والسـؤدد، فمالكـم عندمـا انطلقنـا مـن نفـس تلـك المفاهيـم وتلـك الأفـكار ضقتـم بنـا ذرعًـا وحسـبتمونا مبتدعـين مجرمـين؟ هـل ركنتـم الـى الحيـاة الدنيـا؟!

فقال أجود:

–لكـن محمـدًا (صلـى اللّه عليـه وسـلم) وصحبـه لـم يكونـوا يذرعـون الوسـائل والمناهـج التـي تتخذوهـا، لـم يكونـوا يقتلـون بالشـبهة، لـم يكـن محمـدًا يكفـر العالـم كمـا تكفـرون، بدأهـا بدعـوة سـلمية، يقـول لهـم: قـل لا الـه الا اللّه تسـلم، ولـم يشـهر سـيفًا ًقبـل أنٍ يعـذب ويضـرب فـي سـبيل اللّه، بـل أكثـر مـن هـذا يـا طلحـة، اسـمع الـى هـذا الخبـر الـذي ترويـه كتـب السـنة ومنهـا البخـاري، أن عائشـة رضـي اللّه عنهـا قالـت للنبـي صلـى اللّه عليـه وسـلم: هـل أتـى عليـك يـوم كان أشـد عليـك مـن يـوم أحـد؟ قـال: لقيـتُ مـن قومـكِ مـا لقيـت، وكان اشـد مـا لقيـت منهـمٍ يـوم العقبـة، إذ عرضـتُ نفَسـي علـى ابـن عبـد يـا ليـل بـن عبـد كُلال،

فلم يجبني الى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقَرن الثعالب، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فنادني، فقال: إن اللّه قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث اللّه إليك ملك الجبال لتأمره بما شئتَ، إن شئت أن اطبق عليه الأخشبين لفعلت ــ الأخشبان جبلا مكة ــ فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم: (بل أرجو أن يخرج اللّه عز وجل من أصلابهم من يعبد اللّه عز وجل وحده ولا يشرك به شيئا). أرأيت يا طلحة رأفة النبي؟ أرأيت ليونته؟ وهل يكون الا كذلك من قال له ربه: (فَبِمَا رَحمَةٍ مِن اللّه لنتَ لَهُم)، لِن يا طلحة، هذا الدين لين، لا السلاح والقتل المريع..

فقال طلحة بعد صمت وهو يسمع كلام أجود صمت الأموات:

-ولكنهم كفرة!

-وكيف تقول انهم كفرة؟ هل شققت على صدرهم؟

-ماذا تقول أنت يا أجود؟ انظر الى حال الأمة الاسلامية، انظر التدهور، انظر الى الخيانات، انظر لتعاون حكام البلاد الإسلامية مع الكفرة، امريكا واسرائيل وروسيا وفرنسا، هل يجيز الاسلام هذا التعامل.

-أجل.

-ماذا تقول؟ واللّه يقول (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء).

فقال أجود باسما:

-هل سمعت بصلح الحديبية؟

فقال بعد تردد:

-نعم.

-هل تعلم أن النبي صلوات ربي وسلامه عليه قد تصالح مع الكفار وتعاهد على أن يرجعوا هذا العام (عام الحديبية ٦هـ) ويعودوا في العام القادم محرمين لاداء العمرة ولكن بلا سلاح.؟

فقال طلحة متعجبًا:

-النبي فعل هذا؟!

فقال أجود:

-بل سأزيدك علما، طبق النبي صلى اللّٰه عليه وسلم ما أملته قريشٍ من شروط جنحًا الى السلم ورأبًا للصدع وفتحًا للسلم ومغلاقًا للحرب.

-بل تنازل عن أمور تعتبر من هيبة الدولة، عندما أمر عليًا أن يكتب : هذا ما تعاهد عليه رسول اللّٰه .. فقالت مبعوث قريش : لو كنا نشهد أنك رسول اللّٰه ما قاتلناك. فأمر عليًا أن يكتب: محمد بن عبد اللّٰه فحسب، سيدنا عمر اعترض، ورأى ذلك هزيمة وانكسار، ولكن الرسول كان بحكمته تجاوز عجلة عمر، فكان فتحًا، وهي التي انزل اللّٰه فيها (إنا فتحنا لك فتحًا مبينا). يا طلحة، إن هذا الدين يسير فلا تعسروه، سهل فلا تصعبوه.

-١٧-

لما وصل أجود الى بيت علي إبن عمه وقف يرهف السمع، وإذا

بصوت الناي شجيًا، يقطر ألمًا وحزنًا. علي مكروب محزون، يبث شكواه عن طريق الناي، لم يبقَ له متنفسا الا كتبه ونايه، وهما منفذ الحرية الوحيد وسط صخب العالم، صرخة علي الوحيدة وسط عالم السدود والحدود الذي يقطن فيه، لقد ضاق العالم وصغر، وانحصر في هذه القرية.

-لم يبقَ الا الناي يا علي.

فالتفت علي نحوه، وقال وقد فتر ثغره عن بسمة فاترة:

-لو تعلم يا أجود ما في الناي من راحة لي؟ هو حرية، هو روح، ملاذ نلوذ به من صخبهم وصراعهم، للناي أنين وأنا أنفث فيه فينطلق صداعًا في أرجاء القرية، هو صفعة في وجه هذا العالم المتصارع، ألم تسمع وتقرأ قصيدة مولانا الرومي (أنين الناي):

«أنصت الى الناي يحكي حكايته..

ومن ألم الفراق يبث شكايته:

مذ قطعت من الغاب، والرجال

والنساء لأنيني يبكون

أريد صدرًا مِزقًا مِزقًا برّحه الفراق

لأبوح له بألم الاشتياق..

فكل من قطع عن أصله

دائمًا يحن الى زمان وصله..

وهكذا غدوت مطربًا في المحافل

أشدو للسعداء وأنوح للبائسين

وكل يظن أنني له رفيق

ولكن أيًا منهم (السعداء والبائسين) لم

يدرك حقيقة ما أنا فيه»

-قد غدوت صوفيًا يا علي.

-كلٌّ واحدٍ منا صوفي من جهة ما.

-لم اعلم أنك صوفي على قربي منك.

-كيف تفهم التصوف؟ لعلك كعامتهم تظنه سبحة ودروشة وتكايا؟ التصوف أعظم من هذا، بل إن علي عزت بيجوفيتش يرى أن خلوات الرسول الأعظم في غار حراء نوع من التصوف والخلوة الصوفية، إذن التصوف تأمل، معراج بالروح من هذا العالم الموحل بالخطايا، المسربل بالصراع والعراك، الى عالم أسمى وأعلى، حيث لا ذنوب ولا خطايا ولا صخب، هناك ستستريح الروح وترقد آمنة مطمئنة، أنا لا أبث شكواي في الناي عبثًا، انما شكوى..

فقاطعه علي قائلا:

-شكوى ولكن لا تحاسب عليها.

-بالضبط. هنا كل شيء عليه حساب وكتاب، وكأن الجماعة هؤلاء يريدون أن يحاسبونا قبل يوم الحساب!

-يرون أنفسهم خلفاء الله على الأرض، فكل ما يقومون به هو نيابة عن الله، اذن يفعلون ما يفعل الله!

-محض هراء، هم يهرفون بما لا يعرفون، صدقني لو أن نصفهم أو أقل منهم عرفوا الغزالي وابن تيمية وسيد قطب حق المعرفة ما فعلوا نصف الذي يفعلونه. هم لا يعرفون الا

مـا يمليـه عليهـم امراؤهـم، طاعـة عميـاء.

-الان قل لي، لماذا أنت مختفٍ؟

-أين اذهب؟

-دكان تحسين، لم نعد نراك هناك.

-دكان تحسين! ألا ترى ذلك الداعشي الفضولي الذي يجلس؟

-طلحة؟

-أجل.

-طلحـة متفهـم، ليـس مثلهـم، يأخـذ ويـردّ، ويشـدو شـيئًا مـن العلـم، ومـع هـذا صاحـب مكـر ودهـاء.

-ماذا فعل؟

فقال أجود بحزن:

-أسامة، أظنه قد جُرِف معهم!

-كنت أتوقع ذلك، وكذلك أبوه كان يتوقع.

-الكثير من القرية انضموا إليهم.

-مثل من؟

-أبو حازم!

-أبو حازم!!

-أجل، صـار يحمـل بندقيـة، وطالـت لحيتـه وحـف شـاربه، وصـار كأنـه منهـم.

-اللعين.

-هل تعلم يا علي أن كل من لا يُعرف أصله، أو مشكوك بأمه، أو لا يتبع الدين قدر أصبع قبل أن تأتي الدولة الاسلامية صار من رجالها المقدمين؟

فضحك علي ضحكة مجلجلة على غير عادته، إذ الحديث عن مساوئ داعش كان ينفس كربه، ويريح شيئًا من لوعته. وأخرج علبة السكائر وقدم لأجواد. فقال الأخير:

-أتعرف أني لا أدخن.

فقال ضاحكًا:

-أتراه حرامًا؟ ردعتك داعش يا أجود وأنت من أنت فينا؟

-ولكنك تعلم أنني لا أدخن أصلا قبل أن تأتي الدولة، سيحاسبونك يا علي إن علموا أنك تمتلك السكائر.

فقال بلا مبالاة:

-طز! وبعد هذا الذي نحن فيه ماذا يريدون؟

-صحيح، أنى لك هذه السكائر؟

-من تحسين طبعًا.

-تحسين! الدواعش يسرحون ويمرحون عنده ويبيع السكائر؟ ويله إن علموا.

-لا تخف، فتحسين يحب المال، ولن يردعه مثل هؤلاء.

-لن يردعه؟ ليتك شاهدته بعد أن خرج منه أبو قتادة، كان مذعورًا هلعًا. صحيح ألا تخاف من أن يقتحموا عليك البيت ويجدوا هذه الكتب؟

فقال هازئًا:

-الكتب؟ ها ها ها... آخر شيء ممكن تتوقعه من هؤلاء الهمج الهامج أن يفقهوا شيئًا في الكتب، هذه الأمور يا صديقي لي ولأمثالك لا لهم، نحن أمام وحوش، لم تعرف شيئا أو تتعلم، لا، همهم الدمار، السلطة، أما الانسان والإسلام فهما آخر ما يفكرون به، بل هي مطية يمتطونها للوصول الى مآرب وأغراض ينشدونها، هذا الحلم، الخلافة، الدولة الاسلامية التي تعيد أيامنا الأُول قديم جدًا، بعد سقوط الخلافة العثمانية بسنين قلال ظهر حسن البنَّا وأسس الاخوان، ولو سألت أدنى أخواني عن حلم البنا آنذاك لقال لك: الخلافة. بل لعلني لا أبالغ ن قلت لك أن حسن البنا من خلال ما يصفوه لنا من دهاء ومصابرة وما يمتلك من مواهب ربانية كالخطابة، ومع ذلك كله كان لديه حلم جامح، الى أن كون منهم جماعة كبيرة تثير الزوابع والقلاقل، حسن البنا بخياله الجامح كان يريد الخلافة ويكون هو على رأسها، اذن حلم الدولة الإسلامية كان موجودًا عنده، بل حلمه الشغفي، ألم يقل: الإسلام عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، ودين ودولة، وروحانية وعمل، ومصحف وسيف؟ هذا منهجه، ألا يخيل لك يا صديقي أن البنا أراد أن يطوي تحت لوائه كل الفرق والمذاهب؟

-هذا لا يعني أن البنا مهد للدولة الاسلامية.

-بلى.

-لكن الدولة الاسلامية من أعداء الاخوان، بل حتى تنظيم القاعدة.

-أعداء في الظاهر، أما الفكرة فواحدة، الفكرة التي ظهرت على يد داعش أشد تطرفًا، لا تحسب أن داعش وليدة اليوم، أو عقد مضى، بل هي خلاصة حلم الخلافة المنشود، منذ معاهدة لوزان الى الآن، هي النموذج الأكثر نضوجًا وظهورًا.

-يا ابن عمي لا تشطح كثيرا، ارى هذه الكتب قد جننتك، ولم يعد بك عقل، أنت تخلط الأورق خلطًا عجيبًا، بل يدعو أحيانا الى الضحك، تتداخل فيه السذاجة، والغضب، والحقد عليهم، مما جعلك تطلق الفاظًا عبارة عن خليط غريب.

-وهذا الذي تسميه خليطًا هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه.

-دع عنك هذا الكلام وقم وخبئ هذه الكتب.

كانت الكتب عبارة عن أكوام مكدسة في كل أنحاء الغرفة، أنواع منوعة بين كتب الفكر والتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع، وكانت الكتب الموضوعة قريبة منه وفيها إشارات وتهميشات من خلال قراءته: أصل الأنواع لداروين، وكتابان للفيلسوف الالماني هيغل، هذي هي الأغلال لعبد الله القصيمي، وهرطقات لجورج طرابيشي، اضافة الى كتب مكتوبة بالانجليزية، مثل : وهم الإله، نهاية الايمان، الإله ليس عظيمًا، ثورة ضد الاله، نفي اللاهوت. وبينما بدأ أجود يجمع هذه العناوين ليأخذها ويتصرف بها هو حسب قوله، وإذا بالباب يدق دقًا أقل ما يقال أنه عنيف، زوبعة وجلبة، حراك وصياح، فقال أجود: كبسة!!

ولم يلحق أن يتم كلمته وإذا بأبي قتادة ورجاله يقتحمون عليهما الغرفة، كان منظر أجود في تلك الحالة غريبًا؛ يحمل بين يديه أكداسًا من الكتب، وتعلوه علامات الذعر والفزع،

فقـال أبـو قتـادة:

-ما هذه الكتب يا أجود؟

فقال بارتباك:

-كتب.. كتب أدب.

فقال ابو قتادة مرتابًا:

-كتـب أدب!! تعـال لنـرى مـا هـذا الأدب الـذي تتذاكرونـه فـي هـذا الليـل الهانـئ..

فتبـدل وجـه أجـود، وصـار ينطـق بالـوان وتصاويـر، وكان أبـو قتـادة يقـرأ وجـه أجـود قبـل عنـوان الكتـاب، فقـال بهـدوء:

-وهـم الإلـه! نفـي اللاهـوت، هـذي هـي الاغـلال!! أنـت يـا أجـود كمـا يبـدو أشـدُّ كفـرًا مـن أخيـك العسـكري، أكل هـذه الكتـب فـي دولـة الخلافـة؟ وآسـفًا عليـك، خـذوه، لنـرى هـل تؤمـن بهـذه الكتـب فتكـون قـد كفـرت بربـك وبديـن الإسـلام؟ أم قـد آمنـت بمـا فـي هـذه الكتـب وكفـرت بربـك وبديـن الاسـلام وتنشـر هـذه الافـكار بـين عـوام المسـلمين؟

فقال أجود وقد راعه التهم التي وجهها إليه أبو قتادة:

-بـل أنـا مؤمـن موحـد، أشـهد أن لا الـه اللّه وأشـهد أن محمـدا رسـول اللّه..

فجاء صوت من أقصى الحجرة:

-هذه الكتب لي، لا علاقة لأجود بها.

فقال ابو قتادة:

-لا تخـف، سـنأخذك معـه، لتؤنـس وحشـته، وتسـتعدا جيـدًا للمثـول أمـام المحكمـة، وأعدكمـا وعـد صـدق، سـتكونان عبـرة

للناس أجمعين!

فقال علي بصوت مرتجف:

-محاكمة؟

-أجل، محاكمة. هيا خذوهم.

وشحطوهما وسط عياط أم علي.. وقف ابو قتادة أمام البيت وأمامه علي وأجود مكبلان وأم علي تقبل يده وتتوسل، فقال بعد أن لكز أم علي لكزة ابعدتها عنه لمترين:

-فتشوا القرية بيتًا بيتًا، كل الكتب التي تتحدث عن الالحاد والغزل وتدعو الى الفواحش والرذائل أريدها اليوم، واعلموا الأهالي أن غدًا في الساعة العاشر صباحًا عليهم أن يشهدوا حرقها جنب دكان تحسين..

ورموهما في حجرة مظلمة ظلامًا تامًا لا يرى المرء فيها جسده، وأغلق الباب عليهما.

-١٨-

ليس ظلام الحجرة القاتمة بمؤلم، بقدر ظلام النفوس، أن تشعر بنفسك غائبا، تائها، العالم يجري في فلك وأنت في فلك آخر، عندها سيبدو ظلام السجن القاتم باهتًا، بل ضائعًا أمام ظلام الروح، هذه الروح التي تحترق يوميًا بالآهات واللكمات. ابو قتادة لم يصدق أن أجود مؤمن، بل ظن أنه يفر من العقوبة، ولكن أجودَ بقي متشبثًا بموقفه، صلدًا، لم تزحزحه النعوت التي اعتادها: كفرة، مرتدون. فهم لم يثبتوا شيئًا، ويعلم يقينًا أن اقامته في هذا السجن لن تطول، ولكن المشكلة هي علي. وقف أبو قتادة في صباح اليوم التالي ليحقق معه، فقال له:

- أسمك.

علي سالم عباس.

-هذه الكتب التي تحض وتحرض على الإلحاد هي لك؟

-هي كتب فكرية، تدعو الإنسان لتحكيم العقل وتشغيله، والتفكر، حتى نؤمن إيمان الحق لا إيمان التقليد كما تريدون!

-اخرس.. قل لي أتؤمن بما في هذه الكتب؟

-أؤمن في بعضها.

-تؤمن بالله رب العالمين؟

-أي رب؟

-ربك الذي خلقك فسواك فعدلك.

-أؤمن به، ولكن لا أؤمن بدينكم!! بل لا أؤمن بالاله الذي أنتم تدعون له، أنتم تقتلون وتسفكون باسمه، تستبيحون دماءً، تغتصبون نساءً، وتقتلون رجالًا وكهولا باسمه، إن كنت تعني هذا الإله فأنا كافر به! ولا تحسب أني خائف منكم ومن مصاقلكم، فأنا ضحية الفكر الحر!

-والله لنقتلك شر قتلة، ولتموتن أسوء ميتة، ولتكونن عبرة ومثلا، ولن يطيب لي عيش الا أن أرى هذا الرأس محزوزًا، وهذا الجسد معفرًا بدمه.

-هذا دأبكم، وهذا الطغيان ليس عنكم بعيد، منذ زمن بعيد.

علي تحدث كل ذلك مع أبي قتادة بمنتهى الهدوء والثبات، وكأنه كان يرى الموت بين عينيه متجليًا، رآه وهو مقتنع راض بذاك المصير، لعله يريد أن يكون حلاجًا جديدًا، يريد أنّ يبني، أهكذا دأب من ايسوا من طغاتهم يستسلمون للموت

بهذا التسليم؟ علي يريد أن يصنع لنفسه هالة، يريد أن يسير بخبره الركبان. علي اقتنع أن الموت أهون من الحياة، والفناء أجدى من البقاء، هو استعجل ما ستلاقيه القرية فيما بعد من نوائب، لعل القرية لو علمت ما ستؤول إليه لاختارت نهاية تشبه نهاية علي، سريعة، شامخة، ولكن معظم أهل القرية خنعوا وذلوا واستسلموا الى الدولة، يقول علي لأجود بعد أن وبخه الأخير على ما تلفظ به أمام أبي قتادة: (الموت واحد، فلنستعجله، ولنمت بعز مقبلين، خيرا من الموت بذل مدبرين). تُرى ما الذي كان يعنيه علي بنبوءته؟ هل كان يريد للقرية أن تكون بطلة؟ أن تكون مؤمنة بفكرة آمن بها؟ لكن القرية آثرت الخنوع والخضوع، آثرت السلامة على الندامة، يقول علي : (لكن مداهنة التنظيم بحجة السلامة ستغدو غدا ندامة!).



اجتمعت القرية كلها في الساحة جنب دكان تحسين، الوجوه خائفة شاحبة، والمشهد كان مثيرًا للرعب لينبئ بقيامة قادمة للذين يعرفون قيمة الكتاب، أما الجهلاء فكانوا يعدونه مشهدًا عاديًا لأنه لم يكلفهم روحًا أو مالًا، كانت الكتب أكداسًا كبيرة، وضعت بلا ترتيب، منها كتب الغزل، الذي يعدونه أدبًا ماجنًا مثيرا للشهوات والرغبات، ومحرضًا على الرذائل والفواحش، وكتب الإلحاد التي وجدوها، كذلك الاشتراكية والماركسية بل والصوفية حتى، هذه الكتب ــــ كما يرى أبو قتادة ــــ كانت أشد عداءً من دبابات وطائرات التحالف، وأمضى فتكًا من بنادق الجيش.

يقول ابو قتادة وقد أمطر الكتب بقنينتين من البانزين:

هذه كتب الملحدين، سعوا لفساد عقول شبابكم بعد أن عجزوا عن هزمهم عسكريًا، يريدون الطعن والتشكيك في هذا

الديـن، ألا فأعلمـوا أن الدولـة الاسـلامية كمـا قاومـت الكفـرة فـي ارض القتـال سـتقاومهم فـي مجـال الأفـكار، كتـب الالحـاد والكفـر يجـب أن تحـرق... اللّٰه أكبـر..

ثم اضرم النـار فـي الكتب وتصاعدت ألسـنة الدخـان، وسـرعان مـا علـت التكبيـرات المؤيـدة، بـل مـن أهـل القريـة أيضًـا. وبينمـا الكتـب تحتـرق قـال أبـو قتـادة: أمـا الملحـدان اللـذان وجدنـا عندهمـا هـذه فسـينالان عقابهمـا.

كان بيت سـعيد قد انقلب الـى مـأتم، أم علـي التـي تلطـم وتصـرخ وأم أجـود التـي بـدأت تنـدب أجـود وجـواد سـوية: كنـت بواحـد صـرت باثنـين.

فقـال سـعيد بصـوت مسـموع: كفـى، سـأذهب الـى أبـي قتـادة وافهـم الموضـوع.

–لا، هـذا أمـر صعـب جـدًا. أنـت تريدنـي أن أُفـرج عـن كافـر، وهـذا الأمـر نبـه عليـه أميـر المؤمنـين شـخصًيا، فكيـف تريدنـي أن أعصـي أمـر أميـر المؤمنـين؟

فقال سعيد يائسًـا:

–يـا أبـا قتـادة، إن قريتنـا حصـن حصـين ودرع متـين، تتقـي بـه الدولـة الاسـلامية أعداءهـا، ولمـا توسـطت لأجـود أول الأمـر وافقت واطلقت سـراحه، شـراءً لقلبـه، وقلت هـو مكسـب للدولـة ولا تـزر وازرة أخـرى. وكذلـك فـي هـذه القضيـة، أجـود بـريء، والكتـب تعـود لابـن عمـه علـي، وكان فـي زيـارة تفقديـة لـه.

–لا يا أبـا أسـامة، وجدنـا عنـد أجـود أشـياء مخالفـة، ديوان أبـي نـواس، تغـزل بالغلمـان غـزلا ماجنـا يدعـو الـى اللـواط والزنـا، روايـة (أولاد حارتنـا) للكافـر نجيب محفـوظ والتـي يـرى فيهـا أن

الدين والعلم ضدان، كتب غزلية لكاتب اسمه الرافعي، أليس هذا دليلًا كافيًا على فسقه وعصيانه؟ وتأتي وتقول لي لا ذنب له! بل هما مذنبان ويجب محاسبتهما.

فقال سعيد مذعورًا:

-وماذا ستفعلون لهما؟

-نقدمهما للقاضي.

-والقاضي عادة بماذا يحكم؟

-حسب الوضع، أجود قد يعزر، ولكن عليًا عقوبته كبيرة.

-كبيرة!!

فقال ببطء:

-أظنه سيحاسب ويعاقب على إنه مرتد!

فقال سعيد فزعًا هلعًا:

-مرتد! يعني قد يقتل!

-بل سيحتز رأسه حزًا، ويكون عبرة!

-استهدِ بالله!

-هذا شرع الله.

خرج وقد أطبق الهم على صدرِهِ، مرتد! هذه الأمانة التي تركها له أخوه، أهكذا يسلمها للدواعش؟! ولكن ما ذنبه؟ انحرف هو، ليس أنا من قال له، وما يدريني أن هؤلاء سيأتون؟ أمانة أخي سالم التي أودعها وتركنا، عندما رحل وهو يعلم أنه لن يعود، كان يظن أن ولدَه وزوجَه في حرزٍ مصون، ولكنه خضع من أول زعزعة، سامحني يا أخي، فإني

جـزع، لا شـيء فـي يـدي، ولكـن الشـجرة الكبيـرة لا تهزهـا أول ريـح، وهـذه ريـح وسـتزول، سـأمضي الـى ابـي عبـد اللّه، هـو أقـدر علـى مسـاعدتنا. وبينمـا هـو فـي أفـكاره هـذه كان قـد وصـل داره، وإذا بالمرأتـين تأتيـان نحـوه متلهفتـين فزعتـين:

-بشر.

-خير إن شاء اللّه.. اصبرا.

-كيف يعني نصبر؟ ألن يطلق سراحها؟

-لـم يـرضَ أبـو قتـادة، سـأذهب الـى أميـر تكريت لعلـه يقـدر علـى مسـاعدتنا.



تحـت ظـلال أشـجار جامـع تكريـت الكبيـر الكثيفـة الوارفـة أوصـل الملثـمُ المسـلحُ سـعيدًا، جلـس علـى مقاعـد مرتبـة علـى شـكل ديـوان، هـذه المقاعـد تعـود للجامـع، وكان أبـو عبـد اللّه جالسًـا ويقـف عنـده رجـل يصـب المـاء علـى يـده ليتوضـأ، ومـا أن أتم وضـوءه حتـى قـام نحـو سـعيد ولحيتـه الكثـة تقطـر مـاءً، جلـس جنـب سـعيد، وكانـت أمامهمـا منضـدة وعليهـا سـيف، فمسـك أبـو عبـد اللّه السـيف واسـتله ببـطء، فقـال:

-انظـر الـى هـذا السـيف، حـاد صقيـل لمـاع، لـه بهرجـة تسـر الناظـر، ولكنـه حـاد قاطـع، هـذا السـيف اهـداه لـي أميـر المؤمنـين اطـال اللّه بقـاءَه عندمـا بعثنـي علـى رأس الجيـش الفـاتح، كان يمنـي نفسـه بإحـدى الحاضرتـين ، عاصمتـي بنـي العبـاس: بغـداد أو سـامراء. ولكـن هـذا الحلـم الـى الآن لـم يتحقـق، فـي رأيـك يـا سـعيد أيهمـا أنفـع لنـا اسـتراتيجيًا، وفيهـا مكاسـب، وايهمـا أكثـر أهميـة؟

-بغداد طبعا.

-وسامراء؟

-لا اراها مهمة كبغداد.

-ولكن اراها مهمة كبغداد، بل تزيد، لها موقع مهم، موقع ديني وعسكري، الخسائر ستكون أكبر.

-أكبر؟

-أجل، علي الهادي والحسن العسكري، هذان المرقدان المقدسان لو وقعا تحت يدينا لسويناهما مع التراب، ولكن هذا سيثير علينا العالم الاسلامي أجمع، لذلك فيها تكتل عسكري كثيف، ولكن هل تظن إننا نخاف؟ لا، واحد منا يهزم مئة، لكن نخشى القصف، وكذلك المتطوعين الذين سيأتون الى الموت.

-أنتم أعلم.

-ستعود عاصمة الرشيد لنا.

-...

-ما سبب زيارتك يا أبا أسامة؟

فقال بعد تردد:

-علي وأجود ابنا أخي.

-ما بهما؟

-الكتب التي وجدوها عندهم...

-أجل أجل.

-أبا سليمان.. أعدك أن لا يعودا الى هذا الفعل.

-اعذرني يا ابا اسامة، قد انغلق باب الشفاعات، (لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) هذا النص، الدول إذا دخلت فيها الشفاعات فسدت وخربت، اعذرني ولا تسمعني هذا الكلام ثانية!

فقام أبو اسامة متهاديا الى الباب بهدوء.

-١٩-

إذا أردت أن تعزل شعبًا عن العالم فاصنع له مشاكلًا ونوازل داخلية، افرض عليه قانونًا لم يعهده، كبله بضرائب تثقل كاهله، استلب منه حقوقًا، افجعه بفراق من يحب، عندها سينسى الدنيا. وهذا الذي فعله تنظيم الدولة الإسلامية بعد أن سيطر على تلك الأراضي، فبعد أن قطع النت على تلك المناطق كافة وجعلهم يعيشون حياة بدائية فرض قوانينه التي قعدها، وترك الناس مشغولين بتلك التغيرات التي أثقلت كاهلهم، فهذه قرية «لوعة عباس» على صغرها وضيقها بدت كأنها دولة واحدة، لا تعلم ماذا حصل في تكريت أو الموصل أو باقي المناطق، أما المناطق التي خارج سيطرة التنظيم فبدت بعيدة نائية، لم يسمعوا عنهم خبرًا، كلُّ الذي يعرفونه أن الدولة العراقية بل دول العالم أجمع لن يسكتوا على ما حصل، خاصة وأن تنظيم الدولة بدأ يتمدد ويتوسع، فسرعان ما أنتشر انتشار النار في الهشيم، وما دخل قرية الا وقتل جنودها، وقطعها على العالم وطبق قوانينه. عندما كانت القرية مشغولة بهمومها كانت جيوش العالم قد شكلت تحالفًا دوليًا ضد تنظيم الدولة، وأما الدولة العراقية فقد أعادت تنظيم صفوفها المفلولة، بل اتكأت على المرجعية الدينية في النجف،

إذ انطلقت فتوى للتطوع والتحشيد العسكري سعيًا لاستعادة الأراضي المسلوبة، ذلك الجيش الكثيف من المتطوعين الذين دخلوا الحرب بلا خبرة أو تدريب كان مجازفة كبيرة، فعلى ما خسرته الدولة العراقية من أموال طائلة في سبيل التسليح لم يكن أولئك أول الأمر الا فدائيين يدخلون النزال ويحبون الموت كما يحب الغريق الحياة، لم يكن في حسبان التنظيم أن تستعين الدولة بهذا المدد، فلما علم التنظيم ما يعد له من قوى عدةً وعددًا انقلبت تصرفاته، ولم يعد كأول امره، بل زاد في الضغوطات التي فرضها على الناس، واستحدث نظمًا جديدة تنضوي تحتها الضرائب الثقيلة على الناس، وكذلك ضَجَرُ الناس من تلك الحياة القاتمة بدأ يظهر رويدا رويدا، روح التذمر من حياة القنوط والشظف المجبورين عليه لاح في الأفق، فالنساء لا يخرجن الا في الخمار والا لحاجة ماسة، وغالبًا ما يمنعهن أزواجهن، تلك الحرية التي انعدمت للمرأة كانت تثير حالة من اليأس بين الأهالي بل والغضب المكتوم أحيانا والمجهور به أحيانًا أخرى، والرجال فرضت عليهم الأوقات الخمسة بحد السيف حتى الذي لم يصلِّ يومًا صار مقيمًا للصلاة، تلك الصلاة كانت شكلًا لا روحًا، فرضها الخوف والذعر من بطشهم، وكانوا يظنون أن هذه الطريقة ناجعة، ولكنها تضر أكثر مما ستنفع ــــلو نفعتــــ .

التنظيم بدأ يحاسب على الفروع كما ولو كانت أصولا، يتشدد بها أيما تشدد، فبعد أن بُثَّ الهلع في أوصالهم، وصاروا يحسبون كل صيحة أو رصاصة عليهم، مثلا عندما كان جودت ــــالأخ الصغير لأجودــــ يجرب بندقيتهم في الحقل إذ كان شغوفًا بالصيد وهو لمَّا يتجاوز الرابعة عشرة سرعان ما جاء طلحة على بيتهم تفتيشًا وتنقيبًا، فسألهم بحزمٍ عن السلاح،

فقال له: رميت بالكسرية ! وأتى بالكسرية لا البندقية، فقلبها طلحة بيديه ثم تركها. ذلك الخوف كان ينبئ ما كانت به الأيام حبلى من مصائب ونوائب غيرت مجرى تاريخ العراق الحديث، في تلك الايام تصدر العراق نشرات الأخبار، وصار بلد الرعب، كانت أفعال تنظيم الدولة من انتحاريين وزواج بالسبايا التي غنموها وتصفية الخصوم بشكل بشع، أثارت المسلمين قبل غيرهم من الديانات. شهوة التكفير التي كانت تنساب منهم وقتل أهل أبناء مذهبهم من السنة لمجرد المخالفة كانت هي بداية النهاية.. إذ ظن العالم أجمع أن التنظيم جاء لنصرة ابناء مذهبه من الدولة التي همشت هذا المذهب، لكن سرعان ما تبين أن تنظيم الدولة جاء ليقتلع تلك المناطق كلها من أصولها ويشكل لهم عقلية جديدة وتفكير مؤدلج طبقا لما اختاروا، ولكن ما يريدونه يحتاج عمرًا طويلًا، ودولة متينة الأركان، لا متخلخلة متصدعة قائمة بحد السيف. من الأفعال التي كرهت الناس بهم تلك القسوة، ففي القرية لم يكن هناك عدو ظاهر، ولكن عندما وجدوا علبة السكائر عند علي مع الكتب علموا أن في القرية من يبيع السكائر، فوجهت اصابع الاتهام الى تحسين! دخل عليه أبو قتادة مكفهر الوجه ، فقال بحزم: لماذا تبيع السكائر؟ ألم أقل لك اتقِ الله وبع بما يرضيه؟ ولكن طمعك قتلك!! اخرجه .. هيًّا. ثم أخرج تحسين السكائر التي كان يخبئها. فشحطوه وأوقفوه أما الدكان، وانطلق طلحة وجمع الناس ليشهدوا ما سيحكم القاضي على تحسين. لما اجتمع الناس كان كتاب القاضي بين يدي ابي قتادة. فقال لهم: هذا كتاب القاضي في صاحب الدكان، كنا قد نهينا عن بيع السكائر، لكن هذا الدعي المتخاذل الذي خالف شرع الله قد باعها علنا، متحديًا الله والدولة الإسلامية، وعليه حكم

القاضـي بجلده ثلاثـين جلدة علـى رؤوس الأشـهاد ليكـون عبـرة.

واذا بهـم يكبلـوه علـى عامـود قـد نصبـوه لهـذا الشـأن أمـام النـاس، وتقـدم رجـل منهـم وبـدأ يجلـده، وتحسـين يتـأوه .. يئـن.. ويصـرخ .. يعلـن توبتـه وتراجعـه.



مـرّ أحـد عشـر يومًـا وعلـي وأجـود قابعـان في تلـك الغرفـة المظلمـة والضيقـة، التحقيقـات تكـرر يوميًـا، نفـس الأجوبـة، لـم تتغيـر منـذ اليـوم الأول، علـي أصـر علـى أقوالـه والتـي لـم يعلـم أحـد كنههـا أو سـببها، حتـى أجـود الـذي ظـل طـول الوقـت يعلمـه مـاذا يجيـب، وأنـه مؤمـن موحـد، لكـن عليًـا بقـي علـى موقفـه، وأجـود بقـي علـى ايمانـه وتوحيـده. فـي هـذه الغرفـة المظلمـة تعلمـوا أشـياءً وأشـياء، الخلـوة مرحلـة تصفيـة الذهـن، الانعـزال فرصـة لمراجعـة مـا سـبق، فـي ذاك الظـلام الدامـس أشـرقت أفـكارًا لمواجهـة مـد التنظيـم، لـم يكـن لـدى الأهالـي سـلاحًا ليواجهـوا بـه خصمًـا لـدودًا عنيـدًا بحجـم التنظيـم، لكنهـم خططـوا لمواجهـة الأفـكار، (علـى الأهالـي أن يرفضـوا التنظيـم فـي أعماقهـم)، هكـذا قـال علـي لأجـود، ثـم تابـع: (إن انتظرنـا الـى أن يأتـي الجيـش ويحررنـا فسـننتهي قبـل أن يأتـي، سـنكون هبـاءً، علينـا أن نحـرر العقـول والنفـوس، أن نشـيع بـين النـاس مـا تفعلـه داعـش مـن قتـل وفتـك، بـل تجعـل قضيتـي شـرارة الانطـلاق)!! لـم يستسـغ أجـود افـكار علـي التـي بـدت لـه مجنونـة ومتهـورة تشـبه اعترافاتـه...

-تريـد أن توردنـا التهلكـة، تريدنـا أن نمضـي سـريعًا الـى المـوت؟! تريدنـا أن نلحـق بـك

-المـوت هـو طريـق الحيـاة الآمنـة، علينـا أن نمـوت نحـن القلـة لتحيـا الكثـرة.

-ولكننا نحن القلة نحب الحياة يا علي.

-إن لم يضح بعضنا فسنموت كلنا! اختر الموت في سبيل حياة الآخرين. ماَ معنى أن نموت؟ فكلنا سنموت..

فقال أجود عندما تجلى له الموت في خياله:

-أمي..

-ما لها؟

-ولدان تخسرهما في عام واحد؟

-افضل من خسارة الثلاثة!

-أنت قاسٍ يا علي، غدوت بلا قلب.

-...!!

كانت أفكار علي في ذلك الحين تعتبر طائشة متهورة، من ذا الذي يستطيع أن ينبس ببنت شفة ضد الدولة؟ هذا الجنون بعينه، ورأى أجود أن مصدر تلك الأفكار هي نظرته السوداوية للتنظيم لدرجة أن يطالبه بأن يكافحهم فكريًا، ولكن لما طال عليه الأمد في تلك الغرفة المظلمة وظن أنه من الممكن أن يكون مصيره مصير علي والتهمة نفسها راجع نفسه كثيرًا.

-٢٠-

يمشي مكدودًا منهكًا، يذرع القرية نحو بيته بتؤدة، الى متى وهو على هذا الحال؟ التنظيم لن يتركه على حاله، خاصة

وما تحيط به من شبه وتهم، بل هو أكثر شاب بالقرية عليه علامات استفهام، إن نجا من تهمة أنه مرتد لأن أخاه عسكري فلن ينجو من تهمة (مرتد) بسبب الكتب التي تحرض على الالحاد، هم لم يجدوا عنده كتبًا ذات بال، ولكن على أيِّ حال هو خرج وعليه أن لا يعود، وصل الى بيته، وقبل أن يدخل وكان الجو هادئًا بعد صلاة العشاء نظر الى التلة.. تلك التلة التي نُسجت حولها الاساطير والحكايات التي سمعها من جدته حمدية، وسمعها كذلك بعد أن صقلتها الألسنة بمبالغات وما يطرأ على مثل تلك الحكايات، قيل أن عباسا جلس هناك ينتظر أباه عليًا أن يعود من الحرب، هناك مات عباس بحسرته، تلك التلة كانت النعيم أول الأمر ثم غدت جحيمًا.. تقدم أجود نحوها وصعدها وأطل على الحقول.. كانت تقول له جدته: (هذه التلة كانت جنة رحبة، عندما يجلس بها جدك ــــ ولم تكن الأراضي حولها بهذا الاتساع ــــ بعد أن يعود من العمل يسمع صوت خرير الساجية التي شقها لتخترق جنتنا هذه، فكان يضع رأسه في حجري ويغفو، كانت جنة حقيقة، فلما رحل أبوك الى الحرب ووضعوه على الخطوط الأمامية اعتزل جدك، لأنه لم يسمع نصحي ويهرّب أباك الى العمارة عند أخوالي، فبقي معتزلًا الناس متحسرًا نادمًا الى أن مات). ولكن أباه عاد، ونسجت الحكايات حول عودته الأسطورية. نظر أجود الى الأراضي التي بدت صامتة صمت الأموات، حيث لا روح سارية فيها، ولا ساجية دافقة، وبدت مهجورة، كلُّ شيءٍ ينبئ بفناء قادم، حتى الأرض بدت حزينة كسيفة، أليس فيها روح؟ هي مثلنا، بل هي التي فدوها بدمهم لأجل أن تبقى، الأرض الحانية التي تدر عليهم أموالًا ورزقًا وفيرًا بدت خاوية كأعجاز النخل، مقفرة كالطلل، ولكن بلا شاعر

يحـن إليهـا أو يدبـج فيهـا القصائـد، ولكنـه يملـك مشـاعر لـم يملكهـا ألـف شـاعر، يملـك حزنًـا يكفيهـا، حتـى الأرض تطلـب مـن يندبهـا فهـي التـي أكلـوا مـن خيرهـا، وغنـوا مـن ثمرهـا، الآن وهـو ينظـر الـى الحقـول الخاويـة تضاعـف حزنـه وألمـه وأدرك أن المصيبـة أكبـر مـن أن تحتمـل، والان لـم يبـقَ أحـد عندهـا، فالـزرع بـار سـوقه وكسـد، وهـو أكوام مكدسـة، باعـوه بربـع ثمنـه، بـل وزعـوا أكثـره مجانًـا ووهبـوا للتنظيـم الكثيـر. مـن تلـك الطلـة شـعر بمـرارة الواقـع.. أدرك الشـرخ الكبيـر بـين الواقـع والحلـم الـذي غـدا وهمًـا، وهـذا الواقـع المريـر سـيفرض نفسـه بعـد كل تلـك الآم التـي عانينـا منهـا فـي سـبيل دحـض الواقـع. تحسـر أجـود بعـد أن اعتلجـت فيـه الذكريـات وهاجـت هيجـان الدمـع فـي عـين الثكلـى ثـم أخـذ ينشـج بصـوت عـالٍ، يقـوم وبعيـون دامعـة يحـاول أن يرتـب الوضـع الجديـد، الذكريـات الطافحـة، وفجـأة جاءتـه فكـرة السـير وسـط الحقـول فـي الظـلام.. ينـزل مـن التلـة مكمـودًا مثقـلًا بالحـزن وينطلـق راكضًـا وسـط الحقـول وقـد داهمـه الحنـين الـى أيّـام الصبـا، يـوم كانـت هـذه الأرض عامـرة دائبـة الحركـة ليلَ نهـار، يـوم كان هـو وابنـاء عمـه يأكلـون ويمرحـون فرحـين، حتـى جدتـه حمديـة وهـي تسـب أمهـم وتلعـن تربيتهـا يحـن إليهـا، حتـى تقريـع جدتـه لـه وسـب أبويـه أمامـه كان جميـلًا، الآن كل شـيء متناثـر ضائـع، كتطايـر الشـظايا، حمديـة وأبـوه رحـلا، وجـواد فـي غياهـب الغيـاب، وعلـي سـيعدم إن لـم يتحركـوا، وأسـامة؛ تُـرى أيـن هـو؟ مـا أخبـاره منـذ زمـن بعيـد لـم يسـمع عنـه بـل عمـه سـعيد أيـن؟ لـم يـزره كمـا زاره مـن قبـل أو حتـى تحـدث مـع أبـي سـليمان ـــ وهـو ابـو عبـد الله النجـدي أميـر تكريتـــ علـى مـا بينهمـا مـن علاقـة سـطحية! وبينمـا هـو فـي ذلـك الخاطـر وقـد انهمـرت عليـه الذكريـات تباعًـا وانشـغل

عـن حنينـه للصبـا بـذاك الخاطـر، لعلهـم نزحـوا كمـا كانـوا يريـدون؟ ولكـن رأى قبـل قليـل وهـو قـادم أضـواء باهتـة تضـيء بيتهـم.. وفجـأة سـمع حركـة وسـط الظـلام، لـم يـبن مـا هـو، فقـد كان بعيـدًا .. كأن حجـرًا ارتطـم فـي قـاع البئـر وغـار ولـم يعـد هنـاك صـوت، أرهـف السـمع جيـدًا وإذا بتلـك الاصـوات تقتـرب وإذا بهـا جلبـة وحركـة، وسـرعان مـا انبطـح أجـود واختبـئ وسـط الحشـيش، وإذا هـو يلمـح رجـالًا ويحملـون أضـواءً ينيـرون دربهـم، وإذا بهـم يتقدمـون نحـوه، وسـرعان مـا نـادى احدهـم: أخـرج وإلا طشـرت رأسـك! هـم جنـود التنظيـم فـي دورتهـم الليلـة وقـد راعهـم تلـك الحركـة، فقـام رافعًـا يديـه مستسـلمًا وقائـلًا: أنـا صاحـب هـذه الأرض. فجـاءه صـوت أجـش: ألا تعلـم أن الخـروج بعـد العشـاء ممنـوع؟! مـاذا يقـول لـه؟ هـل يقـول لهـم هـو مسـجون وقـد خـرج تـوًا مـن سـجنهم فيثيـر شـبهًا عليـه وفـي نفوسـهم رعبًـا، وقـد يعتقلونـه مجـددًا ويقضـي أيامًـا أخـرى فـي السـجن؟ أم يقـول لهـم أن الحنـين داهمـه وأضرمـت نـار الذكـرى فـي فؤاده؟ ولكـن أنّـى لهـم أن يفقهـوا لغـة الحنـين ونارهـا، ولكـن أليسـوا بشـرًا مثلنـا يحنـون كمـا نحـن ويشـتاقون كمـا نشـتاق ومعظمهـم جـاء مـن بـلاد بعيـد تاركـين خلفهـم أهـلا كمـا حكـى لهـم طلحـة؟ ولـم يقطـع تلـك التسـاؤلات وينقـذه مـن مـرارة المخالفـة بخروجـه بعـد العشـاء الا ذلـك الصـوت التـي ألفتـه أذنـاه:

-أجود.. أنت هنا!

وتقـدم صاحـب ذلـك الصـوت نحـوه وقـد أزاح لثامـه ووضـع بندقيتـه علـى ظهـره وسـرعان مـا حضـن أجـود بشـوق، فقـال أجـود ذاهـلًا:

-أسـامة..!!

-متى خرجت من السجن؟

فقال بعد بلع ريقه بصعوبة:

-منذ قليل.

فاتجه أسامة نحو المسلحين وقال:

-هذا عِرف، ابن عمي، سأتحدث معه وألحقكم.

وما أن ذهبوا حتى قال أجود بانفعال ممزوج بحزن:

-ما هذا يا أسامة؟ أنت معهم! صرت داعشيا؟؟ لِم يا أسامة هل نسيت الوعود التي قطعتها لأبيك أن لا تنظم إليهم؟ لمَ انزلقت في هذا الدرب الوعر، ألا تعلم أن هذا الدرب زلق لا مخرج منه إلا الى السجن أو القبر..؟

فأشاح بوجهه عنه، وقال مقرًا:

-اعلم أن هذا الدرب لا مرد منه، أما النصر أو السجن والقبر، لكنه طريق الحق.. طريق اللّه .. هو طويل ولكنه الطريق الوحيد للخلاص المنشود، والحياةِ التي ارادها اللّه.

-هذا غير صحيح، لم يكن طريق القتل والسفك طريق الحق والخلاص، ولم تبنَ أمة كما تفكر أنت.

-بل بنيت، بل كلّ حضارة لا تبنى دون دماء مهدرة تسقي الحضارة الجديدة، أي مجد لم يعمر دون الدماء التي تهدر لتحيا البقية الباقية، وهذا ما يفعله التنظيم، ثم هم لم يفعلوا شيئًا أو يبدعوا منكرًا، وكل أرض دخلوها وسكنوها خيروهم بين البقاء تحت حماية الدولة الاسلامية والجهاد معها أو الخروج والنزوح، لم انظم الا بعد أن رأيت عملهم، فوجدتهم يعرفون الدين أكثر منا، عُبادٌ، إذا جن الليل رأيتهم صدعوا

بالقرآن متهجدين، لا أن يقضوا ليلهم بين عد المال بالنسبة لكبارنا، أو في محادثة الفتيات بالنسبة لشبابنا، نحن لم يبقَ لنا شيء من الدين إلا الاسم في الهوية. يا أجود أما آن وقت توبتك؟ أما آن لك العودة الى اللّه والالتحاق بصفوف المجاهدين. العمر قصير، والموت آتٍ، فمُت على الايمان مجاهدا لا ناكصًا قاعدًا.

فقال أجود هازئًا:

-تريدني أن أموت معكم؟

-يا أجود لا تحرص على الحياة، فكل من غلب حبه للحياة ايمانَه أحنى رأسه بذل وأمضى وثيقة الكفر! حُبّ الحياة عار!

فقال أجود مداريًا خيبته بسخرية لاذعة:

-كبرت واللّه يا أسامة وصرت تكفر الناس كما تشاء وتبت بالفتاوى وكأنك أمام مجتهد أتقن الاصول والفروع وسائر العلوم النقلية والعقلية، بارك اللّه فيك يا شيخ أسامة.

فقال أسامة محتملا سخريته وعالمًا ما بداخله:

-لدينا نصوص الكتاب وما شأننا بالعقل؟!

-ما شأننا بالعقل!

-يا أخي عندنا كتاب اللّه الخالق، فما لنا بالمخلوق؟ ثب الى رشدك يا أخي وتب إليه.

فابتسم بفتور:

-أنسيت ما فعلوا بعلي وبي؟

-علي كافر، ألم يقر بكفره وإلحاده؟ وما جزاء المرتد الا أن

يقتـل؟

-تغيـرت كثيـرًا، هـل نسـيت عليًـا ابـن عمنـا وهـو يلعب معنـا هنـا، فـي هـذه الحقـول غيـر عابئـين بصرخـات جدتنـا حمديـة؟ وهـل نسـيت أنـه أمانـة عمنـا سـالم الـذي خـرج الـى الفلوجـة وقاتـل العـدو بضـراوة ولـم يبـالِ بروحـه لأنـه كان يظـن أنـه تـرك زوجـه وولـده عنـد أمنـاء سـيرعونهما .. واسـفا عليـك .. واسـفا، لـم أظنـك جاهـلًا الـى هـذا الحـد.

إنه الإسلام يا أجود .. الإسلام.

قـال كلمتـه هـذا وتـرك أجـود وراح يتهـادى نحـو صحبـه، أمـا أجـود فشـعر فـي تلـك اللحظـة تفاهـة الحيـاة، وأدرك تمامـا صحـة مـا كان يقولـه لـه علـي فـي السـجن: (علينـا أن نحـارب داعـش فكريًـا طالمـا عجزنـا عـن محاربتهـم بالسـلاح، لا سـلاح لدينـا ولكـن لدينـا عقـل، علـى الأهالـي أن يرفضـوا داعشـا.. يقتلعوهـم مـن عقولهـم، فـإذا اقتلعوهـم سـهل التحريـر عندمـا يأتـي الجيـش.)

تلـك الكلمـات صـارت تطـوف فـي اذنـه، يتـردد صداهـا فيـه، يلمحهـا وهـو يجتـاز الحقـل صاعـدًا التلـة، بـل يراهـا مجسـدة فـي أعلـى التلـة، مـكان عبـاس وهـو ينتظـر ولـده أن يعـود مـن الحـرب، يرفـع راسـه الـى النخـلات المتعانقـات ويلمـح النجـوم المضـاءة فـي صفحـة السـماء وتـزول كل سـكرة وتبقـى الفكـرة، وخسـرت القريـة أسـامة، الفتـى الـذي كفـرت بـه القريـة مـن قبـل فعـاد ليكفرهـم، ليصـب عليهـم غضبـه وسـخطه المتراكـم والجاثـم علـى صـدره.

-٢١-

(الإنسـان إذا تخطّـى الخـوف فقـد تخطّـى الخطـر.) اسـتحضر

أجـود كلمـة محمـد أسـد هـذه التـي قرأهـا فـي (الطريـق الـى مكـة) وهـو يركـب سـيارة الحمـل مـع العـم محجـوب ذاهبـين الـى تكريـت لبيـع تلـك الثمـار، والحـق أن أجـود تحجـج فـي بيـع الثمـر حجـة ليذهـب الـى تكريـت، أمـا الغايـة فكانـت لغيـر ذلـك، رحلتـه هـي محاولـة لصنـع شـيء مـن التغييـر ولـو قليـلا لمـا آلـت إليـه القريـة مـن حالـة كسيفة. القرية التـي كانـت مـآل الأغنيـاء والأثريـاء قـد غـدت الآن أرض الخـوف والفـزع، كيـف لا وأميـر تكريـت والـذراع الأيمـن للخليفـة يقطـن فيهـا؟ كانـت القريـة قبـل عقديـن أشـبه مـا تكـون بـأرض كنـز لكثـرة مـا نسـجت حولهـا مـن حكايـات، فمـن تلـك الأمـور التـي كانـوا يتداولونهـا: مـن يدخـل القريـة يطـول عمـره! مـن يعـش فيهـا لا يمـوت قبـل السـبعين! أصبحـت القريـة مـلاذ الباحثـين عـن الخلـود، الكارهـين للمـوت، فهـذا الحـاج سـعود الطامـع الجشـع لـم يدفـع لسـعيد مئتـي مليـون لأجـل تلـك الأرض ولأجـل أن يضـع فلاحًـا ويبنـي بيتًـا، لا، بـل لأنهـا تدفـع المـوت عنـه، ذلـك الاعتقـاد السـائد جعـل الكثيـر مـن المتدينـين يقولـون أنهـا أرض الشـياطين ومـأوى الجـن ومقـام السـحرة، ممـا دفـع الكثيـر مـن المتطفلـين لزيارتهـا، ولكـن سـعيدًا كان حصيفًـا بمـا يكفـي ليـرد أولئـك المتطفلـين فـكان يطلـب مبالـغ باهظـة لأراضيـه مهمـا صغـرت وهـذا أحـد مـوارد ثروتـه العظيمـة، كانـت السـكن بهـا حلمـا لا يلقـاه الا ذو المـال العظيـم، بعضهـم مـن غالـى وعلـل سـبب هـذه الهالـة للقريـة بـأن عبـاس جدهـم طفـل مبـارك، جـاء بـه الخضـر ــ عليـه السـلام ــ الـى علـي الهـادي فـي ليلـة مباركـة قيـل إنهـا ليلـة القـدر وقيـل إنهـا ليلـة الاسـراء والمعـراج، وقيـل أن الحـاج صبحـي دعـا ربـه بمعجـزة تعوضـه فقـد ولـده الشـهيد، فـكان عبـاس، سـليل التقـوى والأوليـاء، بـل منهـم مـن قـال أنـه سـليل آل البيـت الأطهـار، ونتيجـة هـذا كلـه أحاطـت

بالقرية قدسية وهالة وصارت «أرض العجائب» وهذا الذي جعل الناس بعد التحرير عام ٦١٠٢ يقذفون التنظيم باتهامات منها أن التنظيم أراد التخلص منها لأن روح عباس بقيت تحوم حولهم وتلعنهم .. ولم يقف الأمر عند هذا الحد؛ بل عقد الناس صلة بين قدسية القرية وعجائبها الواردة في الحكايات وبين مسكن أبي عبد اللّه النجدي القابع فيها.

–من أين أتيت والى أين تذهب؟ (سأل الملثم على باب تكريت).

فأجاب العم محجوب:

–من قرية لوعة عباس، أنا سائق أجرة أحمل ثمر هذا الرجل (وأشار الى أجود) الذي يريد بيعه في الداخل.

ونظر الى الثمر وقلب فيه، ثم نظر الى أجود بارتياب وعدم ارتياح، فطلب منه هويته، أخذها وذهب يدققها على الحاسوب، ولتدقيقهم غاية، فهذه الحواسيب هي تابعة لسيطرات الجيش العراقي استولى عليها التنظيم، وعندما يدققون يعني انهم يبحثون في أسماء رجال الجيش والشرطة وكافة الموظفين، فإن كان عسكريًا فهو الكافر أو المرتد الذي يجب قتله، قد يعدموه فورًا واحيانا ينتظرون أمر الأمير، وإن كان موظفًا فحسب الوظيفة يكون حسابه، فإن كانت الوظيفة عادية كأن يكون معلمًا أو كاتبًا حذروه وطلبوا منه الانفكاك من وظيفته، وإن كان موظفًا وظيفة مرموقة كأن يكون مدير عام اعتقلوه وشددوا عليه التعليمات وقد يسجنونه أيامًا قلالا أو كثيرة حسب نظرة القاضي والأمير وقد يكون الخليفة نفسه. عاد الملثم وقال: ستبقى الهوية عندنا، عندما تعود تأخذها، ويجب أن تخرج قبل الغروب من تكريت! انطلقت سيارتهم

داخل تكريت وقد استشاط أجود والعم محجوب غضبًا، العم محجوب هو الأخير قد لاقى ما لاقى من التنظيم، ولده الوحيد عسكري، قُتل قبل أربعة أشهر أول ما دخلوا تكريت، أوقفوه مع صحبه الذين يزيدون على عشرة على حافة النهر مقيدين، كبروا وامطروهم بالرصاص وسقطوا في النهر، وجدوهم بعد عشرة أيام طائفين في منطقة بعيدة، اضطر العم محجوب أن يقوم من كبوته، ويعود لعمله في السيارة، فمعيله الوحيد قد رحل، عليه أن يعمل ليطعم بناته، يحمل حقدًا دفينا على التنظيم، لما أعلمه أجود بغايته التي يسعى إليها ـــ وكانت مخاطرة كبيرة منه ـــ صفق طربًا، وقال: الحمد لله أن هناك من يكفر بهم. الاتفاق أن ينزله في الحي الذي ينوي التوجه إليه، ويغطي هو مكانه بالذهاب الى السوق وبيع المحصول. نزل أجود في شارع يفضي الى فروع تضيق تارة وتتسع، دخل احد فروعه الضيقة ثم مشى الى آخره الى وصل الى بيت صغير عتيق، كان السكون يلف المكان، الشوارع والأزقة شبه خالية، كثير من أهلها نزحوا الى الشمال أو الى تركيا، وقلة منهم من ركب مراكب الموت ليصل الى أوربا، وقد يموت أو يصل بعد تلك الرحلة الشاقة، لكن غالبية الذين نزحوا الى كردستان أو تركيا كانوا من ميسوري الحال، أما فقراؤهم فقد بقوا على ما هم عليه، وهؤلاء القلة الذي يمشون في الشارع هم من رجال التنظيم أو الذين انضموا من الأهالي لهم، أما الذين بقوا محافظين على فكرهم من خطر التنظيم فيظلون قابعين في بيوتاتهم ينتظرون فرج الله.

فتحِ الباب شيخ ملتح يكسوه وقار مبكر، فعلى الرغم إنه لم يتخطَ الرابعة والأربعيِّن إلا أن الشيب تمكن منه واستوطن.

-كبرت يا شيخ خليل سريعًا.

ففتر ثغره عن بسمة ساحرة زادته ألقًا وحسنًا:

-الهموم التي نحملها يا أجود تجعل الولدان شيبًا.

ثم حضنه وهو يقول:

-السلام عليكم يا شيخي الحبيب.

-وعليك السلام يا ولدي الحبيب.

وأخذه الى الغرفة وهو يمطره بكلمات الترحاب، بدت الغرفة عتيقة فلما فتحها إذا بها غرفة من الكتب، لا يبان منها جدار أو طلاء، فقط فرش بسيطة ولكنها مصفوفة بعناية فائقة للجلوس على بساطتها.

-خمسة أشهر لم أرك فكأنها خمس سنين، كبرت سريعا يا شيخي.

-الهموم أثقل ما حملته النفس، تجعل الجبابرة يخرون ويضعفون، فما بالك برجل واهن القوى مثلي.

-ما زلت شابًا.

فقال الشيخ جادًا:

-ما أخباركم؟

-لسنا على ما يرام، أخي جواد فُقِد، ولم اعد اعرف عنه شيئًا، في سبايكر مع الذين فقدوا، عثروا قبل فترة على مقبرة جماعية قيل لرجال من سبايكر لكن لم يكن منهم، وابن عمي أسامة صار مع داعش!

فقال باسمًا:

-توقعت هذا الشيء.

-وابن عمي علي في سجنهم، سيحاكمونه على أنه مرتد كافر!

-....!!

-يا شيخ، نحن أمام عدو متمرس، شرٌّ متدفق كالسيل العرم، لا يرى الا إياه، قد ساء الحال، واضطربت معيشتنا، وقريتنا مهددة بطيران التحالف أو جيش التحرير.

-وأنت ما أخبارك؟ ألم تخرج؟

-أنا باقٍ هنا، قلت أزمة قصيرة وتمضي، لكن العدو جثم على صدورنا، وصار يحسب علينا الهواء، انقطع الراتب الذي أعيش عليه، عندي ما ادخرته وأصرف منه، ولكن لم أخرج، كثير من المشايخ والأخوة قد استقروا في اربيل وتركيا، خرجوا من هذا القاع، المشكلة أن التنظيم يرانا شيوخ سلطان وزور وبهتان، وغدًا ستراها الدولة شيوخ التنظيم، لن نرتاح.

-لماذا لا تخرج؟

-إذا خرجت فمن سيبقى هنا؟ هؤلاء يغزون عقول شبابنا، يملأون رؤوسهم بأفكارهم المعتوهة، وبفهمهم المبتور للنصوص، وغدا إذا تحررت الأرض من يعيد التوازن، أنا هنا كي أحد من موجة التطرف التي تغزو شبابنا، صدقني هم مغرر بهم، بكلمة يقتنعون وبكلمة أخرى يكفرون.

-وهذا الذي أتى بي إليك. يا شيخ متى تقاومون داعش؟

-كيف نقاومهم؟

بدت له هذه الكلمة غريبة غير مألوفة، لم تفق الناس بعد من الصدمة الأولى، إن هي الا أشهر معدودات ولمّا يستقر

بعد الوضع، وكانت الناس أجمع تنتظر الدولة والتحالف أن يحرروهم لتعود الحياة هادئة هانئة ثم يفكروا في بناء ما تهدم.

-مقاومة أفكارهم يا شيخ، أنت تريد ذلك ولكنك لم تخطُ خطوة البدء، لنبدأ، نوزع منشورات، نشيع بين الذين نعرفهم، نبين لهم حكم اتباعهم، نبين لهم أنهم عاصفة هوجاء ستزول.

-أنا معك في كل الذي قلته.

-لنبدأ العمل.

-من أين نبدأ؟

-تكتب أنت لنا مقالات وعظات، نطبعها ونوزعها سرًا، نفتح أعين الناس عندما حاولت الدولة الاسلامية أن تحجب ذلك الوجه الأسود عنهم... الموصل بدأت تتحرك، علمت أن كاتبًا نشر كتابا وزعه كتبيٌ شجاع مئة نسخة وأعتقله التنظيم ولم يعرف مصيره بعد، الكتاب عنوانه (عائدون يا عتيق).. الموصل تحركت ونحن قاعدون؟

-عندك لابتوب؟

-أجل.

-جهاز استنساخ وورق؟

-لا.

-عندي ورق وجهاز استنساخ، وعندي صديق يمتلك مطبعة اعلانات قد يساعدنا.

ثم قام وأخرج من بين الكتب المتراكمة ورقة بدت سوداء ولكن بعد أن أمعن النظر بدت مملوءة ومخبئة بين الورق خوفًا من

عمليات التفتيش المباغتة، ثم أحضر جهازَ استنساخ صغير.
فقال له:

-اطبع ووزع.

-تمام.

-وتعال كل ما طبعت ووزعت لتأخذ ورقة أخرى.



كان العم محجوب في السوق يذرعه جيئة وذهابًا بعد أن باع الثمر بثمن بخس، كان السوق رائجًا، اللحى الكثيفة للأهالي بدت منظرًا مألوفًا ومعتادًا، وكذلك رجال التنظيم وهم مسلحون مستعدون للعراك في كل لحظة، كل شيء هادئ ولم يستفز العم محجوب الذي كان سريع الغضب، وقف جنب بائع البرتقال، وإذا برجلٍ عجوز بان أنه خليع وضيع صعلوك، ولكنه تاب على يد التّنظيم، بل قل الخوف هو من جعله يتوب، وقف يشكر أحد رجال التنظيم ويصف له كيف فض بكارة أربع سبايا في ليلة واحدة والآخر يضحك: بدأن يتصايحن .. وبعضهن يضحك .. وإذا بأربعتهن ما زلن عذارى، فمسكت الأولى..

واستشاط غضب العم محجوب، وفكر أن يمسك هذا العجوز ويهشم راسه ويفقأ عينه، وبينما تلك الفكرة قد سيطرت عليه وهم بفعلها وهو يكاد ينفجر.. إذا بيد حانية توضع على كتفه: عم محجوب هيا. كان أجود وقد رأى هذا الموقف وتداركه.

وخرجا من تكريت قبيل الغروب، كان أجود يرمق الحقول في تلك اللحظة وهو غارق في أفكاره، ما فعله هو ما يتوجب على

كل واحد منهم، هو يقظة مبكرة من سبات الخنوع والخضوع لسوط الطغاة والغزاة. وصل الى القرية، رأى تحسين يجلس على باب الدكان ويعلوه كرب، كأن وجهه قد قُد من الشجن!

-٢٢-

كان أجود منهكًا في طبع الورقة التي أخذها من شيخ خليل، يعمل دائبًا كأن لا هم له سواها، ذلك الهدوء الرتيب الذي ساد القرية في ظل الخلافة المزعومة لدرجة أن دفع أجود وأترابه للتفكير في محاربة التنظيم. لم يكن يعلم أن عاصفة هوجاء قد لاحت في الأفق، كان يظن أن الحد سيقف عند اعتقاله أو اقصائه، لم يكن يعلم أن للتنظيم دهاليز وممرات يدخل لهم فيها، كان أسيفًا حد الاطمئنان لعدوه. عندما هم بقراءة الورقة راعه أول نص بعد حمد اللّه:

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه: (إذا رأيتم الرايات السود فالزموا الأرض، فلا تحركوا أيديكم ولا أرجلكم، ثم يظهر قوم ضعفاء لا يؤبه لهم، قلوبهم كزبر الحديد، هم أصحاب الدولة، لا يفون بعهد ولا ميثاق، يدعون الى الحق وليسوا من أهله، أسماؤهم الكنى، ونسبتهم القرى، وشعورهم مرخاة كشعور النساء، حتى يختلفوا فيما بينهم ثم يؤتي اللّه الحق من يشاء). هاله ما قرأ، أيعقل أن الشيخ خليل وصل به الحد الى أن يجترأ أن يكتب هذه الأحاديث؟ لمَ لا أليس هو وأخوته كانوا أول من حمل السلاح ضد تنظيم القاعدة؟ كان هذا جل تفكير أجود وهمه.



وصل ابو قتادة هو ورهطه الى بيت سعيد، دق الباب، فخرج سعيد وإذا به شاحب الوجه كثيف اللحية، قد زادت لحيته من بؤسه وحاله المهزول، أين سعيد ذلك الجبار الذي يمتلك الملايين التي لا تحصى والأراضي التي لا تكاد تعرف؟ أين معرض سياراته الفارهة؟ معرضه قد ضربته الطائرة الأمريكية لأن جنود التنظيم كانت مسيطرة عليه فغدا رَّمادًا تذره الريح، وكل الذين يطلبهم قد هربوا أو أفلسوا، والقرية صارت أرض الخوف والفزع، وذكر اسمها فحسب يثير الرعب والهلع، فمنها تصدر قرارات مصيرية لهذه الأراضي الشاسعة، وزاد من بؤس سعيد أسامة الذي انخرط في صفوهم، وكم عانى منه وحاول أن يقنعه بأن يحيد عن هذا القرار لكن عبثًا، جاءه في صباح ذلك اليوم الخريفي حيث الأوراق تساقطت من شجرها كتساقط المدن من الحكومة العراقية، فقال أسامة مباشرة:

-سأنضم الى الدولة الاسلامية، وسأكون جنديًا من جنودها!

فقام سعيد فزعًا:

-أين تنضم؟

-الى الدولة الإسلامية، الجهاد يا أبتاه!

في تلك اللحظة شعر سعيد أن ألأرض تدور به، لم يَعد يعي شيء، هل يعقل؟ ألم يعده ان لا ينظم إليهم؟ ألم يعده أن يكون مطيعًا ويهاجر معه عندما تحصل فرصة للخروج، كيف خان العهد؟ فقال سعيد مداريًا خيبته وحسرته:

-ألم تعدني ألا تنضم؟

-الحق يا أبتِ، جاء الحق وزهق الباطل، فلم التراخي والتكاسل في نصرة الحق؟! وأنت يا أبتِ انصحك أن تدعم

الدولـة الإسـلامية وأن تنفـق مـا تقـدر عليـه مـن مـال وسـلاح، وخيـرك كثيـر!

فقال سعيد بيأس:

-تريـد أن تذهـب وأنـت فلـذة كبـدي وتأخـذ مالـي! المال والولـد معًـا!

-لا تفكـر بالدنيـا ومتاعهـا، فإنـه زائـل، «الدنيـا كلهـا قليـل، والـذي بقـي منهـا فـي جنـب الماضـي قليـل، والـذي لـك مـن الباقـي قليـل، ولـم يبـقَ مـن قليلـك إلا القليـل».

فقال سعيد باستسلام:

-اطع أباك ولا تكابر، أليست طاعتي فرض؟!

-﴿وَإِن جَاهَـدَاكَ عَلَـى أن تُشـرِكَ بـِي مَـا لَيـسَ لَـكَ بِـهِ عِلـمٌ فَـلَا تُطِعهُمَـا وَصَاحِبهُمـا فـي الدُّنيَـا مَعرُوفًـا﴾

-لم أقل لك اشرك، فلا تلوِ النصوص!

-لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

عنـد ذلـك شـعر سـعيد بدوخـة، وأن المـكان ضـاق عليـه بمـا رحـب، فسـقط مغشـيًا عليـه.

-أبا اسامة!

عـاد الـى وعيـه علـى صـوت أبـي قتـادة الذي انتشـله مـن الذكريات الموجعـة، فقـال لـه:

-نعم؟!

-الأميـر أبـو عبـد الله النجـدي يريـد رؤيتـك اليـوم فـي بيتـه بعـد صـلاة العشـاء.

-يريدني؟! وماذا يريد؟

-لو أراد أن يقول لي وأنا أقول لك فلمَ يرسل إليك؟!

تُرى ماذا يريد هذا الآخر؟ فوق ما بنا من مصائب؟ (هكذا حدث سعيد نفسه).

دخل فناء قصر أبي عبد اللّه أو أبي سليمان من قبل، كانت الأضواء ساطعة، فجلس في الحديقة على نمارق وثيرة، وكان جنود التنظيم يحفون المكان، منتشرون ذات اليمين وذات الشمال بكثافة، وبينما يتابع سعيد النجوم في السماء ويفكر بحاله البائس التي آل إليه دخل أبو عبد اللّه قائلا: السلام عليكم. وبعد الترحاب وتقديم القهوة المرة، قال أبو عبد اللّه:

-كيف حالك يا سعيد، أما زلت غضبانًا على ابنك لأنه ألتحق بالمجاهدين؟

فقال بتوتر:

-لا، كانت مفاجأة فحسب، وماذا يريد المرء خير من الجهاد في سبيل اللّه؟

-فما لك شاحب الوجه متغير اللون؟ هل الخسائر الفادحة في العمل هي السبب؟

كانت لهجته رقيقة، وأنّى لأبي عبد اللّه هذه اللهجة الهادئة؟ ألم يطرده قبل شهر عندما زاره في تكريت متوسطا لعلي وأجود فما الذي قلب حاله؟ ثم أن أبا عبد اللّه ليس محتاجًا لشيءٍ عنده، فلا مال بقي، والولد أخذه، ولكن لا بد أنه يريد شيئًا، مصلحة ما.

-خسائر ليست بالقليلة، يعني خمسين سيارة لا يقل ثمن

الواحـدة عـن خمسـة عشـر ألـف دولار غيـر هينـة.

-قاتـل اللّه الكفـرة، ولكـن لا تقلـق سـأعوضك عـن كل هـذه الخسـائر!

-لـم العجـب يـا أبـا اسـامة؟ الدولـة الاسـلامية آتيـة لخدمتكم، هـي الدولـة المؤمنـة والمنقـذة مـن دولـة الكفـر التـي سـتزول، نحـن سـنزرع بـدل كل شـوكة وردة!!

أراد أن يهتـف بـه، أو يصـرخ قائـلا: أي ورد وأنتـم تزرعـون بـدل الشـوك قنابـل، تدمـرون الشـوارع بحجـة عرقلـة سـير الأعـداء، أي ورد وأنتـم تريـدون قتـل كل مـن خالـف. ولكنـه آثـر السـلامة. وعـاد لكـرم أبـي عبـد اللّه الفيـاض والـذي انهمـر فجـأة كانهمـار سـحابة الصيـف المطيـرة.. تعويـض عـن الخسـائر.. انقـاذ.. مـا الأمـر؟ لا يـكاد يسـتوعب.

فقال أبو عبد اللّه متابعًا:

-لا يخفـى عليـك أن الدولـة الاسـلامية تدخـل عهـد ازدهارهـا، عمليـة البنـاء وتوطيـد الأركان، سـيبدأ العهـد الجديـد للدولـة، الحضـارة المنشـودة، سـنقضي علـى الخصـوم ونفتـح البلـدان عنـوةً أو صلحًـا وهـذا شـأن المجاهديـن المقاتلـين وقـد تشـرفتَ بـأن انضـم ولـدك..

وشـعر سـعيد أن ابـا عبـد اللّه يضغـط علـى جـرح لـم يندمـل، يريـد أن يوصـل رسـائله، يقـول لـه: لسـت أعظـم ٍمـن الدولـة، لسـت الا جـرم صغيـر، لسـت الا سـمكة صغيـرة فـي سـاجية تسـبح فصـارت سـيدة، فلمـا صـارت فـي البحـر ظنتـه سـاجية وظنـت نفسـها سـيدة! يتابـع بزهـو:

-أمـا مهمـة السـادة الاشـراف والشـيوخ وعليـة القـوم فهـي ترسـيخ

الدولة في أذهان الناس، والسير معها قدمًا نحو دولة قوية.. ابناؤها هم ابناؤكم، ورجالها هم أنتم الخُلصاء..!

فقال سعيد بارتباك وقد بدا كقط أليف لا ذاك الجبار الذي كان يصرخ في وجه مهدية:

-والآن ماذا عليَّ أن افعل؟

-الآن كخطوةٍ أولى أريد القرب منك أنت تحديدا!

-أنا ..!!

-أجل!

-وكيف هذا؟!

-ولدي طلحة، كما تعلم التقيت به بعد أمد طويل، فلما جمعني الله به بعد لم أتفرغ له، بل بقينا في الجهاد والقتال، وهو شجاع كأبيه، مغوار لا يخشى شيء، إذا بدأ القتال رأيته في المقدمة!!

فتقاطر وجه سعيد عرقًا كالندى.. وتابع أبو عبد الله:

-وأزف وقت زواجه.. فقد تخطى العشرين!

-أبو أسامة، أطلب يد ابنتك رحمة لولدي طلحة على سنة اللّه ورسوله وعلى صداق أنت تختاره.

ففغر سعيد فاه مدهوشًا مبغوتًا، واعتلاه صمت رهيب يشبه صمت الأموات، وقال بصوت خفيض مشبوب بفزع هائل:

-الحقيقة يا أيها الأمير لا أعلم ماذا أقول.

-وهل هناك قولٌ غير الموافقة؟ أم أنت رافض لقربي؟

كان يتوقع أي شيء الا هذا، يصاهر أبا عبد اللّه؟ أي وحلٍ

هذا الذي سيغرق فيه وأي قاعٍ هذا الذي سينزل فيه؟

-حاشا، ولكن تفاجأت قليلا..

وأشار أبو عبد الله لأبي قتادة الذي كان يقف على مقربةٍ من مجلسهما، فغاب دقيقة وعاد يحمل حقيبة كبيرة من حقائب السفر، ووضعها أمامهما، وفتحها .. فلم تكد عينا سعيد تصدقان ما تريا، حقيبة مليئة كلها بالدولارات..!

فقال أبو عبد الله باسمًا من منظر سعيد وهو يحدق بالحقيبة بتلك الدهشة:

-اعتبر هذا تعويضا بسيطا من الدولة الاسلامية لما أصابك أنت وعائلتك من ضررٍ بالغ جراء العمليات العسكرية، اعلم أن خسائرك فادحة، فمعرض السيارات انتهى، ولم تستلم الى الآن شيئًا من أموال الحنطة التي بعتها في العام المنصرم..!

داهية هو أبو عبد الله يعرف من أين تؤكل الكتف، وكيف يشتري قلوب الرجال. فقال سعيد وهو يداري فرحته:

-شكرًا لك وللدولة الاسلامية، تعويض عاجل وسريع.

-متى يكون العرس!

-أيُّ عرسٍ؟

فقال أبو عبد الله ضاحكًا:

-المال أنساك! زواج طلحة ورحمة.

-حدد الموعد.

-الخميس القادم، يعني بعد خمسة أيام.

-على بركة الله.

-صحيح، لدي لك خبر قد لا يُسرك...

-علي، سيحاكم يوم الأربعاء القادم وعلى الملء أمام الناس!

فطفرت دمعة من عينه نغصت تقاسيم وجهه الممتلئ سرورًا وحبورًا، ولم يستطع أن يتكلم وكأن مداد الكلمات انقطع..

-ما لك يا أبا أسامة؟ هذا كافر وإن كان ابن أخيك! والله قال لنوح عندما أراد إنقاذ ابنه: (إنه ليس من اهلك).. فلا قربة مع الكافرين.

-وهل سيعدم؟

-إلا إذا تراجع عن غيه وكفره.

-ومتى ينفذ الاعدام إن ثبت؟

-فورًا!

-طيب.. لماذا لا نؤجل العرس؟ فلا يعقل يموت ابن عمها وفي التالي تتزوج.

فقال غاضبًا:

-أما زالت هذه البدع عندك؟ هذا كافر وليس ابن عمها، ولا يجوز أن يُحزن عليه، بل علينا أن نفرح بما أفاء الله علينا من نصر بقتل هذا الملحد.

حمل سعيد الحقيبة واستعد للخروج، فامر ابو عبد الله أبا قتادة أن يوصله بالسيارة.

-٢٣-

نزل سعيد من السيارة يجر حقيبة المال وبرفقتها خيبته، خيبة مليئة بالخيانة والعار والخوف، كيف تقدم النفس على الخيانة

بهـذه البسـاطة دون خـوف؟ كيـف تنتـزع المبـادئ مـن النفـوس وترفـع رفـع العِلـم بمـوت علمائـه؟ وهـو يقـف ويـرى بيتـه وجنبـه بيـت أخيـه ذي الأضـواء الباهتـة وبـين الداريـن درب يفضـي الـى التلـة.. تلة عبـاس المشـرفة علـى الحقـول الخاويـة، لما تأمـل هـذا المنظـر تدفقـت عليـه كتدفـق الشـلال موجـات مـن التسـاؤلات الذابحـة الهـادرة هديـر المـوج العاتـي الجبـار الـذي يريـد تدميـر كل شـيء.. سـالم .. أمانتـه ستضيع وأنـا صافحـت قاتليـه! سـالم وهـو يقاتـل الجيـش الأمريكـي كان مطمئنـا علـى ولـده، ولكـن هـا أنـا أخـون، أخـون وأنـا هـادئ، أجـود الـذي يعشـق رحمـة ويتملـق لـي لأجلهـا.. كيـف أرده وأقنعـه أن رحمـة صـارت لمـن يراهـم قاتلـي أخيـه؟ بل رحمـة نقسـها كيـف ستقبل؟ ألـم اطـرد أسـامة وألعنـه لأنـه انضـم لهـم فكيـف سـأكون أنـا معهـم؟ كيـف أجـرح كل هـؤلاء وأبيـع مبادئـي وضميـري فـي آن؟ دخـل البيـت بخطـوات فاتـرة، استقبلته زوجـه ورحمـة وعلامـات الدهشـة بـدت عليهمـا، تـرك الحقيبـة ودخـل الـى الديـوان وأشـعل سـكارته وصـار يدخـن بشـراهة وتوتـر، فتحـت زوجـه الحقيبـة وهالهـا مـا رأت.

-سعيد، لماذا أعطاك الأمير هذا المال؟

لـم يجـب، بـل بقـي غارقًـا فـي تسـاؤلاته وبـدا صوتهـا نشـاز قطـع عليـه خلوتـه..

-ما الذي أعطيته له .. ماذا بعته؟ الأرض .. أم القرية كلها؟

مـن الـذي ألهمهـا وقـال لهـا أنـه بـاع؟ ليـت البيـع كان كمـا تقولـين، بـل أعطـاه بضاعـة أكبـر مـن القريـة.. قريـة العجائـب والحكايـات الأسـطورية، ليتـه كان مـا قلـتِ يـا أم أسـامة .. رفـع بصـره نحوهمـا، ونظـر بإمعـان الـى رحمـة فرآهـا تطفـح بالبـراءة، وداعـة تشـبه زهـرةً فـي الربيـع، هـذه السـمراء الجميلـة كانـت

الثمن، هذه الحسناء ستؤول لهم، (ألم يكفك يا سعيد ولدك الوحيد لتضحي بابنتك الوحيدة أيضا) قال سعيد لنفسه ، فأشار الى رحمة ولم ينطق بل أشاح بوجهه الى النافذة.

فلطمت أم أسامة خديها، وشهقت، ثم قالت:

-بعت ابنتك يا أبا سعيد؟!

لم يجب..

-كيف سولت نفسك ذلك؟ كيف انزلقت وطمعت في المال؟ (ثم بصوتٍ عالٍ): كيف؟

فقال ببطء:

-لم أبعها، إنما زواج على سنة اللّه ورسولِهِ.

-وبمن ستتزوج؟

-طلحة بن أبي عبد اللّه النجدي.

بدأت رحمة تبكي، أمها هي الأخرى بدأت تبكي وتتكلم معه صارخة.. سمعت أم جواد صياحهم فقلقت، بل زاد الأمر وتحول الى عراك، كان سعيد قد بدأ يضرب زوجه وهي تصرخ به. أجود منهمك في الكتابة والاستنساخ، فلما سمع الصوت قام يصيخ السمع، لبست أمه عباءتها وخرجت، لحقها، فقالت له: سوالف نسوان عد.

لما دخلت رأت منظرًا مريعًا، سعيد يمسك زوجه من رقبتها بيد وهي مبطوحة كالخراف أوان الذبح وباليد الأخرى يضربها بلا هوادة، ورحمة كالضائع تدفع به فلا يتزحزح، فهرعت نحوه ودفعته بقوة فاندفع عنها، وأقامتها وسقتها ماءً وغسلت وجهها.

مـرت سـاعة وأجـود وأختـه واخـوه الآخـر ينتظـرون، هجعـت الأصـوات ولـم يعـد يسـمع مـن بيـت عمـه ولـو همسًـا، قـال لأختـه: يبـدو أن أمـي هدأتهـم.

عـادت أمـه وهـي منقلبـة الوجـه، سـيئة المـزاج، غضبـى، فقالـوا لهـا:

-ماذا هنا؟

-مصيبة ووقعت على رأسنا.. مصيبة.

-ماذا هنا؟

-رحمة!

فلمـا نطقـت بذلـك الاسـم شـحب وجـه أجـود وبـدا كالملسـوع لا يولـي علـى شـيء:

-ما بها قولي..!

-ستتزوج ابن الامير...

فـي تلـك اللحظـة أظلمـت الدنيـا فـي وجهـه وبـدت كالسـراب.. لا صـدق فيهـا، وإذا بـه يقـف مصدومًـا لا يعـرف مـاذا يفعـل، هـل يعقـل؟ رحمـة تذهـب لـذاك الداعشـي؟ هـل جـن سـعيد..!

فانطلـق الـى داخـل الغرفـة وأخـرج البندقيـة متجهـا الـى بيـت عمـه.. مسـكت أمـه وأخـوه وأختـه بـه، وهـو كالبحـر المائـج ..بـل كالثـور الهائـج..

-قف اللّه يرضى عليك لا نريد مصيبة..(قالت أمه)

فاستدار نحوها:

-يأخذ حبيبتي مني وتقولين: قف!

-ابنته وهو حر بها يزوجها لمن شاء.

-لا، بل هي لي، واليوم سيكون آخر يوم في عمره إن اصر على جنونه، ما به عمي هذا ..هه؟ قد جن وراء أمواله الضائعة.

وخرج فائرًا ثائرًا، وقف أمام باب بيته وأمه من خلفه تصرخ وتنادي: اللّه أكبر الحقونا يا ناس..

فسحب بندقيته وصاح: لك اطلع.. تبيع ابنتك؟ أنت لست رجلا. وبدأ يضرب بالهواء. فلما سمع سعيد أخرج مسدسًا وصرخ: أنا آتٍ يا ابن الـ..

فخرج سعيد وهو يحمل مسدسه فلما رآه أجود قال له: سلمت ولدك لهم قلنا ولده وهو حر، لم تسأل عن ابن أخيك الذي أمنك على أهله وماله فضيعت الولد وسطوت على المال قلت قدر وهم أقوى منه، ولكن أن تبيع من هي من نصيبي فلا، لن أسمح لك ببيع حبيبتي بالمال وإن كانت ابنتك.

فقال سعيد والغضب يتطاير منه:

- اغرب من هنا أيها الوضيع وإلا جعلتهم يعدمونك مع ابن عمك.

فقال أجود:

-تفعلها وأنت النذل الخسيس.

-لا أحد خسيس سواك يا ابن الـ..

-تشتم أبي فوق سرقتك لمالنا وحلالنا! لم أرَ ناقصًا مثلك.

-تأكل من خيري وتهجم علي...!

وسحب أجود بندقيته ثانية الموجهة على عمه ووضع سعيد يده على الزناد وبلمح البصر دفعت أم جواد بندقية ولدها لتنطلق رصاصاتها على الأرض وعمه في نفس التوقيت أطلق النار لتصيب كتف أم جواد!!

كأن الحياة توقفت في عين أجود لا يعلم ماذا يفعل وبينما استعاد وعيه ورأى يد أمه تشخب دما وهي تتأوه وتتلوى متألمة أراد أن يرمي عمه ثانية فمن يجيره؟ وقبل أن يرفع بندقيته كان جنود التنظيم بقيادة أبي قتادة قد قدمت هائجة مرتاعة، ونادوا: أجود ارمِ سلاحك..

ولم يرهم حتى كانوا قدَ حاصروه، ثم انتزعوا منه السلاح وكبلوه، فقال بصوت باكٍ:

-أمي.. أمي .. انقذوها.

-لا عليك سنتكفل بها. خذوه. (قال ابو قتادة).

ليعود مرة ثالثة الى ظلمات السجن.

-٢٤-

-لا يا سعيد لا، لم أعلم أن أجود ابن أخيك يحب رحمة، هذا مجنون، لعل شيئًا خاصا بينهم.

قال ذلك ابو عبد الله في صباح اليوم التالي وبغضب.

فقال سعيد:

-حاشا.. شاب طائش ومجنون.

-اذن يبقى في السجن الى حين.

-لا، اقترح أن تطلقونه...

فقاطعه بغضب:

-نطلقه؟! هذا مجنون..

-لا أن تطلقونه حرًّا هنا، تخرجوه من السجن فينزح هو وعائلته الى سامراء مباشرة، لن يبقى هنا ويسبب مشاكل لنا وأمامنا عرس.

ففكر أبو عبد اللّه قليلا، ثم قال:

-اذن جهز سيارة من سياراتك، وضع اغراضهم ويوم الخميس نطلقه بهذا الشرط.

-والعرس؟

-في الموعد.



اليوم هو الأربعاء، اليوم سيحاكم علي بتهمة الردة، كان الجو صحوًا، مشبوبًا بغيوم تغزو صفحة السماء أول الشتاء، وضعت في حديقة المسجد الكبير في تكريت طاولة، وخلفها جلس رجل كهل قيل أنه قاض، وعند الساعة العاشرة تجمهر الناس حوله، وكان رجال القًرية كلهم قد وقفوا ينظرون، تحسين يعلوه حزن كئيب، أبو حازم، سعيد وهو مذلول خائف، الشيخ عمر وهو يحوقل ويدعو اللّه ولا يعلم أحد لمن يدعو، أسامة شاكٍ سلاحه لأي طارئ ويبدو أن عطفًا لاح في وجهه فجأة.

وجيء بعلي مكبلًا مصفدًا، وشكله كأنه جاء من أهل القبور، شحوب مرعب، جسده ضئيل هزل كأنه لم يذق طعامًا منذ دهور، وشعره كثيف وعالٍ ولحيته طويلة قذرة كأنه لم يمس الماء منذ أودع السجن. وضًعه الجندي أمام القاضي. حتى أن احد الناس تهامس مع الذي جنبه قائلا: سبحان اللّه، من كفره انظر كيف نسخه اللّه!

فقال القاضي الكهل:

-أنت هو (علي سالم عباس)؟

فجاء صوته متعبًا منهكًا بعيدًا:

-أجل.

-هل أنت حقًّا صاحب هذه الأقوال والآراء الشاذة الكافرة؟

فقال ببطء:

-عندك آراء كافرة، وعندي مؤمنة أشد ما يكون الايمان!

-هل تؤمن باللّه الواحد القهار؟

-أؤمن بإله لم تعرفوه ولم تعبدوه، اله الرحمة لا القتل، وكفرت بالهكم الذي تعبدونه، الذي تقتلون باسمه وتغتصبون، تحلون وتحرمون، وكله باسمه.

-هذا كفر صريح!

-سمه ما شئت، فلن يختلف المعنى! الأديان التي أتيتم بها..

فقاطعه القاضي:

-لم نأتِ بها، بل هي من عند اللّه، أنزلها على أنبيائه ورسله وبعثهم لإنقاذ البشرية من ظلامها وظلماتها.

-الدين يعطل الفكر، بل إن الأديان تجرد الانسان من قدرته على طرح السؤال، ما أدى الى زيادة الشعوب الجائعة المريضة الجاهلة في المجتمعات الاسلامية، دون أن تحاول التغيير، لأنها تقدس التعاليم والمفاهيم والتقارير التي أدت الى ذلك الوضع المزري..

فهاج الحضور ورماه بعضهم بقاذورات، فصاح القاضي:

-سكوت .. يا حرس امنع المشاغبين .. أكمل.

-لم يستطع العالم الغربي أن يتجاوز حدود برمجته الا عندما

أمتلك القدرة على أن يطرح أسئلة، وكذلك بعد عزل الدين عن الدولة، الدين لله، انظر اليهم عندما تركوا الكنيسة، انظر الى روسيا الكافرة وامريكا وبريطانيا .. وانظر الى البلاد التي تحكمونها أو حكمتوها: أفغانستان سوريا وجزء من العراق وليبيا، سادها الجوع والخوف والجشع والجهل، وفتك بهم المرض.

فقال القاضي بعد أن سمعه وأطال التروي والانصات قال:

-المتهم (علي سالم عباس) بعد أن ثبتت ردتك، وأعلنت كفرك على رؤوس الأشهاد ادعوك للتوبة والتراجع، وأن تشهد أن لا إله الا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه، وتؤمن بما انزل على محمد وعيسى والنبيين من قبلهم وتؤمن بالقران. ماذا تقول؟

-كفرت بربٍّ أنتم خلفاؤه!!

فقال القاضي:

-الحكم النهائي: قررنا نحن قاضي المحكمة الشرعية في تكريت في الدولة الاسلامية الحكم على المتهم (علي سالم عباس) بالإعدام لردته وكفره باللّه، وينفذ الحكم فورًا أمام الناس!

وعلت التكبيرات والهتافات، أما سعيد فبكى، وكفف أسامة دموعه. وقادوه أمام الجامع واجتمع خلق كثير. فأعطى أبو قتادة أمره بإعدامه!

واحنى رأسه يائسًا مستسلمًا للقدر الذي كتبه بنفسه كما يظن، وتقدم ملثم واستل سيفًا صقيلًا لامعًا، فتقدم نحو ابو قتادة فقال له بصوت خفيض:

-لو آمنت باللّه.

-آمنت الآن بربي لا بربكم.

-ماذا تشعر الآن بايمانك هذا؟

-الحب!!

فضحك أبو قتادة لسذاجته وسمعه وهو ذاهب ليفسح مكان للجلاد ينشد بيت الحلاج:

أَنَا مَن أَهوى وَمَن أهوَى أَنَا نَحنُ رُوحَانِ حَلَلنَا بَدَنَا

وتقدم الجلاد بسيفه ورفعه ثم أهوى على رأسه فراح رأسه يتدحرج وجسده يرش دمًا ويرفس. وسرعان ما لبدت السماء بالغيوم وانهمرت بسخاء غير معتاد!

-٢٥-

كانت أم جواد تجلس على الأريكة ويدها مشدودة لا تستطيع حراكها، لم تتعافَ بعد بشكل تام، ولكن سعيدًا أمهلهم أن هذا اليوم هو الأخير تشير الى ابنتها: احملي الشيء المهم والخفيف. تنظر في أرجاء البيت في كل شق وكل شبر ذكرى، هنا كان صخبهم وضجيجهم، هنا الأصوات المتعالية والضحكات المجلجلة، والقهقهات والنكات والسخرية اللاذعة، هناك كان علي يسمع أوامرها وينصت لها ويطيعها، وهناك كأن يأتي سعيد ويتصايح معها فتأتي عمتها حمدية وتفض النزاع وتنتصر لولدها، هنا كانت طلة الغائبينِ: جواد وأجود.

خرجت تحمل الأغراض الى السيارة، أخبرهم أسامة أن السائق سيأخذكم الى الشارع العام وستجدون أجود هناك، وقبل أن تركب رأت سعيدًا يداعب مسبحته ويقف شامخًا وقفة لم يقفها كسرى أو قيصر، ثم نظرت الى التلة، فقالت: أين أنت يا عباس، ليت تأتي وترى ذريتك ماذا حل بها،

ليتك تعود وترى ابنك المدلل كيف فعل بنا. ثم قالت بصوت عالٍ: حسبي الله ونعم الوكيل على كل ظالم.. حسبي الله. ركبتْ سيارتها وذهب وإذا بسيارة أبي عبد الله ورهطه قادمين للخطبة، فرحب بهم ودخلوا.

قضت الطريق بين البيت والشارع العام وهي تنشج وتبكي، الى أن وصلت الشارع وكانت صلاة العصر قد انقضت واقتربت ساعة الغروب وإذا بأجود واقف. وقفت السيارة، لم يركب بل ركض الى أمه قبل يدها:

-كيف حالك يمَّة ؟ لمَ البكاء؟

-بخير ، اصعد معي.. اصعد..

-لا، لن أصعد، عندي حساب ويجب أن أصفيه!

-حساب؟

-اي.

-لك ابني لا تورطني، اصعد لا أريد خسرانك.

-لن أذهب قبل أن ارى رحمة!

-رحمة راحت.

-سأموت كمدًا وحسرة إن لم أرها وأقول لها أحبك لا تستسلمي له.

-لا، اصعد.

-انتظريني .. ساعة وأعود.

-طعني ولو لمرة واصعد.

-سأعود لأن ان لم أذهب قد انتحر.

فصرخت باكية:

-لا .. لمَ تعذبني.

-ادعي لي.

-أجود!

ثم انطلق الى الحقول مسرعًا نحو بيت سعيد.

كان سعيد قد قدم ضيافة وبدأوا باجراءات العقد وتفاصيله، رحمة في غرفتها تلبس الفستان الأبيض وتبكي. وصل أجود الى تلة عباس من جهة الحقول وصعد الى خلفية بيت عمه، كانت غرفة رحمة في الطابق العلوي ولها نافذة على الحقول والتلة، تسلق الحائط فصار وجهه أمام شباكها، دقه وإذا برحمة متزينة بالفستان الأبيض، فقال:

-رحمة.. لا تتزوجيه، أحبك رحمة..!

-وأنا أيضا أحبك.. (قالت وهي مرعوبة من هول المفاجأة).

وبلحظة مجنونة منه قفز وإذا هو بغرفتها! فبدأ يبكي معها ويقول:

-أحبك ولن أسمح لهم بأخذك!

-وأنا ايضا..

وألتصق بها وهو يبكي وعلا صوتهم، وإذا بأمها تأتي وتسترق السمع وبدأت تدق الباب دقا عنيفا ولكنهم كانوا غارقين في البكاء وعاطفة جياشة.

فهرعت الى الديوان وقالت: أجود فوق عند رحمة.. أنجدونا!

وقام الرجال كلهم اسامة وسعيد وابو عبد الله وابو قتادة

وطلحة وسائر المسلحين من رجالهم، وبينما تناهى لسمعهم وقع الأقدام الهائجة صرخت به:

-اهرب سيقتلونك!

-لنهرب معًا.

-لن اقدر على الهرب والركض.

-السيارة تنتظرنا.

-لن أقدر.

كانوا قد صعدوا الدرجة وهم هائجون، فصرخت به:

-اهرب.

-لكن سأعود.

وصلوا الباب فقفز أجود من الشباك الى الحائط وخرج، فضرب سعيد الباب بسلاحه ففتح على مصراعيه، وكانت وحدها مرعوبة، فركضوا كلهم الى الشباك لكن الغروب قد ألقى بظلاله، وهرب أجود، اطلقوا النار من الشباك في الظلام المرخي سدله وبخفة ساعة الغروب الأولى.

القسم الثاني

١

الطرق المعتمة

مات الفضاء سوى بقايا من مصابيح الطريق
مبهورة الاضواء تنصب في جداول من بريق
صفراء تخنقها الظلال على فم الليل العميق
السياب

-٢٦-

كان أجـود يتابـع انهمـار المطـر مـن غرفتـه ويـرى مـا يفعلـه الهطـول الكثيـف فـي مسـكنهم الطينـي، لـم تكـن نافـذة يتابـع منهـا، إنمـا شـق فـي الحائـط وضعـوا عليـه زجاجـة لتقـي قيـظ الحـرِّ ولسـعات القـرِّ، كالعـادة سـيطعن البيـت، وتنعكس الرطوبة عليهـم، بل سيتسـلل المـاء الـى مسـكنهم. السـماء مـا زالـت تزمجـر غضبًـا، والمطـر لـم يتوقـف منـذ سـاعات الصبـاح الأولـى وإن لـم يدفـع المـاء عـن مسـكنهم قبـل الليـل فسيسـبب مشـكلة، قد يسـقط البيـت عليهـم. (لـم تهـدم طائـرات التحالـف بيتنـا، ولكـن سـيهدمه المطـر) هكـذا هتـف أجـود فـي نفسـه.

-يمَّة سنغرق، اخرج مع أخيك وادفعوا الماء عنا.

خرجـا الـى فنـاء البيـت الـذي انقلـب الـى وحـل وطيـن، إذ مسـكنهم أسـفل مـن الشـارع، فكلمـا فـاض الزقـاق اندفـع المـاء الـى بيتهـم، البيـت لـم يكـن مبنيًـا علـى أسـاس عـالٍ ومتـين، بـل صاحبـه كان صعلـوكًا معدمًـا لا يملـك سـوى الأرض وكان يسـكن فـي ارض غيـر أصوليـة، فأتـت البلديـة وطردتهـم مـن ذلـك المـكان، فبنـى بيتـه مـن الطـين، ولكـن بعـد سـقوط الموصـل وتكريـت بـدأت حملـة اعتقـالات طالـت كل المسـجونين سـابقًا بتهـم ارهابيـة، وكان هـذا الرجـل مـن أصحـاب السـوابق، فأجـر البيـت لهـم وفـرَّ قبـل أن يلقـوا القبـض عليـه، غـاب شـهرين ولـم يـأتِ الـى الآن ليسـتلم

الإيجـار علمًـا أنـه بخيـلٌ، قـد يكـون مسـجونًا، لا يعلمـون، المهـم هـم يجلسـون فـي البيـت ولـم يطالبهـم أحـد بالخـروج أو تـرك البيت أو طلب الايجار حتى. وصارا يقذفان بالماء الى الشارع بالطشت. كان البيت عبارة عن غرفة واحدة متآكلة ورائحة الرطوبة تزكم المكان ولكن لا يملكون مالًا ليعيدوا تأهيلها، وهذه الغرفة الداخلية هي في غرفة كبيرة، تلك الغرفة الكبيرة هي مطبخ ومكان الجلوس، وكذلك ينام فيها أجود وأخوه، كانت أمه جالسة تحتسي شاي العصر مع بتول، مدفونة بالسواد، وجهها لم يبارحه الحزن، والمرض الذي آزر ذلك الحزن وشدَّ أزره هو الآخر ضيف ثقيل عليها ولم يرضَ أن يبارحها. كيف لا تكون فريسة للأحزان وكلُّ شيءٍ ضاع؟ منذ دخلت سامراء ويعيشون عيشة الكفاف على الصدقات والمنظمات الإغاثية، حتى صاحب المولد، زودهم بالكهرباء مجانًا، لكن ما يحز في النفس هو ذاك الضياع والتشظي لعائلتها، خرجت تلك العائلة صفر اليدين، لا مال تستقوي به على الغربة، ولا قريب تركن إليه وتتقوى به الا خالها حسين وهو الآخر يعاني ما تعاني ولكنه يمتلك على الأقل سيارة يعمل فيها تكسي، جواد لا خبر عنه، بل كأن العائلة كلها اقتنعت بغيابه وخلعت ثوب الحزن والحداد الا هي، تذكره كلما جلست على المائدة وكلما وضعت رأسها على الوسادة فتمضي في بكائها المكتوم محاولة أن لا تحزن الباقين، ولكن شهقاتها دائمًا تفضحها، فما أن تستدير حتى تجد بتول ماضية هي الأخرى في ذلك البكاء المكتوم. لما نزلوا سامراء وجلسوا في هذا البيت تجلى ذلك السؤال كتكملة للوحة البؤس التي كان القدر قد رسمها لهم ولتنطقه الحناجر المتحشرجة بصوت أسيف: كيف سنعيش؟! ذلك السؤال بقي مسيطرا على العائلة يطوفون حول جوابه في

فلك تلك المدينة البائسة، تلك المدينة كانت تعاني من الاهمال وتردي الخدمات، ولكن لها قدسية في نفسية مهدية لسبب بسيط، وهو وجود آل البيت هناك، وكم كانت تحبهم وتجلهم وتراهم بركة تنير عتمة بؤسهم، ولن تنسى تلك السكينة التي حفتها عندما دخلته أول ما نزلت المدينة قبل شهرين، كان الطريق طويلا، محفوفا بالمخاطر، فالطائرات تحلق فوقهم وتتصيد رجال التنظيم، الجيش يراهم مطلوبين بل أعداء يتوجس منهم خوفًا، والتنظيم كذلك يخاف منهم فأين المفر؟ لما وصلت سيطرة سامراء قرب صلاة العشاء في ذلك اليوم الخريفي وهم يحملون ذلك الكم من القهر والعوز والألم تفاجأوا أنّ الدخول ممنوع في ذلك الوقت، ويا ويلها من ساعة، كانوا يظنونه نهاية العذاب وإذا به أوله، كانوا يظنون أن طريق النجاة قد لاح وعهد الأمان قد بسق وإنهم سيتظللون بظلاله ولكن كل ذلك لم يكن، وجدوا مئات العوائل واقفة، موغلين في ذلك العوز والألم، تلك التي فقدت ولدها فتذكرته فجاءت نادبة باكية، وتلك التي قُتِل زوجها فأقامت في طابور الانتظار ذاك مأتمًا وعويًلا، وذلك الذي خسر ثروته فجاء حافيًا الا بروحه التي عزَّ عليها اللحاق بثروته، وهناك أطفال يلعبون ويزعقون غير عابئين أو مكترثين بما حولهم، ولكن الشعور الذي ساد المكان وسيطر عليهم أجمعين هو الخوف؛ الخوف من أن لا يدخلوا سامراء في هذه العشية التي بانت أنها لم تسفر عن خير، والفزع الأكبر الذي كان يرعبهم أن يطردوا فلا يسمح لهمً بالدخول أبدًا، فأين يذهبون وهم الفارون من الموت؟ أين يذهبون بعد أن ضاقت بهم السُبُلُ ولم يبق الا هذه المنفذ؟ الشيء الذي كان يحز في النفوس أنهم فقراء لا يملكون مالًا يوصلهم لكردستان أو تركيا أو أي

بلد آخر، وإن لم يدخلوا سامراء فكل شيء هو موت، من لم يمت على يد التنظيم فسيموت على يد الجيش، وإن نجى من الاثنين فسيموت بصاروخ من صواريخ التحالف، وإن نجا من هؤلاء فلسوف يموت في الغربة، في مخيمات الذل وهو يستجدي لقمته. (مؤسف يا بلدي فقد كنا نظنك وطنا وإذا بك غربة قاتلة) هكذا هتف أجود في نفسه وهو يرى الجيش يقف على أبواب سامراء مانعًا النازحين من الدخول. مهدية كانت في السيارة تدعو وتبتهل الى الله أن تدخلها هي وهؤلاء الناس آمنين مطمئنين، كانت تلمح قبة الإمامين مضيئة من بعيد، فهتفت: يا علي، قف لنا، يا علي، نحن ضيوفك وليس من شيمك أن تطرد ضيوفك!

أجود كان يقف صامتًا وهو يسدد نظره الى قبة الامامين، تذكر تلك الليلة التي سمعها في الحكايات التي تروى في قريته، عندما دخل الحاج صبحي مرقد الامام لصلاة الفجر، ووجد طفلًا رضيعًا على بابه، فحمله، يقال أن ذاك الطفل هو عباس جدهم، ويقال أنَّ وَليًا وضعه هناك، وقيل لما أخذه الحاج صبحي فاضت أمواله فيضًا ورزق بمال طائل وكل تلك الأعوام التي بقي فيها عباس عنده ومال الحاج صبحي في تزايد حتى نما نموًا عظيمًا. فقال أجود لنفسه: تُرى هل حقًّا كان عباس مباركًا وابن وليٍّ؟ ولكن اخاله ابن سفاح وخطيئة وضع هناك ليلتقطه بعض السيارة. ثم نظر الى دجلة الماثل أمامه والذي بدا هادئًا راكدًا وسرعان ما استحضرته صورة من حكايات جده عباس .. عندما أراد الانتحار في هذا النهر، فقال بيأس وهو يراقب مجراه: لو انتحرت يا جدي هنا ولم تأتِ وتبني قرية عجيبة وتترك ذريتك في صراع وعراك أليس أفضل؟ ولكن لماذا سنعود إليها وأنت الذي هربت لا تلوي

على شيء الا الفرار منتحرًا؟ أخشى إن دخلنا الى المدينة هذه تصبنا اللعنة الأولى، لعنة عباس ونخرج منها فارين وربما نريد الانتحار! وبينما هو يحاور نفسه ويلتطم بأمواجٍ الذكريات العاتية جاء جندي مكفهر الوجه، فقال قولاً فصلاً:

-لن يدخل أحد الى سامراء!!

فقالت الجموع متوسلة بذلك:

-ليش؟ وين نروح ؟

فقال:

-هذه ليست مشكلتنا، المهم أن تذهبوا الان من هنا!

فقالت عجوز:

-بني، هذا الليل قد اظلم وهذا حالنا، نساء وأطفال، وخرجنا من الموت، فلم يبقَ لنا مكان نأوي إليه فأين نذهب؟

-قلت لكِ تذهبون، وإلا حسبناكم دواعش!!

-دواعش!!

-احترموا انفسكم واذهبوا!

فعاد السؤال الأسيف:

-الى أين؟

فقال الجندي ضجرًا:

-الى الجحيم!

-نحن أهلك.

-اذهبوا الى المخيمات!

قال كلمته هذه وذهب الى مكانه، المخيمات!! فاجتمع الرجال في زاوية ليتناقشوا، كان أجود يستمع دون أن يشاركهم في الكلام:

-اين ستذهب في هذا الليل؟

-لا مفر من الموت!

-المخيمات.

-أي مخيمات؟ تلك المخيمات بعيدة قرب الاسحاقي، وأي أمان هناك؟ أما والله ليأتوا إلينا ويقتلونا ويأخذون النساء!

-النساء!!

-كل شيء الا العرض.

-سنكون قد متنا!

-الأفضل أن نعود من حيث أتينا.

-هذا أحسن شيء. الموت بذلة.

لما كان الرجال قد توافقوا على ذلك رفع رأسه ليرى وميض الطائرة وهي تقصف، هناك في المكان البعيد، لعلها عند القرية، عند (لوعة عباس).. ونحن.. نحن الهاربون من الموت الذين لم يبقَ لهم وطن يلوذون به، نحن الذين نركب مراكب الموت فتكسرت عند هذه الصخرة .. غدونا وحيدين وسط بحر متلاطمة أمواجه، لا مركب ولا وطن .. نحن المنفيون المغتربون الذين لفظهم كل شيء ..الأرض ، المساكن، مراتع الصبا، كلها لفظتهم وطردهم، نحن الذين بدأنا نحلم بموتٍ رخيٍّ بلا ضوضاء أو قل: موتًا بكرامة.. ربما يشبه موتَ عباس بلا صخب.. نحن الذين شُيعت أمامنا الرحمة.. مؤسف يا وطني

أن غدوت في لحظة غربة.. موجعة.. موحشة.. قاتلة.. تشبه غربة عباس لما فُجِعَ بالحقيقة.. نحن الذين نرى احلى المرين هو الموت بهدوء.

فقامت سيدة وسط الجموع صارخة متوسلة: اين أهل الغيرة والنخوة؟ هل ماتت فيكم؟ يا أيها الجند أنتم معنا أم علينا؟ نحن أهلكم هل نسيتم؟

ولكن لا مجيب!!

كانت الساعة تشير الى العاشرة مساءً، ولا فرج يلوح، مهدية تدعو الأولياء الذين لم يستجيبوا بعد، والناس منتشرون ولكل واحدٍ منهم حكاية وفجيعة، هنا يقتصدون بالحزن، ويثرون بالتفجّع، فمن خسر ماله فحسب لا يُعتد بحزنه، الفجيعة أكبر من ذلك ولا يوجد حزن يكفيهم.

وفجأة أطل رجل عليه سمات الشيوخ، فقال لهم: استريحوا عندي.

كان بيته قريبا من السيطرة التي يقفون عندها، فأخذ كل من يقف من النازحين الى بيته، كان له ديوان كبير فاستراحوا واصابوا شيئًا من الطعام.

-٢٧-

أن تترك أرضك وتخرج بروحك يشبه سمكة سقطت في فخ الصياد وخرجت من الماء؛ في تلك اللحظة كل شيء فيها يحن ويئن شوقًا للماء، الروح والجسد يتحدان ويجمعهما: حب الحياة. الروح والجسد يحنان الى (لوعة عباس)، الى الأماكن.. الى الطرقات.. الى التلة الشامخة وهي تستقبل

الحقـول وكأنهـا عابـد صوفـي فـي خلـوة تأمـل والقريـة خلفـه تمثـل الدنيـا الصاخبـة.. الـى صيـاح الديكـة وهـي تـزف بشـرى الصبـاح، الـى الذيـن أحببناهـم، حبـكِ يـا أرض فطـرة، والبعـد عنـكِ عـذابٌ، هنـاك كل شـيءٍ جميـل، هنـاك كل شـيء مناسـب لنـا، فـإن لـم نعـش حيـاة كريمـة آمنـة فسـنموت بعـزة وكرامـة، نمـوت أبطـالاً صمـدوا ومـا استسـلموا، أمـا هنـا فكل شـيءٍ غيـر مسـتقر.

فـي اليـوم التالـي صلـوا الفجـر ثـم انطلقـوا ثانيـة الـى أبـواب سـامراء عـل الليـل حمـل نسـائم الرحمـة علـى قلوبهـم فحنـت وعطفـت، وعـل المنظمـات الحقوقيـة والاغاثيـة سـعت وأفلحـت. كان آخـر شـيء يفكـر بـه النـاس فـي ذلـك الوقـت هـو أن يتصلـوا بمسـؤول أو برلمانـي أو وزيـر فيطلبـوا منـه العـون، لأن الدولـة ضائعـة تائهـة فـي فـلاة الحـرب، كل شـيء بيـد العسـكر، وممـا زاد البـلاء هـم المتطوعـون الذيـن لا خبـرة لهـم في العسـكرية، تطوعوا لمـا أعلنـت الدولـة الحاجـة الـى ذلـك، أولئـك كانـوا يـرون النازحـين (دواعـش)، ينظـرون إليهـم بـازدراء، بـل كثيـر منهـم بحقـد.. هـذا الـذي وقـف شـاهرًا بندقيتـه وصـرخ بهـم علـى إنهـم (دواعـش)!! لمـا مضـى ينعتهـم بأنهـم ارهابيـون صمـت الـكل خانعـين، ولـم يجـرؤ أحـد علـى ردِّه، حتـى انبـرت أم جـواد وتقدمـت نحـوه بـكل بسـالة غيـر عابئـة إن كانـت ستذهـب بتهمـة بـل برصاصـة علـى انهـا (داعشـية) ومـن سيسـأل؟ بـل أيـن هـو الـذي يسـأل والدولـة فـي عـزاءٍ وبـلاء؟

-لمَ تتهمنا هكذا اتهام؟ لمَ

كانـت العيـون اتجهـت نحوهـا مـن عناصـر الأمـن والنازحـين، وأجـود كان وراؤهـا محـاولاً تلافـي الموقـف.

فقال لها :

-أنتم الذين أدخلتم داعش علينا، أنتم الذين نصرتوهم ووطدتم لهم!!

فقالت:

-بل عانينا أكثر منكم بكثير منهم! قل لي ماذا خسرت بسببهم؟ قل!

-هذا حالنا، نحمل أسلحتنا لنستعيد أرضًا أنتم أصحابها، لنستعيد ما فرطتم به، قولي لي ماذا ربحت أنا؟ حاملا هذا السلاح لأجل أن لا يصل العدو لنا .

فقالت وعيناها اغرورقت بالدمع:

-هل تعرف أنا ماذا خسرت؟ خسرت ولدي الكبير، جواد، كان جنديًا، مثل عمرك يخدم في تكريت، ولكنه فُقد في سبايكر، ولم أعد أسمع عنه شيئًا، هل تعلم ذلك؟ هَل تعلم أني في عزاء دائم لا ينتهي ألمًا وحسرة عليه؟ وأنا انظر الى يدي، انظر اليها كيف هي، قد ضربت برصاصة داعشي وأنا امرأة!! وانظر الى هذا ولدي (وأشارت الى أجود) ثلاث مرات سجنه التنظيم الى أن طردونا..

ثم مسكت أجود من قميصه وشقته ليظهر جسده وعليه أثر السوط..

-انظر إليه.. عذبه التنظيم، وخرجنا لا نلوي على شيء الا الفرار بهذه الروح وتقول لنا بعد هذا دواعش؟! هؤلاء كلهم .. كل الواقفين خسروا مساكنهم .. أرضهم.. مالهم.. بل والكثير منهم من خسر عياله ومنهم من تركهم مدفونين تحت الانقاض أو معدومين، نحن الذين لم نرضَ بهم، نحن لم نصلِّ خلف داعشي لنأمن على أراوحنا، نحن تركنا المال

والعيش الرغيد وعبرنا طريقًا متنا به مرارًا الى أن وصلنا الى هنا، وأنت تقول لنا: دواعش؟! ما كان هذا أملنا فيكم.. نحن عائدون الى أرضنا، الى قريتنا، لنموت بكرامة، سأعود الى ذلك المجرم الذي ضربني في يدي ليجهز عليَّ، وسيعود ولدي في سجن داعش بكرامة خيرًا له!

ثم اتجهت الى أجود وقالت له: هيَّا يا بني لنعد من حيث أتينا..

قررت أن تعود الى القرية.. الى سعيد.. فقال أجود بيأس: هيَّا. وكان قد آمن في قرارة نفسه في المصير المنتظر، ليمت فداءً لرحمة، ليذهب ويقف أمام أبي عبد الله وطلحة عاري الصدر ويقول له: أنا الذي تسلق الى حجرة رحمة، خذوني ودعوها. عندها سيطمأن.. وسيتخلص من عذاب الضمير الذي أطبق على روحه منذ أمس الى الآن، رحمة لا تستحق ما سيجري لها. منذ هروبه أمس والى الآن يفكر في رحمة، وأسوء ما حصل هو في الليل عندما مضى نصفه، فكر أنهم عقدوا القران فورًا، وأخذوها وهي دامعة العينين الى بيتها، سعيد عمه رماها رميًا وهو يسب ويشتم، وهذا طلحة أخذها الى بيته وربما ضربها وبعدها فض بكارتها وأستلذ بذاك الدم المشخوب، كيف كان شعورها في تلك اللحظة؟ عندما سفح دمها .. عندما ضاجعها.. لا بدَّ أنها استحضرته، ولا بدَّ أنها بكت من ذلك الداعشي اللعين..! كل تلك الأفكار كانت تسيطر عليه في تلك الليلة الطويلة كبؤسنا، التعيسة كوطننا، الظالمة كغربتنا المبكرة.. الغادرة كأرضنا التي تنكرت لنا ونفتنا في لحظة الامتحان الحقيقية! (يا رحمة ماذا حصل لكِ؟) ذلك السؤال الذي بقي عالقًا في ذهنه من تلك الليلة، كيف واجهتِ وحشيتهم؟ آهٍ على وحشة هذا السؤال الذابحة!

-خالتي تعالي، ستدخلين!

جاءَ صوتُ الجنديِّ صداحًا في أذنيها، كبشرى طال انتظارها.. كسقية ماء عذب لضامئ في يوم قائظ، هو الإنقاذ من الموت، هو الانتشال والخروج من القبور الى الحياة، من الجحيم الى النعيم، من قلق وهاجس الموت والحياة مع رعب وارهاب التنظيم الى حياة هادئة نسبيًا، بل مرفهةً قياسًا بالقرية في هذه الأيّام، كان نداء ذلك الجندي أشبه بضوء الصبح إذا فجع الليالي المعتمة، بل هو النور الذي يتجلى في آخر النفق المعتم؛ إذ يخرج من طبيعته كضوء ليكون في ذلك الوقت حياة أخرى.

فتقدمت سيارتهم قاطعًا تلك الجموع الغفيرة القابعة تحت وهج الشمس والذي بدا يومًا حارًا، كانت الناس تنظر إليهم متعجبةً حاسدةً لهم على هذه النعماء، فلما بلغا مدخل السيطرة سألهم الجندي:

-حاجة من أين أنتم قادمون؟

-من أطراف تكريت.

-أعلم، من أي مكان تحديدًا؟

-من قرية «لوعة عباس».

ذهب الجندي وغاب برهة، فعاد مكفهر الوجه.. فقال أجود قبل أن يأتي الجندي:

-لمَ قلتِ لهم من لوعة عباس؟

-لمَ؟

-ألا تعلمين أن القرية مأوى قيادات داعش..!

-....!

-قولي من تكريت.. الزلاية.. العباسية.. لوعة عباس لا.

-وما يدريني.

-سنبدئ قيل وقال وقصة طويلة.

وصل الجندي، فقال:

-الكل ينزل للتفتيش.

فنزلوا وبدأوا يفتشون السيارة تفتشيًا دقيقًا، وأتوا بكلب يشم السيارة. ثم أشار الجندي الى أجود: تفضل معانا الىً التحقيق!

(تحقيق!!) هكذا هتفت مهدية مذعورة. ودخل معهم الى غرفة في السيطرة، وبقيت باقي العائلة تنتظر. وطال الانتظار وبدأ الناس بالدخول تباعًا بعد أن بذلت المنظمات الحقوقية وعانت ما عانت وتوسلت حتى سمح لهم، لقد شاهدت مهدية وهي تجلس في السيطرة أشياءً يشيب لها الولدان، ذلة لم ترها، وكأن الجند كانوا يرون أولئك الداخلين مواطنين من الدرجة الثانية، كان أولئك الجند يعاملونهم على انهم المسؤول الأول عن دخول التنظيم الى البلاد وجر البلاد الى حرب طاحنة لا أوار لها، سيل من الشتائم لكل من مرَّ، تهديد بالسجن أو الاعدام إن بدر منهم أي ريبة، كل ذلك مع الشتائم المقذعة الخادشة للحياء بل منها الطائفية أيضًا عابرين كل الخطوط الحمر. وبقوا منتظرين الى أن خافوا، لعلهم سجنوه، لعل سينطق بما عنده عن القرية فيتشبثوا به، وقامت مهدية تتهادى نحو دجلة فرأته في ذلك المساء هادرًا عنيفًا، ورأت الامامين شامخين يتحديان الزمان ورأت علامات الحزن تكتسي على ملامح

المدينـة، فـلا عمـران يسـحر الالبـاب ولا طبيعـة تريـح وتشـرح النفس، لكن فيها أمانـا افتقدته باقـي القـرى.

كانـت السـاعة قـد تخطـت التاسـعة والسـيطرة أغلقـت أبوابهـا وأجـود لـم يخـرج والجنـد مـا زالـوا متعاطفـين معهـا وقضيتهـا، وقـد عرضـوا عليهـا أن تدخـل وحدهـا وتذهـب الـى المستشـفى وتعالـج جرحهـا لكنهـا أبـت كمـا سـتأبى كل أم غيـور مكانهـا. فـي تلـك السـاعة خـرج أجـود مـع ضابـط برتبـة عقيـد، كانـت ملامـح ذلـك الضابـط فـارع الطـول تنـم عـن طيبـة، فوجهـه بسـام، وشـاربه الخفيـف المحفـوف بشـيب طفيـف زاده رصانـة ولكنهـا أقـرب الـى الطيبـة منهـا الـى الصرامـة. فقـال:

-حاجة، متأسفون جدًا للازعاج، مسائل ضرورية.

-عادي سيدي، المهم عاد ولدي.

فاحتضنته بشغف والدة. فقال الضابط:

-أعاد اللّه لكِ جواد سالمًا وأقر عينك به.

فقال ذاهلة:

-تعرفه؟

- أنـا العقيـد محمـد السـامرائي، كنـت المسـؤول عنـه، وكان جنديًـا مخلصًـا، نعـم التربيـة والأخلاق.

فقالت مهدية بعيون دامعة:

-ولدي... جواد، متى يعود؟!

-لم نعرف عنهم شيئًا الى الآن..

قـد كذب العقيـد هنـا، فقـد وجـدوا جثثًـا فـي دجلـة للمفقوديـن،

ووجدوا أكثر من مقبرة جماعية ولكن لم يجدوا رفاة جواد الى الآن، لم يرد العقيد جرحها وشغل بالها.

-البركة في أجود وأخيه..

-إن شاء اللّه.

-يؤسفني أن أقول لكم أن سيارتكم لن تدخل سامراء! ممنوعة!

-ولمَ؟

-لأن تلك المنطقة تسبب قلاقل كثيرة كما تعلمين، وبعد جهد بذلته منذ العصر لم أحصل على موافقة دخول السيارة ولكن عبثًا ولكن خرج أجود وهذا المهم، وكذلك ستدخلون سامراء آمنين مطمئنين، وهذا كرتي فيه رقم هاتفي وعنواني، عندما تحتاجونني اتصلوا عليَّ، أو ابعثي أجود، سأكون في الخدمة.

-شكرًا سيادة العقيد، لا أعلم كيف أرد جميلك.

-ترديه بشيء واحد.

-...؟

-أن لا تثيروا القلاقل هنا، الحديث للولدين، لأن العيون مفتوحة على النازحين، فكيف بكم وأنت آتون من أكثر المناطق سخونة؟! ولكن على العموم فعلتم خيرًا عندما أتيتم هنا، لأن قريتكم ستكون أرض قتال وصراع دامٍ.

-والآن انزل الأغراض يا أجود من السيارة ولنذهب.

-لا يوجد سيارات تذهب من هنا، ولكن في الصناعي ستجدون تاكسي، صحيح أين ستذهبون؟

فقالت مهدية:

-خالي هنا وسنقيم عنده.

-خيرا إن شاء اللّه.. استودعكم اللّه.

وحملوا اغراضهم والتي كانت عبارة عن حقائب ملابسهم فحسب، أجود وجودت وبتول وأمهم المتعبة، ثم مشوا على الجسر ذي الأضواء الخافتة ودجلة تحتهم متلاطم أمواجه غاضب هادر، وأمامهم المدينة الكئيبة التي بدت هادئة حزينة لائقة بالمشردين أمثالهم، الفارين بأنفسهم، الذي لا يملكون مالا أو جاهًا، بل همومًا لو حملتها الجبال الراسخات لوهنت وشكت من ثقلها بل علها تأبى حملها كما أبت حمل الأمانة من قبل، ويحتضر أجود كلمات السياب التي نزلت نزول الغيث العذب على الارض الصالحة.. نزلت نزولاً لائقا ببؤسهم:

مات الفضاء سوى بقايا من مصابيح الطريق

مبهورة الاضواء تنصب في جداول من بريق

صفراء تخنقها الظلال على فم الليل العميق

-٢٨-

خال مهدية السيد حسين كان فيه مسٌّ من الجنون والحكمة معًا، شيء من اللامبالاة، وكل ما غضب ــأو خيل إليهم أنه غاضبــ قال كلمته التي كانت جزء من شخصيته: طز! يرتدي الدشداشة والشماغ الملفوف على رأسه بطريقة رديئة وغير مرتبة، يدخن بشراهة، يسكن خارج سامراء على الطريق العام، كان يمتلك مطعمًا ممتازًا على طريق الفلوجة، للمسافرين والداخلين لسامراء للتجارة، ولكن داعش أرسلت سيارة مفخخة على المطعم فوئد المطعم وغدا رَّمادًا تلعب

به الريح، وكم بكى وندب وتحسر عندما شاهد مطعمه وهو يتفجر في مقطع نشره التنظيم على اليوتيوب على إنها عملية جهادية؟ بعد ذلك لم يعد يبالي بالدنيا كيفما دارت، يمتلك مالا كان قد كنزه من مطعمه، فهاجر الى سامراء واشترى بيتًا متواضعًا وسكن فيه وعمل سيارته تكسيا ولم يستسلم للحسرة بل اتبع اللامبالاة، عمره في السادسة والخمسين ومع ذلك له عبثية أبناء العشرين في كثير من الأحيان وحكم العلماء الراسخين أحيانًا أخرى. الخال حسين لم يرزق اللّه الا بولدٍ واحد وهو مصطفى الذي هاجر الى السويد بعد سقوط العراق عام ٢٠٠٣م، ولكن الخال حسين لا يحب السفر، فلم يرَ ولده منذ أحد عشر عامًا الا مرة واحدة قبل اربع سنين، وندم أشد ما يكون الندم على تلك الرحلة، إذ ركب الطيارة، ويا هول ما رأى وما شعر من رعبٍ وخوف، وحلف إن نجاه اللّه من هذا البلاء فلن يركب الطائرةً مرة أخرى، وهو ماض في بر يمينه، فعندما حصلت الكارثة المهولة في حياتهً بتفجير المطعم قبل بضعة شهور اتصل به مصطفى ودعاه أن يأتي الى السويد عنده ويعيش معه، وأخبره أن المال الذي يملكه كفيل بأن يؤمن له عيشةً رخية، لكن الخال رفض أشد ما يكون الرفض، بعد أن هاجر مصطفى بقليل توفيت زوجه فبقي وحيدًا، وشرع في البحث عن زوجة صالحة، وكلف مهدية في ذلك ولكنه وضع شروطًا قاسية للزوجة القادمة، فطلب أن تكون في الثامنة عشرة من عمرها وهو قد تجاوز الأربعين آنذاك، فلم يعثر عليها، ومضى العمر سريعًا به ولم يتدارك نفسه الا بعد بلوغ الثالثة والخمسين عندما تنازل عن الشروط كلها تقريبًا وتزوج بشرى ذات الواحد والأربعين عامًا، بقي ينتظر الولد ولكنه لم يرزق الى الآن به، الخال

حسين كثيرًا ما بكى بكاءً مرًا في الهاتف عندما يتحدث مع مصطفى، يقول له: عد، أريد أن أرى ذريتك، لكن مصطفى يرفض ذلك، ولما حدثت نكبته وتفجر المطعم وجاء سامراء تبنى كلمة تعبر عن حاله: طز.

-يا أم جواد هذه الحياة، انظري الى حالي، لا ولد ولا تلد ولا مال لدي...طز بالحياة التي نعيشها، ليتني كنتُ في المطعم ومتّ فيه!

فقاطعه أجود قائلًا:

-لمَ يا خال لا مال؟ أين ذهبت الفلوس التي كنت تجمع بها من المطعم؟

-لم يبقَ أي فلوس، كلها راحت على البيت هذا والزواج والسفرة قبل سنين الى السويد، ومصطفى هذا الذي أبعث له كل شهر..

-ألا يعمل؟

-يعمل ولكن أي عمل؟ يعمل محررًا في جريدة يومية محلية، يعني موظف بسيط وراتبه بسيط، ومعه زوجة وأولاد ماذا تكفي؟ الحياة يا خالي هناك مكلفة قد لا تعرف.. ما المئة والمئتا دولار؟ لا شيء!

كانوا قد وصلوا الى بيته في تلك الليلة الشاقة، ففتح الباب وأدخلهم في الصالون، ودخل الى الداخل، وصار أجود واخوته يلتفتون في أنحاء الصالون، كان بسيطًا لم يدخله أحد منذ مدة، وفجأة ترامت الى أسماعهم أصوات خفيضة، فوثب في ذهنهم ذلك الخاطر الذي حاولوا ابعاده، وأصاخوا السمع الى تلك الأصوات التي علت فخجلوا؛ كانت أصوات الخال

حسين مع زوجته التي غضبت لأنه أتى بهم الى هنا، وتعالت الأصوات فاعتلجت نفس مهدية بالقهر الذي أبى أن يبارحها.. ولكن إن طردهم خالها أين يذهبون في هذا الليل؟ الساعة العاشرة والنصف..

-يعني سيبقون عندنا الى متى؟

-أقول لكِ بنت أختي مهجرة هي وعيالها ووصلت توًا وتقولين متى يذهبون؟

فقالت بغضب:

-لا استعداد عندي لأخدم أربعة أنفار لا أعرفهم، فليؤجروا بيتًا، البيوت كثيرة، ادفع لهم أنت الأجرة.

-قبحكِ الله من امرأة رعناء، اذهبِي الآن واطبخي طعامًا وإلا لن تبقَي اليوم هنا هيًّا.

ثم جاء الخال مرتبكًا، فقال:

-بشرى طيبة لكن فيها عرج جنون، هي لا تعرف قدر الناس، وقصتها قصة لم أعرف قصتها الا بعد أن تزوجتها، يعني فوق الأربعين ولم تتزوج، أنا ـــ وهذا من غبائي ـــ لم استفسر أو أسأل لماذا لم تتزوج الى هذا العمر، تعرفين يا أم جواد ما كنت فيه من حالة كئيبة، كنت أحتاج لامرأة تداريني وتحمل عني هموم هذه الحياة، بعد أن تزوجتها تبين أن فيها حالة نفسية وانطوائية لم تلتقِ برجل لسنين طوال، وكانت ترفض أن تتزوج، الى أن كبرت وولى شبابها حتى تداركت نفسها وقبلت بي، فلما أخذتها أنا عادت لها تلك العادة السيئة والانطواء والغضب من الضيوف أو الغضب من أي بشر كان، حالة عصبية وستزول لا تقلقي..

كانت مهدية وأولادها يهزون رؤوسهم موافقين وهم يعلمون أن الخال بدأ يكذب أو يدلس الحقيقة ليغطي على ما سببته زوجه من إحراج، يعلمون أنه لا يتورع عن الكذب لينقذ نفسه لكنهم لم يعترضوا أو يجيبوا بغير الدعاء بالشفاء لها، لأنهم إن انتصروا لكرامتهم فورًا يعني يخرجون بلا مأوى في ليل سامراء المخيف بعد أن حان وقت منع التجول! وضعت الطعام، كان بسيطًا، عبارة عن باذنجان وبطاطة وطماطة مقليات مع الكبة، وكان وجه بشرى عبوسًا سلمت عليهم بتكلف. وضعت مهدية رأسها على الوسادة وهي تفكر، في الغد يجب أن تجد بيتًا لتكتريه، فليلة واحدة من الذلة كافية، (زوجته تضع لنا هذا الطعام ونحن الذين كنا نذبح خروفًا كلما أتى، أي يا خالي بعد انتظار أكثر من عقد بعد أم مصطفى رحمها اللّه أتتك هذه الشمطاء وفوق هذا تدافع عنها.) هذا آخر خاطر قبل أن تستسلم للنوم بعد بذلك اليوم الطويل.

في اليوم التالي ومنذ الصباح الباكر ركبت مهدية مع خالها وأجود معهم باحثين عن بيت مناسب يكترونه، فقال الخال حسين وهو يتجه نحو صديق له صاحب محل عقار:

–مهدية، كم هي قدرتك، يعني كم تدفعين في الشهر؟

–واللّه يا خال أنت تعلم الحال، مائة ألف هذا ما أستطيع دفعه.

فقال ذاهلًا:

–مائة ألف!!

–ما بها؟!

–قليل جدًا، الايجارات هنا صعدت صعودًا فاحشًا، خاصة

بعد دخول هذا الكم من النازحين، لا تحسبي فقط من حوالي سامراء، بل من تكريت .. الموصل.. ديالى.. حزام بغداد.. اضافة الى الكثير من متطوعي الحشد استقرت عوائلهم هنا.. والكثير من أفراد الجيش انتقلت عوائلهم من الجنوب الى هنا، الإيجارات هنا من المائتين وخمسين ألفًا فما فوق، وهذا الحد الأدنى.

-أف! والله كثير يا خالي، يعني مدينة مثل سامراء بائسة لا خدمات لا شوارع مثل باقي المدن وهذه الايجارات، والله لو ذهبنا الى أربيل أفضل.

-أربيل!! ها ها ها ها، لم تعلمي إذن ما يعاني النازحون العرب هناك، قد استغل الأكراد هذه المحنة، يريدون أن ينعشوا اقتصادهم من وراء هؤلاء المساكين الفارين بجلودهم، أليس كفرًا أن يؤجر بيت لنازح في الليلة الواحدة مائة دولار؟ سألت صاحبي ذهب الى هناك قال لي أنه استأجر شقة صغير في أربيل بألف دولار شهريًا، أنسي كاكا مسعود يوم ضربهم صدام؟ هاجروا إلينا.. الى سامراء والأنبار فآويناهم والى الآن توجد بقايا أكراد معززين مكرمين وعشنا معهم كإخوة، وهم ماذا فعلوا؟ اذهبي الى سيطرة أربيل وشاهدي الناس، لا يدخلون أربيل الا بإقامة وأمور أخرى. طز بهذا الوقت الذي جعلنا نستجدي الناس.

-أزمة وتمضي إن شاء الله.

-مهدية أنا سأعطيك شهريًا خمسين ألفًا مساعدة مني، وسامحيني لأن وضعي متعب ولا عمل لي الا على التكسي، ذهبت أيام زمان ... أيام المطعم.. كنت أجني الملايين.. الحمد لله على كل حال.

-شكرًا خالي.. أنت معذور.

وصلوا الى محل العقار، فوجدوا رجلًا هيئته تنمُّ على أنه شحاذ، وما أن رآه الخال حسين حتى قال:

-لا حول ولا قوة الا بالله.. من الصباح؟

فقال ذلك الرجل:

-احترم نفسك أيها الشيخ، أنا صاحب مُلكٍ، وعندي عمل مع صاحب المكتب.

فقال الخال هازئًا:

-أنت صاحب ملك؟! اذهب واشترِ قميصًا وسروالا كالناس ثم تكلم عن الملك. عمت عين الملك الَذي لم يرتبك.

-وكم أنت مرتب، انظر الى وجهك .

-ما به وجهي؟

فأتى صاحب المكتب ورحب به وأدخله، فقال الخال:

-نريد بيتًا للايجار مناسبًا لبنت أختي هي وعيالها، أريده صغيرًا ورخيصًا.

-عند هذا الرجل بيت صغير وسعره ملائم!

فأشار الخال الى الرجل الذي تعارك معه قبل قليل وقال بازدراء:

-هذا؟!

-أجل.

كان البيت يتكون من غرفة طينية كبيرة وداخلها غرفة صغيرة

فقط، وحوش كبير ولكنه ما زال ترابًا. فهمس الخال في أذن مهدية: هذا مناسب لكم، على الأقل في هذا الوقت، وموقعه ممتاز.

فقال صاحب البيت:

-كنت أريد ايجاره بمئتين وخمسين الفًا، ولكن بما أن هؤلاء نازحين فسأجعلها مئتين، وأريد أن اكسب بهم أجرًا لأخرتي.

فقال صاحب مكتب العقار:

-هذا كثير عليهم، والبيت لا يستحق مئتين. ثم أنك تريد أجرًا للآخرة.

-ولا تنسَ نصيبك من الدنيا.

فقال الخال:

-أيها الجشع لم تترك شيئًا لآخرتك.

-أنت الجشع ..

فقال صاحب المكتب:

-يا حاج حسين كم تدفع؟

-مائة ألف لا غير.

-زد قليلا.

-لن أزيد درهمًا واحدًا، والبيوتات كثيرة.

فقال صاحب البيت:

-مئة وخمسون وهذا آخر كلام.

-طز، لا نريد ايجاره، إنه غالٍ.

فقالت مهدية:

-أيها الرجل، سنعطيك مئة وعشرين ألفًا، ما قلت؟

-لأجلكِ فقط يا سيدة، وبما أنك طيبة سأوافق.

-شكرا.

وحملوا أغراضهم الى البيت في ذلك اليوم ولم يكن به شيء، فأعطاهم الخال بعض البسط البالية واشترى لهم ما يحتاجونه من طعام كالأرز والطحين والعدس، وكذلك اشترى لهم الخال من المطعم طعام العشاء، وبقي معهم الى الليل فكان ذلك كرما منه لم تنسه مهدية فيما بعد، بل بقيت تحبه وتعزه دون سائر أقربائها حتى بعد أن بعد عنها .

-٢٩-

الركون الى الماضي عذاب، والذكرى نار قاسية، ولولا النسيان لكانت شيئًا لا يطاق. في اليوم التالي دخلت عليهم الجارة الملاصقة لهم، أم بسام، تعرفت عليهم، وأخبرتهم أنها ستعد طعام العشاء لهم. أم بسام سيدة طيبة لكنها تشكو من زوجها دومًا، فهي على الرغم من بلوغها الثامنة والأربعين الا أنه يجبرها على لبس الخمار أينما ذهبت، لم يخرجها يومًا معه، سَمته: معقدًا. وهذا معها فحسب، أما إذا خرج فتراه مرحًا، بل هو معلم وله صداقات مع المعلمات، ومن يره وهو في المدرسة وكيف يمزح ويمرح معهن يخاله في البيت كذلك، ولكن ما أن يدخل البيت حتى تراه متجهمًا عابسًا لا يتحدث فضلا عن أن يمزح. ولما كبرت بنته نوار ودخلت كلية التربية قسم التاريخ لم يجبرها على لبس الخمار أو العباءة أو الجبة

كما اجبر أمها، بل تركها في سفورها تغطي شعرها بشال فضح أكثر مما ستر وأغرى أكثر مما منع، ولكن أبا بسام لم ينهها، بل كان يراه تحضرًا وتقدمًا وحريةً! كان تدين أبي بسام منقوصًا، فولده بسام طالب في المدرسة الدينية وهو محافظ على صلاته، يعرف الحلال والحرام، ولكنه أبخس حق زوجه، وفرض عليها ما لم يفرضه على ابنته، وهذا ما جعل أم بسام تشكو الى أم جواد ما تعانيه وكيف أن زوجها يأخذ ابنته وابنة أخية الى المطعم ويتركها هي وحدها، وكيف يفرض عليها قوانين ظالمة في سبيل المحافظة عليها، ما جعل أم جواد كلما رأت أم بسام حمدت الله وقالت: من رأى مصيبة غيره هانت عليه مصيبته. ولكن بتول سخرت من أمها وقالت:

-انظري الى بيت أبي بسام كيف يعيشون ونحن كيف نعيش، انظري الى بيتهم وسيارتهم الفاخرة، بل الى نوار ولبسها والى بسام ..

-وما بها عيشتنا؟ الحمد الله، نأكل أحسن مما يأكل الكثيرون، بل الكثير لا يملكون قوتَ يومهم، فإذا تغدوا لم يتعشوا، وإذا تعشوا لم يفطروا، وأنت ما شاء الله تأكلين اللحم مرة في الشهر وتأكلين الدجاج، وغدًا وإذا يسر الله وعطفت الحكومة علينا وأعطتنا راتب جواد ستكون عيشتنا عيشة ملوك.

-ملوك!!!

-يا بنيتي ماذا يريد الانسان أكثر من طعام يشبعه ومسكن يأوي إليه؟ مهما ملكتِ من نقود وأملاك فلن تنامي على سريرين ولن تأكلي أكثرَ مما تأكلين، ثم إننا بحمد الله هنا في أمان.. وهذه نعمة عظيمة في هذه الايام.

فقالت وهي حالمة:

-يمَّة لمَ لا نذهب الى تركيا؟

-تركيا !!

-اي، ألم يهاجر معظم الناس الى تركيا ويعيشون هناك، نذهب ونسجل على اليونسكو، ونعيش كما تعيش الخلق.

-العيشة هناك غالية، ونحن لا نملك مالا حتى ذهب ونعيش هناك.

-ماما، الذهب الذي عندك نبيعه ونسافر الى تركيا.

-الذهب أريد بيعه لنشتري به أرضا، والفلوس القليلة التي نملكها نريد أن نعيش بها الى أن نجد شغلة لأجود وجودت، أو نستلم راتب جواد، وإذا قبضت راتب جواد للشهور السابقة سأبني لنا غرفة وغرفة معيشة على الأرض الصغيرة التي سأشتريها عندما أبيع ذهبي ونتخلص من محنة الإيجار.



أجود عرف بساما جارهم، وإذا به في الصف السادس في المدرسة الدينية، بسام قصير القامة ولكنه وسيم، شاربه خفيف اشقر، ولكن على شقاره ووسامته تلمح فيه وجعا عراقيا دفينا، قال إن أصولهم بغدادية وجاءوا سامراء بعد سقوط بغداد ٢٠٠٣، والشيء الآخر الذي رآه أجود في بسام أنه محبوب للكل، الكل يقترب منه ويحب صحبته حتى الصغار يحبونه، ذلك لأنه وديع، ومن يره يتوقع أن أخته حسناء لم ينجب الدهر قرينتها، لكن نوار أخته كانت متوسطة الجمال، حتى نوار نفسها تتحسر وتقول: (لمَ لم أخلق جميلة مثل بسام)؟ يصغر أجود بسنتين ولكن فيه ذكاء ونباهة ممزوجين بسذاجة طيبة، فهو طالب مجتهد مطيع، وأول سامرائي

يتعرف عليه أجود عن كثب، بعد أيام أخذه الى المدرسة ليكمل أجود الصف السادس فهو نجح من الصف الخامس وسقطت تكريت، وجاء قرار انه يحق للطالب من أية مدرسة أن يلتحق بأقرب مدرسة عليه وكان أجود قد أوصى بسامًا في أول تعارف بينهما أن يسأل المدرسة، فأجابه أنه يحق له الدوام معه. في اليوم التالي خرج أجود من بيته ودق باب بسام، فقال له: أخرج بعد دقائق. وقف أمام بابه ينظر الى زقاقهم البسيط، بيتهم أقل البيوت، ولكن باقي البيوتات أيضًا متعبة، لعل بيت بسام أفضلها، فأخذ يعاين البيت وينظر في أرجائه الى أن رفع رأسه الى الطابق العلوي فلمح بسرعة خاطفة ستارة النافذة تغلق! كانت ترمقه اذن، تراقبه بهدوء، كيف رأته؟ كيف لمحت نظراته الفاحصة المستوحشة وهي تتلصص على الزقاق بفضول؟ علها تكون ساحرة.. وما أن غرق في التفكير حتى بزغت أمامه رحمة كجرح نغص عليه عيشته، هي الحاضرة الغائبة، هي المسيطرة علَى قلب ولكن فجعته بالغياب، هي الآن كسراب؛ أراه من بعيد فأوقن أنه قريب قريب.. بل بمتناول اليد ولكن إذا اقتربت من ذلك السراب سرعان ما تلسعك الحقيقة وتصفعك قائلة: رحمة رحلت ولن تعود. تُرى أين هي الآن؟ ما زالت القرية آمنة هادئة؟ أم أدركتها طائرات التحالف فدكت المنازل على أصحابها!! إنه لشعور مروع التفكير فيما سيؤول إليه أمر القرية إن دخلها الجيش، والأشد منه رعبًا هو: ماذا سيفعل التنظيم إن هجم عليه الجيش؟ ورحمة ما مصيرها؟ ماذا فعلت يا عم سعيد، كيف فرطت بابنتك واجبرتها تقترن بذلك الداعشي..كيف؟ ليت جوادًا تخلص منك ووضع رصاصة في رأسك عندما هددك في ذلك اليوم، ولكنه كان طيبا.. لن يفعلها .. وليته

فعلها وطشر ذلك الرأس .. ليته.

-أجود.. تأخرت عليك.. عذرًا. قالها بسام وهو يغلق الباب خلفه، كان أنيقًا، يرتدي قميصًا أبيض، وبنطلون قماش وسترة خفيفة مناسبة لجو أول الشتاء.

بينما كان أجود يرتدي لبس الملابس الدينية الذي كان شائعا؛ آنذاك: دشداشة سوداء أو أي من الألوان الغامقة، وتلك الكوفية البيضاء بديلة العمامة، وسترة، هذا لبس الشتاء، أما الصيف فدشداشة بيضاء مع الكوفية البيضاء. فقال أجود مستغربًا لبسه:

-ما هذا؟ لمَ ترتدي هذه الملابس؟

-وماذا ترتدون اذن؟

-هذه الملابس غير مرغوب فيها، خوفًا على أنفسنا، إنها تثير الرعب، والذي لا يخافون الله كثر..

-وما علاقة الزي؟

-يا أخي كل شيء له علاقة بالدين بدا مثيرًا للشبهات، حتى المدرسة منعت هذا الزي واستبدلناه بالبنطلون والقميص، إيثارًا للسلامة.

-والان ماذا أفعل؟!

-انزع هذا (الكبع) وضعه في جيبك، ومن الغد لا تلبس الدشداشة بعد.

-٣٠-

المتدينون والفقهاء وأئمة المساجد في خطر وخوف دائم هذه الأيام، صاروا يشعرون أنهم المستهدفون الوحيدون من هذه الزوبعة، قليلون هم الثابتون، ما أن حصل ما حصل وسقطت تكريت حتى فرَّ الكثير من المتدينين وحفظة القران وطلاب العلم الى خارج العراق أو الى كردستان مؤقتًا.

(لما كنتم أنتم تعانون تحت ظلم داعش ومنقطعون عن العالم هنا في هذه المدينة كنا نعيش عذابًا آخرًا، قد يكون أشد من مما تعرضتم له، صرنا كلنا متهمون في نظر الدولة، صرنا مصدر قلاقل وزوابع، والريح عاتية تزمجر وتقتلع كل شجرة واهنة، الاغتيالات.. الخطف.. التصفية.. الاعتقالات العشوائية .. المظاهرات والاعتصامات لها أثر كبير، بل هي الشرارة، والقائمون عليها هم علماء الدين، لذلك كل الذين كانوا يقفون قادةً طالتهم يد الاضطهاد، منهم من نجا بنفسه ففر قبل سقوط الموصل عندما تأزم الوضع، وذلك عندما تم تصفية الكثير من أصحابهم مما أنذر بشر قادم، بل صدرت في حق معظمهم مذكرات إلقاء قبض، وإن قتلت فمن يسأل عنك؟ الهرب والهجرة يا أجود طريقان آمنان لضمان حياة طيبة بعيدًا عن الخوف والتوجس من القادم، بل الثورات التي تداعب نفوس أبناء شعبنا، انظر الى تاريخنا منذ تشكيل أوّل برلمان، كم مظاهرة خرجت؟ وغالبها مطالب سهلة، ولكن نحن نعيش مع لصوص استولوا على الدولة، والآن وبعد أن ظهر عدو شرس أتت الدولة ثانية وتريد أن تدفع بـ «ولد الخايبة» الى أرض الموت، العراق أضحى بلدا لا يصلح للعيش، انظر الى تاريخنا بعد سقوط نظام ٢٠٠٣، كم حرب وكم معركة دخلنا وكم من الدماء خسرنا؟ وسنخسر هذه الأيام أضعاف

ما خسرناه في تلك السنين، إنها الحرب التي تحصدنا، تفتك بنا بلا هوادة، نحن شعوب مسحوقة يا أجود، نعيش أزمات لم تعشها الأمم المتخلفة في العصور الأولى، في بلدنا قد تُرمى خلف أسوار القضبان بسبب كلمة تفوهت بها، أو زي ارتديته أو شكل، فما بالك لو طرحت فكرة أو مشروع بناء دولة ونظام جديدين؟ هم يخافون من متظاهر قد ينم عن فكرة تهدد ملكهم، فكيف لو أعلنت أو تبنت تلًك الفكرة؟ إن ما حصل فينا يا أجود وما تراه ليس من جرم ارتكبناه، مجرد أن ظهر صِدامٌ بين فكرتين، فكرة بديلة لدولة الاضطهاد والاستبداد ونِظام المحاصصة الطائفية، وقد تجلى هذا الصدام وظهر على شكل (اعتصامات)، إننا ببساطة ضحايا تلك الفكرة! إذا أردت أن تعيش في العراق عليك أن تمشي جنب الحائط وتقول: يا رب سترك. لأن بلدنا هو ملك لمن كافحوا وطاولوا النظام المستبد، والمحتل الغاشم، والتنظيم، سنبقى نخرج من حربٍ الى حرب، والذي قادوا تلك الحرب وانتصروا عليهم أنٍ يأخذوا الوطٍن وكأنه ملك لآبائهم، تسعون بالمائة من ساستنا ليسوا بمعارضة لنظام بائد، بل كانوا صعاليك في أوربا يعيشون على مساعدات تلك الدول، فلما سقط النظام ودخلوا العراق وزعموا أنهم معارضة وكانوا مكافحين ومجاهدين ضاع البلد، وسيطروا على مقدراته، لقد وسد الأمر الى غير أهله وهذه النتيجة، كالمستجير من الرمضاء بالنار، البلد هذا لا يصلح للعيش بتاتًا).

قالها بسام يائسًا. فزفر أجود بحزن بعد أن زادت همومه وهو يسمع صديقه الجديد وهو ينبئه بواقع مدينته وبلده المرير، كانا قد قطعا نصف الطريق الى المدرسة مشيًا من خلف سوق مريدي الى مكان الثانوية جنب جامع الرزاق، وقد

قرر بسام أن يأخذه مشيًا على الأقدام لسببين؛ الأول أن جو سامراء في الشتاء ـــ غالبا ـــ يكون معتدلًا ربيعيًا وهم في بداية الشتاء فالمشي يشرح النفس، والثاني ليرشده الى مكان المدرسة ويتعرفان على المدينة عن كثب، بسام يمتلك دراجة نارية يجيء بها الى المدرسة ولكنه استغنى عنها اكرامًا لأجود في هذا اليوم.

-أنتم لا تقلون عنا بشيء، تعانون مما نعاني بل قد يزيد! (قال أجود).

فتبسم ضاحكًا:

-وَطَنُكَ كُلُّهُ كذلك، لا تحسب الذي في الجنوب أقل منا بؤسًا وضنكًا، بل يعانون كما نعاني، الجنوبيون هم العيس التي تحمل الماء على ظهرها ولكنها تموت من العطش، يضحون بلا جدوى، لا مكافأة لهم من دولتنا الرشيدة الا تعويضات باهتة لا تسد ايجارات بيوتهم لسنة واحدة، ولنفرض جدلًا أن تلك الملايين العشرة التي تزعم الدولة منحها لضحايا سبايكر والإرهاب ستكفي ذوي الفقيد لسنة، وماذا بعدها؟ يبقون عرايا أمام زمجرة الحياة، يتيهون في وطن سرعان ما سينفيهم ويلفظهم، بل إن رفض هؤلاء الساسة أو تظاهروا ضدهم سيكيلون لهم التهم كما كالوها لنا، لدولتنا وجه مرعب، لم يرَه الشعب بعد، ونحن الآن نعيش ذلك الرعب، فقل لي بربك ماذا بقي من تلك المحافظات التي طرحت الفكرة البديلة؟ ماذا بقي منها وهي التي رفضت الاستبداد والاستعباد؟ هي التي رفضت أن يتحول الوطن كقطعة أرض يملكها حزب واحد.. ديالى تلاشت وابتلعها الموج وهي الآن ضائعة بين التنظيم والدولة، ساحة حرب، أما أهلها فبين

نـازح مقيـم فـي المخيمـات وبـين مهاجـر لاذ ببلـدٍ غيـر بلـده.. الأنبـار سـقطت وضـاع أهلهـا.. الموصـل هـي الجـُرح المكلـوم .. صـلاح الديـن لـم يبـقَ بهـا الا سـامراء البائسـة ومـا سـواها أنـت أعلم بـه... يا أجود الوطـن أنكرنـا كمـا أنكـرت قريـش نبيهـا ذات يـوم، نحـن فـي غربـة.. نحـن المسـالمون لا مـكان لنـا هنـا.

فقال أجود وقد تأثر بكلامه:

-قد زينت لي الرحيل وكرّهت لي الوطن!

-لأن الوطـن تنكـر لنـا، والرحيـل بـاب مشـرع وقـد تعـددت مسـالكه، قـد تفلـح وتجـد الخيـر والاطمئنـان وقـد تخفـق ولكنـك لـن تمـوت، أمـا فـي الوطـن فالطريـق واحـد، أهونـه أن تعيـش عاطـلا بـلا عمـل وتصـارع الفقـر.. لا وظيفـة لا مهنـة صالحـة لا مسـتقبل فلـم العيـش..؟

-....!!!

-يحـز فـي نفسـي سؤال يـا أجـود، أريـد لـه اجابـة شـافية... مـا الـذي قدمـة الوطـن لنـا؟ لمـاذا نحبـه أصـلا؟

-الانسـان مفطـور علـى حـبِّ موطنـه ومنشـأه.. مفطـور علـى الحنـين الـى البقعـة التـي عـاش صبـاه، قـد لا تكـون جميلـة ..

فقاطعه بسام قائلا:

-ولكنها حتمًا ستكون أجمل من حاضرنا!

-بالتأكيد.

-مـا فائـدة الوطـن والذكريـات ومراتـع الصبـا وقـد خسـرت أحبتك أو فقدتهم؟ خسـرت من كانـوا يزينـون تلك الأماكن التي تحـن إليهـا، الوطـن ليـس ترابًـا فنحبـه، أو أطـلالا باقيـة فنبكـي

عليها أو أرضا فقدناها فنحن إليها، لا، الوطن بأحبتنا وأهلنا، الوطن حيث تسطيع أن تمارس حقوقك، والأهم حق العبادة والعقيدة والفكرة، فإذا اختل واحد من تلك لم تبق للأرض قيمة، وأنظر الى النبي صلى الله عليه وسلم عندما رفضه بلده بعد طول الصبر والمصابرة، سار معهم بأناة أقرب ما تكون للبطء لعل الله يهديهم، فلما ايس منهم بعد أن اضطهده قومه هو وصحبه هاجر وكانت مكة مقامهم ووطنهم الذي مارسوا به حريتهم العقيدية والفكرية وأسسوا دولتهم.

فقال أجود كلمة غسان كنفاني التي قرأها في رواية (عائد الى حيفا):

-»أتعرفين ما هو الوطن يا صفية؟ الوطن هو ألا يحدث ذلك كله »

-تمام تمام.. لكن من صفية؟

-بطلة الرواية.

-أي رواية؟

-عائد الى حيفا.. ألم تقرأها؟

-لا اقرأ هذه الكتب.

-رواية مهمة عن القضية الفلسطينية، بل أهم ما كتب في الأدب عنها، يا بسام هذه الرواية على صغرها إلا أنها ترسخ القضية الفلسطينية في القارئ ما لا ترسخه الشعارات العاطفية التي سرعان ما يزول أثرها .. الحكاية فن عظيم لترسيخ أفكار مهمة وتعرضها ببساطة.

-يبدو أنك ستجرفني معك في قراءة هذه الحكايات.

-الصاحب ساحب كما يقولون.

كانا قد وصلا باب المدرسة، مدرسة حديثة البناء كبيرة، اسمها (مدرسة المعتصم بالله الاسلامية)، فقال بسام وهما يدخلان المدرسة ويلقيان التحية على البواب والحارسين:

-مدرستنا اسمها (الامام علي الهادي الاسلامية) لها ماض عريق، قيل أنها تأسست بأمر من السلطان عبد الحميدً الثاني عام ١٨٩٦ م هنا في سامراء، ولكن ليس هذا موقعها، موقعها قرب الجامع الكبير عند الامام، ولكن الأوضاع خطرة هناك لذلك ندرس هنا.

-واين المدرسة الأخرى؟

-اليوم دوامها مسائي ونحن صباحي مناصفة بين المعتصم وعلي الهادي.

-أنتم السوامرة يقوم تاريخكم على هذين الرجلين.

-أنا أصلي بغدادي.. وتاريخ بغداد يقوم على رجال كثر.

صعدا الى الطابق العلوي ودخلا الى (الإدارة) وهي عبارة عن ممر تتفرع منه غرف الادارة، وما أن أتما اجراءات التسجيل والتي لم تتطلب الا ابراز الهوية واسم المدرسة وهم يتكفلون برفع الاسم الى دائرة التعليم، فدخلا الصف، وكان في الصف عشرة طلاب، اخبره بسام أن صفهم صغير وهم مرتاحون به، بل كالعائلة، متحابين، رأى أجود اختلافًا كبيرًا عن تكريت وقريته، بل خرج في ذلك اليوم وهو يعج بالأسئلة عن هذا المجتمع الذي بدا مختلفًا، فهنا من النادر أن تجد سلفيًا ملتحيًا ويرتدي ثوبًا قصيرًا علمًا إن هذه المشاهد مألوفة في تكريت وعادية جدًا، سأل أجود بسام وهما يذرعان الطريق عودة، أجاب:

-هنا ينتشر التصوف، والكثير من التصوف فيه غلو، وهؤلاء أصحاب الطرق الصوفية التي فيها مغالاة يبغضون السلفية والوهابية أيما بغض، هذا ظاهر الأمر، ولكن السلفية لا يستطيعون أن يعلنوا عن سلفيتهم، لأن المجتمع هنا سينكرهم، يرونهم سبب بلاء وداء التطرف، بل لم يعرفوا وهابيًا الا ونصر التشدد الذي يرفضونه، يعني ينكر عليهم الاحتفال بالمولد النبوي، ويعد التوسل بالأولياء كفرًا، وهنا إذا فقد الولد مسكوا باب علي مستنجدين.

فقال أجود في نفسه : كما تفعل أمي.

-يعني أنتم كفرة في نظرهم؟

-هكذا نسمع.. ولكنهم لم يذوقوا جو التكايا، لها طمأنينة تشف الروح.

-تكايا؟!

-أجل! ألا تعرفها؟

-أعرفها ولكن لم اذهب إليها يومًا.

-نذهب اليوم الى التكية، تروح؟

-٣١-

-اعمل يا خال، أليس أفضل من أن أمدَّ يدي للناس وأقول لهم اعطونا؟

هكذا قالت مهدية لخالها عندما زارهم فوجدها هي وبتول تخبز في الحوش. لقد قررت أم جواد أن تعمل خبازة للبيوت هي وابنتها عندما أبدى أجود وجودت رغبتهما في استكمال

الدراسـة، ولـم تكن تـرى فـي ذلـك بأسًـا، خاصـة وإنهـم لـم يكونـوا يعيشـوا فـي قريتهـم عيشـة المرفهـين المنعمـين، فهمـا تعمـلان أعمـالا أشـق مـن الخبـز وأكثـر، كان عليهمـا حلـب البقـرات والأغنـام والماعـز، وتحويـل الحليـب الـى لـبن وزبـد وقيمـر، وعملهـن فـي موسـم الحصـاد.

-أنتِ ما زلت مريضة، ويدكِ لم تشفَ تمامًا.

-يـا خـال هـو خبـز، ولا تخـف علـى يـدي تحسـنت كثيـرًا، جزاهـا اللّه خيـًرا أم بسـام دفعـت لـي طحينهـا، وإن شـاء اللّه بعـد فتـرة قصيـرة تعرفنـي النـاس وتخبـز عنـدي، أنـا لا أريـد النـاس أن يتصدقـوا علـيَّ وعلـى عيالـي، أريـد أن أعمـل، لا أريـد الذلـة، أشـعر أن الأمـوال التـي تصلنـي مـن الصدقـات والمسـاعدات مرفوعـة عنهـا البركـة، لا أعـرف أيـن تذهـب وكيـف تدخـل.

فقـال خالهـا وهـو يرتشـف كأس الشـاي وشـمس الشـتاء الوديعـة تسـطع عليـه ويتابـع مهديـة وكيـف تـدور العجينـة بيدهـا بمهـارة:

واللّه يا مهدية أنتِ تتعبين نفسكِ وتحبين أن تتعبيها.

-الراحـة ثقيلـة علـى النفـس، تسـترجع بهـا الذكريـات البعيـدة، حتـى وإن كان إنسـانًا خامـلًا متقاعسًـا، فكيـف بـي وأنـا التـي كنـتُ دائمـة العمـل لا تعـرف القعـود، وكيف بي بهـذه الذكريات القريبة؟ صدقنـي يـا خـال أنـا أحمـل هـم الليـل، أشـعر أنـه يخنقنـي، أشـعر أن لـه أنيابًـا، أنـا لا أنـام فـي الليـل الا سـاعات قلائـل، أمـا باقيـه فأقضيـه فـي بكاء واسـترجاع البعيديـن الراحلًين، مـا تعرضنـا لـه شـيء لا يصـدق، كل الـذي أريـد أن أعرفـه: لمـاذا حصـل لنـا هـذا؟ لمـاذا هجرنـا حتـى ضاقـت علينـا البـلاد؟

-تصدقـين لـو كنـت أعرفـه مـا بقيـت هنـا؟ لـو كنـت أعلـم أن لـي

ذنبًا يستوجب هذا العذاب لفررت منه، ولكن هذه الأيام تفعل ما تشاء.

-أنت لا ذنب لك يا خال..

فأنزل الكأس دون أن يرتشف، وحملق بها:

-ماذا تقصدين؟

-أنت قلت لا ذنب لك.

-أي؟!!

-لا شيء.

فقال وقد استشاط غضبًا:

-قسمًا بالذي رفع السماء بلا عمد إن لم تقولي لي ما تقصدينه فلن أدخل بيتك هذا ثانية ولن تكلم معك!!

-استهدِ بالرحمن، وصلِّ على النبي.

-اللهم صلِّ على سيدنا محمد، قولي.

فقالت بأناة وحذر:

-أمي رحمها الله تعالى قالت لي في سالف الأيام أنك.. يعني كنا نتكلم ..

فقاطعها مهتاجًا:

-قولي بسرعة.

-قالت أنت كنت تجلب أغراضًا من الكويت في الحرب وتبيعها بثمن بخس، وبقيت طول أيام الحرب على الكويت تسرق بيوتاتٍ الكويتيين وتبيعها هنا بثمن بخس، الى أن كونت

ثـروة معقولـة وفتحـت فيهـا مطعمـك الـذي ـــمـا شـاء اللّه وبـلا حسـدـــ در عليـك أمـولاً طائـلاً فأنفقـت علـى ولـدك فـي السـويد سنًين طـوال، وتمتلك أراضـي زراعيـة، ومطعمـك الـذي طورتـه وكبرتـه..

فصرخ بها بعصبية وقد احمر وجهه:

-تحسدينني في مالي الذي ذهب فكيف لو كان بعده!!

-يا خال أنا لا أحسدك، أنت أصررت عليَّ.

فقام وهو يقول:

-صحيح الأقارب عقارب.. لم أرَ منهم خيرًا..

فقامت تلحق به وهي تقول:

-يا خال أعصابك.. ابقَ على الغداء..

-لا بارك اللّه فيكِ يا بنت الـ... طز ..

-حرام عليك أبي ميت.

فخرج وركب سيارته وإذا بأجود وبسام يتهاديان نحوه ومر من أمامهم مسرعًا وكانت الأرض طين فثار الطين خلف سيارته ولاح أجود وصاحبه!

فدخل أجود البيت متسخ الثياب، وقال لأمه:

-ما به خالي؟

-مجنون، ألا تعرفه؟



كانـا يسـيران فـي ظلمـة قاتمـة، الكهربـاء منقطعـة كالعـادة

والبيـوت مضـاءة علـى المولـدات بأضـواء باهتـة، الظـلام هنـا مخيـف، بعد التاسـعة تخلـو الأزقـة الا مـن الذيـن يمتلكـون نصيبًـا مـن الشـجاعة، حتـى اللصـوص هنـا شـبه معدومـين، لمـاذا يخـرج للسـرقة فتأتيـه رصاصـة طائشـة وسـرعان مـا سـيكتب عنـه أنـه ارهابـي أرعـب المسـاكن الآمنـة؟ وإن قبـض عليـه سـتتلقفه تهمـة «أربعـة ارهـاب». كل شـيء هنـا الا تهمـة الارهـاب، حتـى الذيـن سـجنوا مـن قبـل بهـذه التهمـة أعادوهـم، مـن عليـه هـذه التهمـة فهـي وبـال وشـر يمحـق صاحبـه، وهـم علـى أيِّ حـالٍ يهربـون ويغيـرون مسـاكنهم بـل يهجـرون هـذه المدينـة البائسـةً المكتظـة بالجيـش والآمـن والمتطوعـين للحـرب. يقصـدون التكيـة والشـيخ كمـا اتفقـا، وإن كانـت التجمعـات غيـر آمنـة وتسـتجلب العيـون المتجسسـة والفضوليـة والذيـن «لا يخافـون الله» كمـا يعبـر شـيخ التكيـة عنهـم، ولكـن تجمعـات الصوفيـة فـي التكيـة للذكـر والمديـح لا تثيـر ــــعلـى الأقلــــ النظـرات المريبـة التـي تثيرهـا الـدروس الفقهيـة فـي المسـاجد والتـي انقطعـت الآن بسـبب تلـك الريبـة التـي تثيرهـا. بـل كثيـر مـن ذوي القـرار والضبـاط الكبـار مـن كلا الطائفتـين يؤمنـون ببـركات الذكـر والروحانيـة التـي تشـع منهـم، وقـد شـاع فـي تلـك الأيّـام أن ضابطًـا أصيبـت أختـه بمـسٍّ لـم يشـفها الطبيـب ولا حتـى السـاحر الـذي لجـأ إليـه، فقالـوا لـه يوجـد شـيخ فـي السـجن يرقـي فيُشـفى الممسـوس أو المسـحور بإذن الله! هـرع الضابـط الـى ملفـه فـرأى قضيتـه جسـيمة كبيـرة، إذا هـو خطيـب مـن خطبـاء الاعتصامـات المفوهـين، وقـد تجـاوز الخطـوط الحمـر فـي خطـب الجمـع، تلـك الخطـوط الحمـر لـم تكـن تحريضًـا علـى القتـل كمـا هـو الأمـر الخطيـر عنـد الأمم المتزنـة، بـل صـرح ولـوح بالقـادة الكبـار وصـرخ بفسـادهم متجـاوزًا كل الخطـوط الحمـر، سُـجِنَ بهـذه التهمـة الكبيـرة، ذهـب إليـه

وطلب منه أن يرقيها ويسهل أمر الإفراج عنه، ورقاها وإذا بها تتماثل للشفاء بإذن الله على يد ذلك الشيخ الذي خرج فيما بعد من السجن، قيل أنه دفع أموالا طائلة وقيل بل أخرجه ذلك الضابط من تلك التهمة الكبيرة.

دخلا التكية وكانت عبارة عن ديوان كبير وكتبت على جدرانه أسماء الله الحسنى وعلى أركانه أعلام خضر مكتوب عليها كلمة التوحيد، ومكتبة، ودفوف موضوعة لغرض المديح.

وسرعان ما بدأ المديح، رجل ذو صوتٍ شجيٍّ جلس يمدح النبي وآله حتى سكبوا الدموع وحنوا وتدروشوا، فبدا الصراخ ينطلق منهم الى أن قاموا واقفين، يمدح المداح وهم ينطقون بذلك الاسم (الله.. الله .. الله) واطفأوا الأنوار ومضوا في تلك الحالة ..

سأل أجود بسامًا عن تلك القصيدة التي مدح بها المداح: (علي الهادي بحر تيار)، فقال: لمَ وصف الشاعر الإمام علي الهادي بأنه بحرٌ تيارٌ؟

فقال بسام :

لا أعلم يا أجود ما وجه ذلك التشبيه على الخصوص، ولكن يقال أن الطيران الايراني حلق فوقها ليقصفها أيام الحرب العراقية الايرانية، فدعا الأهالي وابتهلوا بجاه الامام أن يدفع عنهم بلاء القصف، فانقلبت سامراء الى بحر في نظر الطيار الايراني ولم يقصفها!! لا أعلم مدى صحة هذه الحكاية ولكنها تدل على ما في نفوس أهل المدينة من اعتقاد بالائمة.

-٣٢-

بتول هي الأخرى همٌّ يضاف الى مهدية تحمله معها، البنت

تخطت السابعة عشرة منذ شهور، وكانت قد حُجِزَت لـ(أسامة) كما قررت حمدية جدتهم من قبل، إذ رأت بتول مقبولة وفيها جمال غائر وسط عملهن المضني في الحقل، وكانت مهدية قد اطمأنت الى تلك (القسمة) على كرهها لسعيد، فأسامة مختلف عن أبيه، بل يثور عليه مرارًا، ففكرت مهدية أن أسامة سوف يستقل عن أبيه بعد أن يبلغ الثلاثين، وسوف يرث بعد موت سعيد مالاً طائلا مما يوفر لابنتها العيش الرغيد. ولكن الآن لم يعد الأمر كما كان، ومن المستحيل أن يكون أسامة لبتول، ليس لأن مهدية ترفض ذلك بعد المشكلة التي حصلت بينهم فقط، بل لأن أسامة انتهى أمره، كتب عليه الشقاء هو وأهله، ومن يدري لعله قتل بغارة جوية من هذه الغارات التي تشنها قوات التحالف ضد التنظيم. والآن عاد ذلك السؤال يحز في نفس مهدية: من سيتزوجها؟! لا أحد يعرفهم فيتقرب منهم ويأخذها، حتى خالها وعونها زعل من أول كلمة مسته وكأنه أرادها حجة كي لا يدخل عليهم ثانية ومن يدري لعل بشرى زوجه سولت له، وقبحت صورتهم عنده، صورتهم ناكري الجميل، والذين يأكلون ويبصقون في الإناء الذي أكلوا منه، وكل ذلك كي تمنع المساعدة التي يقدمها لهم، ألم تسمع حمدية دائمًا تقول لزوجها: النساء تخرب. وهي بذلك تعنيها؟! وإن بقوا هنا مقيمين الى أجل بعيد ستتخطى بتول عمر الزواج وقد تتجاوز العشرين وهي عزباء جالسة أمام أمها.. مجرد التفكير في ذلك الخاطر المفزع يضيق صدرها وتشعر أنَّ شيئًا يتلوى داخلها .. يئن.. يشكو.. ما لكِ يا مهدية؟ لمَ الهموم تؤثث حياتكِ الى هذا الحد، هل هي بديلة الحزن؟ أليس من المفترض أن تحزن بسخاء على الغائب؟ والديار التي ذهبت، بل الناس الذي نظنهم أهلاً

ففعلوا ما لم يفعله الاعداء، هنا الناس غرباء، يتصدقون عليها، يأتون بالطحين لتخبزه لهم فيناولونها أجرة، أليس هم جيران عظماء عندما يسعون لتأكلٍ من عرق جبينها، ولكن ما يكسر ظهرها هو جواد. تقول أُم بسام: اذهبي الى علي الهادي وقفي على شباكه مستنجدة.

تذرع الطريق متخطية نقاط التفتيش الكثيفة المنتشرة على طريق الإمام هي واجود وبتول، تبتهل في الطريق العاج بالزائرين الموشحة نساؤهم بالسواد، وجوههم تنم عن ما في نفوسهم من هلع ورعب؛ فالطريق غير آمن وهم مستهدفون، انخفض عدد الزَّائرين الى نسب ضئيلة جدًا قياسًا بالأعوام الخالية، هو يتوجهون الآن الى كربلاء والنجف ففيهما أمان كاف لحفظ أرواحهم ولا يوجد احتمال ظهور الهمج الهامج فجأة أو يسيروا لهم انتحاريا تلك الأفكار حقًّا كانت موجودة بل يقال أنها حصلت مع عدد منهم ولم ينفع الابتهال والتوسل بعلي وذريته في أن يدفع عنهم ذلك الموت المحقق.



وقفت أمام ضريح الإمامين وتقدمت نحوه بأناة وخشوع.. وكلما خطت خطوة شعرت أن العالم الذي تعرفه زال خلفها وتساقطت الهموم تساقط الندى .. وانهمرت الدموع بلا وعيٍّ، فمسكت شباك الضريح ومضت تدمدم ببطء:

«يا سيدي ها أنا أتيتك مبتهلةً ماسكةً بشباكك متوسلةً، قد ضاقت الدنيا علي ولم يعد لي ولي أو نصير.. يا الله ها أنا آتية إليك عندما لم يبقَ لي ملجأ الا إليك، ولا نصير الا أنت.. أتيتك بعلي الهادي ... فبجاهه استجب وردّ الغائب.. يا إلهي اشعر أن نفسي ضيقة ضيق سمّ الخياط، حزينة حزن

يعقوب، باكية بكاء محمد «صلى الله عليه وسلم» على ولده ابراهيم، بل أيامي وعامي هذا كعام الحزن للنبي، يا إلهي ..شوق ممزوج بلوعة الغياب.. طائر قُصَّ جناحاه فهو يحلم بالتحليق كالسابق.. تائهٌ في الفلاة آيسًا من النجاة.. فحقق مرادي.. لم أدق بابك إلا بعد أن دققت باب الخلق فاوصدت أبوابهم الا بابك.. يا من لا تغلق أبوابه ولا يرد طالبه يا مصدر النور الذي ينير عتماتي و يا فجرًا يسطع في ليلي وظلماتي أعد غائبي وعجل بالقميص وارمه على بصري لأبصر من هذا العمى.. «

ثم أخذت تتبرك بالشباك، ومسكت بتول وصارت تمسح يدها بها تبركًا. ثم جلست في باحة المرقد ماسكة مسبحة تصلي على النبيِّ وآله وترقب الجموع وهي متموجة تبث حاجاتها وتذرف دموعها، وفجأة خطر لها أن تفكر ما الذي دفعهم للقدوم هنا؟ لمَ طرقوا باب الأولياء وعبروا كل تلك المسافات؟ أهو الشّوق المعتلج في النفوس لدرجة أن يخاطروا وينطلقوا غير مبالين بالطريق الخطر وما ينطوي تحته من أهوال وأوجال؟ ألم يقل محيي الدين بن عربي الصوفي الشهير: (الحبُّ موتٌ صغير) تذكر أنها سألت جدها أول ما علمها هذه المقولة وقد عرفه بأنه مولانا القطب الأكبر والكبريت الأحمر عن معنى هذه المقولة، فقال لها: أي أن الحب يشبه الموت، باقيان وأبديان كما انهما الحقيقة الراسخة والباقية والتي يؤمن بها الكل. ولكن مهدية الآن تعثر على تفسير آخر لهذه المقولة، تفسير لم يخطر على بال جدها؛ ذلك أن الحب يجعلك تقطع الطرق والمسافات والأخطار المحفوفة بالخطر والموت، هو موت ولكن بوجه آخر.

لما قاموا خارجين انتبهوا على شيءٍ لم يلحظوه وهم آتون،

ربما لأن الشوق يجعلنا تائهين وغير مهتمين للتفاصيل، ذلك أن الزوار والجند والمتطوعين ـــ والذين كانوا ينتشرون بكثرة في الامامين ـــ مشدودين كالوتر، يقال أنهم خائفون من أهل المدينة لما لاقوا في الطريق من أزمة وقلق، ولكن خوفهم لا يظهر خوفًا أو هلعًا، بل يظهر تحرُّشًا وشراسة وتفتيشًا دقيقًا.

لما وصل أجود الى باب الإمام خارجًا قدحت الذكرى في نفسه فملأته حنينًا وشوقًا؛ هنا وجد الحاج صبحي عباسَ وهو طفل صغير، هنا سمع صراخه ومن هنا حمله، تُرى لو لم يحمله الحاج صبحي ماذا كان سيكون مصير عباس؟ خرج عباس هاربًا من هنا وها نحن نعود مجبرين، هل بين هروب عباس وعودتنا صلة؟ لا يعلمون، ربما كل انسان يعود بطريقة أو أخرى الى أصله وها هم يعودون الى مهد جدهم.

-عدنا الى أصلنا!

قال أجود ذلك وهو خارج من الامام، ففهمت مهدية مغزاه.. فقالت:

-الديار والأصل حيث تستقر.. أينما حللت فهي أرض اللّه.

فقال أجود بفتور:

-أنتِ لا تؤمنين بالوطن كبسام؟

فشاحت بوجهها المليء بترع جافة؛ إذ لم يعد في العين ماء لتسقيها ودمدمت:

-الوطن.. الوطن...

-٣٣-

«سُعِيَ إِلَى الْمُتَوَكِّل بِعَلِيٍّ الهادي رحمه الله أَنَّ فِي مَنْزِله كُتُباً وَ سِلاحاً مِنْ شِيعَتِه مِنْ أَهْلِ قُمَّ وَ أَنَّهُ عَازِمٌ عَلَى الْوُثُوب بِالدَّوْلَة، فَبَعَثَ إِلَيْه جَمَاعَةً مِنَ الأَتْرَاك فَهَجَمُوا دارَهُ لَيْلاً فَلَمْ يَجِدُوا فِيهَا شَيْئاً وَ وَجَدُوهُ فِي بَيْت مُغْلَق عَلَيْه وَ عَلَيْه مِدْرَعَةٌ مِنْ صُوف وَ هُوَ جَالِسٌ عَلَى الرَّمْل وَ الْحَصَى وَ هُوَ مُتَوَجِّهٌ إِلَى اللَّه تَعَالَى يَتْلُو آيَات مِنَ الْقُرْآن، فَحُمِلَ عَلَى حَالِه تِلْكَ إِلَى الْمُتَوَكِّل وَ قَالُوا لَهُ: لَمْ نَجِدْ فِي بَيْتِه شَيْئاً، وَ وَجَدْنَاهُ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَة.

وَ كَانَ الْمُتَوَكِّلُ جَالِساً فِي مَجْلِس الشُّرْب فَدَخَلَ عَلَيْه وَ الْكَأْسُ فِي يَد الْمُتَوَكِّل، فَلَمَّا رَآهُ هَابَهُ وَ عَظَّمَهُ وَ أَجْلَسَهُ إِلَى جَانِبِه وَ نَاوَلَهُ الْكَأْسَ الَّتِي كَانَتْ فِي يَدِه.

فَقَالَ: «وَ اللَّهِ مَا يُخَامِرُ لَحْمِي وَ دَمِي قَطُّ فَأَعْفِنِي» فَأَعْفَاهُ.

فَقَالَ: أَنْشِدْنِي شِعْراً.

فَقَالَ (عليه السَّلام) : «إِنِّي قَلِيلُ الرِّوَايَةِ لِلشِّعْرِ «.

فَقَالَ: لَا بُدَّ.

فَأَنْشَدَهُ (عليه السَّلام) وَ هُوَ جَالِسٌ عِنْدَهُ:

بَاتُوا عَلَى قُلَلِ الأَجْبَالِ تَحْرُسُهُمْ ❖❖❖ غُلْبُ الرِّجَالِ فَلَمْ تَنْفَعْهُمُ الْقُلَلُ

وَ اسْتَنْزَلُوا بَعْدَ عِزٍّ مِنْ مَعَاقِلِهِمْ ❖❖❖ وَ اسْكِنُوا حُفَراً يَا بِئْسَمَا نَزَلُوا

نَادَاهُمْ صَارِخٌ مِنْ بَعْدِ دَفْنِهِمْ ❖❖❖ أَيْنَ الأَسَاوِرُ وَ التِّيجَانُ وَ

الْحُلَلُ

أَيْنَ الْوُجُوهُ الَّتِي كَانَتْ مُنْعِمَةً ❖❖❖ مِنْ دُونِهَا تُضْرَبُ الْأَسْتَارُ وَ الْكِلَلُ

فَأَفْصَحَ الْقَبْرُ عَنْهُمْ حِينَ سَاءَلَهُمْ ❖❖❖ تِلْكَ الْوُجُوهُ عَلَيْهَا الدُّودُ تَقْتَتِلُ

قَدْ طَالَ مَا أَكَلُوا دَهْراً وَ قَدْ شَرِبُوا ❖❖❖ وَ أَصْبَحُوا الْيَوْمَ بَعْدَ الْأَكْلِ قَدْ أُكِلُوا

قَالَ فَبَكَى الْمُتَوَكِّلُ حَتَّى بَلَّتْ لِحْيَتَهُ دُمُوعُ عَيْنَيْهِ وَ بَكَى الْحَاضِرُونَ، وَ دَفَعَ إِلَى عَلِيٍّ الهادي أَرْبَعَةَ آلافِ دِينَارٍ، ثُمَّ رَدَّهُ إِلَى مَنْزِلِهِ مُكَرَّماً.

وَ قَالَ: فَضَرَبَ الْمُتَوَكِّلُ بِالْكَأْسِ الْأَرْضَ وَ تَنَغَّصَ عَيْشُهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.» هذه ملخص رواية المسعودي عن دخول علي الهادي الى سامراء، ولا أعلم صحت روايتها، ولكن من خلال الظروف التاريخية لتلك المرحلة أكاد أجزم بصحتها.

فقال أجود مجيبًا بسام وهما خارجان من المدرسة نحو الملوية لزيارتها:

-لِمَ هذا الجزم في صحة الرواية؟ ربما يكون أحد أنصاره وضعها ليظهر لكم علي الهادي بهذه الهالة والعظمة الأسطورية.

-صحيح كلامك إذا غفلنا عن عداوة بني العباس لآل البيت، تلك العداوة الطويلة التي ملأت صفحات من الصراع الطويل الأسود. السلطة الحاكمة كانت تخاف آل البيت وكأنهم ريح صرصر عاتية، والحق أن آل البيت كانوا خطرًا على السلطة الفاسدة التي تجور وتظلم، ومع مرور الأيّام نصبت الناس

مـن حيـث لا تشـعر آل البيـت رقبـاء علـى السـلطة، بـل رقبـاء ومعارضـون يمتلكـون جمهـورا عريضـا يسـتل السـيوف فـي آن، وهنـا نسـتطيع أن نفـرق بـين العالـم الواعـظ والرجـل العلـوي، إذ أن الواعـظ يعـظ الخليفـة وللخليفـة حـق القبـول أو الـرد بـل والغضـب مـن ذلـك الواعـظ وقـد يسـجنه وينـكل بـه ، أمـا آل البيـت فهـم الرقبـاء المعارضـون الـذي يخشـى شـرهم، ويبـدو أن آل البيـت اقتنعـوا حقًـا بهـذا الـدور الـذي توجـه النـاس إياهـم.

–إذن أنـت تؤمـن بمـال لآل البيـت مـن كرامـات ووقفـات ورد العـداء ودفـع البـلاء؟

فقال بسام ضاحكًا:

–ليس الـى هـذا الحد، هنـا النـاس مفرطـة في كرامـات الإمامين حـدَّ التطـرف، وهـم مقتنعـون مؤمنـون بهـا اقتناعًـا تامًـا، وأنـا مؤمـن أن لهـم كرامـة فـي حياتهـم ودورًا سياسـيًّا كبيـرًا كمـا تصفـه الكتـب ولكـن ليـس الـى هـذا الحـد..! اذا كان الأوليـاء يدفعـون بـلاءً فمـا عمـل اللّٰه إذن؟

فضحك أجود قائلا:

–أنت سلفي؟!

فقال بسام بترو:

–مـا مفهـوم السـلفي عنـدك؟ المشـكلة أن النـاس تخلـط خلـط عجيبًـا بهـذه المصطلحـات: سـلفي، وهابـي، داعشـي، إخوانـي، قاعدة .. كلُّ تلك المسـميات تنطـوي تحـت منهـج وطـرق مختلفـة.

–ولكن له أصل واحد!

–هـذا اشـكال عنـدك، أنـت لا تكلـف نفسـك عنـاء البحـث للتفريـق

بين تلك المصطلحات وأصولها وأفكارها ورجالها.

-لا تتفلسف كثيرًا يا بسام، هذا الأمر واضح.

فقال بسام ذاهلا:

-ولِمَ التفلسف؟ أنا لم أعترض عليك حتى، الذي قلته لك: تمهل وتأنَّ، قبل أن تطلق أحكامك جزافًا، لأنها ستبدو لمن يعي ساذجة بل تعبر عن ضيق في التفكير.

فقال أجود مستسلمًا:

-لو عشت ربع الذي عشناه في الأشهر القلال التي تولوا أمرنا لعذرتني.

-قصَّ عليَّ .. فضفض.. أفرغ ما في داخلك من حزنٍ وألم قبل أن ينهمر دفعة واحدةً أثر الانحباس الطويل.

وفعلًا ... وهما يقطعان الطريق الى الملوية حكى له عن القرية وما فيها من هالة وادعاء على إنها قرية العجائب والغرائب ويقصدها السحرة والمتطفلون والباحثون عن الخلود والعيش بلا أمراض وأوجاع، بل عيش رغيد، وعن قصة جده عباس وكيف وجده الحاج صبحي في باب الإمام وهروبه ولقاء جدته حمدية في مكان القرية، وقصة أبيه مع العسكرية وشائعة موته وموت عباس، وعن عداوة أمه وأخيه جواد مع عمهم سعد، وحكاية داعش مع القرية، بل أفاض في ذكر أبي سليمان وطلحة ورحمة وعلي وتحسين وأسامة.. وأفاض بذكرهم واستحضر اشجانا قد غابت في عتمة الذاكرة.. لمَ يا بسام تلح في معرفة تلك التفاصيل؟ ألا تعلم أنها مرهقة .. متعبة .. تستنزف الروح؟ لماذا تصر على أن نبقى قيد الذكرى؟ مرهونون بماضٍ مليء بالشجن والإرهاق وجرح

الـروح والكرامـة قبـل الجسـد؟ أتحـب أن أكشـف لـك الطعنـات التـي هـوت علـى جسـدي فسـقطتُ فـي هـوة الكـره لذلـك الماضـي ؟ بل تضاعـف ذلـك الألـم لصلينـا عذابًـا لا أعـرف كنهـه وسـببه، أم تريدنـي أُحدثـكَ عـن الكوابيـس المفزعـة التـي تسـلطت علـيَّ ولـم أقصَّهـا علـى أحـد الـى الآن؟ منـذ ولجنـا هـذه المدينـة وأنـا لا أنـام كمـا تنـام النـاسٌ، أغفـو وأنـا أحلـم بهـا.. رحمـة.. أحلـم بتلـك الليلـة التـي لـم تبارحنـي بـل بقيـت عالقـة وتمطـت بصلبهـا فـي الأعمـاق.. لـمَ؟

-لمَ خسرنا كل شيء؟؟؟

سأل أجود بساما بعد أن سرد حكاية قريته.

لمَ يجب بسـام بعد أن تـاه وغـرق فـي عالـم القريـة العجيـب ـــأو بـدا لـه عجيبًـا ـــ .. القريـة عالـم متكامـل مـن الآمـال التـي وأدت وذبحـت، الدولـة التـي سـقطت وقامـت أخـرى، الأحـلام التـي غـدت أوهامًـا.. فـي القريـة يتلخـص قانـون التاريـخ السياسـي.. القـوي يمحـق الضعيـف.. ولا بقـاء لمـن يرفـض ذلـك المبـدأ: (إن لـم تكـن معـي فأنـت عـدوي). دخـلا الملويـة فبـدت لهـم شـاهقة تنبئهـم بعظمـة تاريـخ المتـوكل.. بنـو العبـاس وصهيـل خيولهـم الجامحـة تقـف هنـا تنتظـر أمـر المعتصـم لتنطلـق تلـك الخيـول النافـرة تنصـر المظلومـين.. مـن اسـتصرخ حميتهـم ولاذ بـ(أميـر المؤمنـين) يـوم كان لأميـر المؤمنـين عطـف وغيـرة .. ودخلـوا الـى المسـجد أولاً عندمـا اعتـرض طريقهـم .. عندمـا دخلـوا المسـجد خرجـوا مـن ضيـق الحيـاة الـى سـعة التاريـخ.. مـا لـك يـا أجـود مبهـور؟ مـا لـك صامـت وفـي عينيـك تجلـت آيـات الحـزن ؟ أهـو الشـوق الـى العـزة فـي زمـن الذلـة؟ مـا للشـجا يبعـث الشـجا ومـا لـه الحـزن حتـى يسـتدعي أحزانًـا مندثـرة بدثـار النسـيان؟ هنـاك

عَنَتِ الوجوه وخشعت الأصوات ولم يعد يسمع له همس؛ إلا صوت التاريخ وأصداء صوته في القلوب.. هنا جمع الخليفة جنده يوم نادته تلك الحرة: وا معتصماه. ليأتي صوته عبارة عن جيوش متموجة متدافعة متعطشة لنصرة المظلومين :لبيك يا أختاه. هنا كانت حضارة تامة.. هذا المسجد آيةٌ كمال عاصمة الخلفاء التي خربت سريعًا ولم تعش طويلًا، هذا الحزن الذي يلف أرجاءه ينم عن ما عانى من اهمالٍ، فأرضه محفورة ومليئة بالحجارة القديمة، وهذا المحراب قذرٌ انتشرت به الأوساخ، أهكذا يكون حال مسجد أعتى عواصم التاريخ رسوخًا؟! أهكذا يكون مصير الحضارات والثقافات؟ ثم خرجوا منه الى الملوية بعد أن شبعوا من شجا التاريخ ثم صعدوا درجات الملوية التي ألقت بظلالها عليهم يعلوهم صمت كئيب. الملوية هي الأخرى التي كانت تبعث الشجا يعلوها كربٌ شديد.. جدرانها ملطخة بكتابات تشجيعية وتستحث الجيش للنصر والمضي قدمًا ضد التنظيم، وشاح أسود يلف رأسها حزنا على الشهداء ليراها كل من دخل المدينة من أقصاها الى أقصاها ويعلم أن المدينة قد أعلنت الحزن والحداد الدائم الى أن يندحر التنظيم، من يرَ تلك الطقوس يوقن أن هذه ستكون محطة مهمة للتحرير القادم، هذه المدينة بقيت شامخة لم يدحرها الإرهاب ولكنها كشموخ عجوز يأس من الحياة فشموخه وصلادته تميل الى الوهن وهكذا سامراء واهنة على شموخها، بائسة على شهرتها، يعلوها شحوب الأموات، ولكن ما ذنب المدن؟ أليس نحن من يقطنها فيوهنها أو يعمرها؟ ولكن ما ذنب هذه المدينة يتسللها الخراب حتى لتكاد تظنها مدينة أشباح خارج الفلك المشحون؟ لا نملك الا أطلالا نندبها تارة ونفخر بها تارة ونلعن الساعة

التي ولدنا هنا تارة أخرى ونعشقها كعاشق حنَّ الى الوصال في أحايين كثيرة.

-بماذا تقاس المدن؟ وكيف نعدها ذروة المجد ومنتهاه؟ بالذين يسكنونها ونحبهم ونجلهم فنعدها الأرض التي يسعد فيها الناس؟ أم لأنها عامرة مترامية البنيان؟

فزفر بسام وقال مجيبًا أجود:

-كلاهما!

-يجتمعان؟!

-الثانية تؤدي الى الأولى وازدهار العمران يأتي تباعا إذا أمن النّاس ورأوا الحاجة ملحة الى البناء لتمام مجدهم.

ووصلوا الذروة فوقفوا والمدينة بدت أمامهم هادئة ونهرها جارٍ بهدوء والمساكن نائمة لا يقطع رقدتها الا حفيف السيارات الضئيل، فقال أجود وهو يتأملها:

-انظرها من هنا كم تبدو وداعة؟ لو كنت صاحب قصر عالٍ مطلٍ على المدينة، ولا تنزل إليها بل تنظر اليها من هنا، هلً ستشعر بهمومهم وكروبهم؟

-لم أفكر في هذا السؤال يومًا.. لا اعرف!

-علي فكر بهذا السؤال!

-كيف؟

-فكّر من منظور آخر، قال إذا وقفنا في مكان عالٍ ونظرنا الى من هم دوننا سنشعر أن الحياة مريحة رخية، فكيف لو كنتَ الاهًا من فوق سبع سموات تنظر..

-...!

-ومن هذا المقياس قال: إن اللّه لا يرانا ولا يشعر بهمومنا ولا يقتص من ظالمينا..!

-ألهذا كفر؟!

-وهل تسميه كافرًا؟

-أنكر قدرة اللّٰه.

فقال أجود بإصرار:

-ولكنه مؤمن.

-كيف إذن؟

فقال وعيناه دامعتان:

-هو مؤمن أكثر مني ومنك، هو كفر بهم، هم .. هم..

فقال بسام محاولا تهدأته:

-يعني داعش كانت الراعية الرسمية للالحاد كما يقول الدكتور أحمد خيري العمري، فهم الذين أُدوا به الى هذه النتيجة الضيقة.

-لا أعلم.

-فليرحمه اللّٰه.

-هل سيرحمه اللّٰه؟ هل سيغفر له ويدخله جنته ويجنبه عذابه؟ هل الذي يجاوز عن الزناة واللوطيين بل والقتلة ألا يغفر عن الذين شكوا وارتجوا بسبب النوائب؟ قل لي يا بسام.

-لا أملك مفاتيح الجنة أو النار لأصنفهم.

-هو لم يكفر به، هو كفر بأولئك الذين ادوا أنهم وكلاء اللّٰه وخلفاؤه.

-ليس ببعيد على اللّٰه.

في تلك اللحظات هبطت الشمس وغارت وجاء الظلام مدججًا يظلل المدينة الناعسة.

٢

حنين الى القرية

نَحنُ لا نَحِنُّ الى الماضي لروعتِهِ، بل لبشاعةِ الحاضر.

د. علي الوردي

-٣٤-

هل المدن تذنب؟ هل هي من ترتكب الخطايا وتقترف الخراب فنلعنها تارة ونحنُّ إليها تارة أخرى؟ هذه المدينة مغرورة على فقرها.. في الحياة تصادف صعلوكًا متكبرًا ومغرورًا، فتشعر أنهم أقبح خلق الله وأكثرهم كرهًا في قلوب الناس، والمدن إذا كانت مغرورة وصعلوكة هل نمقتها؟ هذه سامراء شهرتها في الآفاق ولكن أهلها في الحضيض، يفتقدون العيش الرغيد، والشوارع النظيفة والكهرباء والماء الصالح للشرب، وفوق هذا البطالة التي قسمت ظهرها، وفوق هذا هي محاصرة مطوقة لا يدخل أحد الا بعد اجراءات معقدة ومريرة، ولكن وسط هذه البطالة كيف سيعيشون؟ هذا السؤال كابوس آخر لأجود مع كوابيسه التي لم تنتهِ منذ دخل المدينة، هل يترك المدرسة؟ ولكن المستقبل بالشهادة وعلى الأقل ليأخذ شهادة الثانوية ومن ثمَّ يحاول أن يجد دراسة خارج العراق ويرحل كما خطط بسام، ولكن في هذا الوضع الراهن قد ذهبت المنظمات الحقوقية لتغيث أولئك الذين يسكنون الخيم فهم يعتبرون في ترف أمام حالات أولئك فهم ينتظرون الراتب الذي طال ولكن على العموم قد وعدهم المحامي أنهم سيحصلون على ما فات من راتب الشهور المنصرمة ولكن متى والدولة على أبوب الحرب التي أشرعت باب التقشف الذي أصبح كابوسًا يؤرق الموظفين والمتقاعدين.. رواتب الذين يلجون الخضراء

في ارتفاع وعامة الشعب في شظف..(نحن نعيش في شظف وهم في غاية الترف، وهذا دأب الحكومات إذا حان أجلها، وهذا حال الشعوب إذا أزفت الثورة) هكذا قال بسام، عندما قال له أجود أن الربيع العربي هي الثورة التي يتحدث عنها رفض بسام، وقال: هناك ثورة أعتى ستأتي. عندما تسكن سامراء تستحضر كل الوجع العربي ..الهزائم.. الخذلان.. الخيانة.. الزيف.. الطغاة.. الغزاة.. الهروب .. الهجرة.. الغربة.. البؤس.. هي صورة متكاملة للحضارة المسلوبة، المجد الضائع، التشرد بكل صوره المقهورة.. هنا ترى أطلال دولة عتية فخانها الزمان وتركاها، هنا صورة حيّة لكل الانكسارات ولمآل الدول، بل تجد الشجن مرسوم في معالمها يشكو ويئن طعنات الزمان الذابحة .. وصفعاته الغادرة.. نحن لذنا بها لتكون لنا وطن فوجدناها دارًا مختلطة طافحة بالبشر من كل لون، ولكن كلهم تنطوي صدورهم على ذاك الحب .. حتى إذا احلولكت الدنيا وماج بهم الركب قالوا:

ويل بيك ظيم وتطلب مرادي   نوخ ذلولك عد علي الهادي



–تهديهم؟

قال ذلك اجود في لهجة استنكارية؛ عنما رأى بسامًا يصحب شبابًا غير مناسبين له ولثقافته، فمظهرهم لا ينمّ عن أيّ التزام ديني، بل هم جالسون على قارعة الطريق يضحكون ضحكاتهم المجلجلة ويطلقون السخريات اللاذعة، وكثيرًا ما رآهم أجود وهو يهم بدخول الزقاق واقفين ويتحرشون بالطالبات الذاهبات الى المدرسة، مما دفع أجود لتحذير بتول منهم، بل قالها أجود صراحة لبسام: ألا تخاف على أختك؟؟؟

لكن بسامًا كان هادئًا لا تستفزه تلك العبارات التي تثير كوامن الرجولة التقليدية.

-أهديهم وأصلحهم.

-كيف؟

-يا أخي كن لينًا معهم « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» هذا أدب القرآن الذي اتبعه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فلا تبقَ مندفعا هكذا..

-ولكنهم ...

-اعرف.. العافية دراجات.

كان ذلك الأمر مما يضيق صدر أجود، ولا يستطيع استيعابه، تلك العلاقات مع الأصدقاء الكثيرة، ثم كيف يهديهم؟ كان ذلك الأمر عصيا على الفهم، كان بسام لينًا مع الكل، يدعو الى الله ـــكما يقولـــ حتى على الفيس بوك كانت له صداقات كثيرة مع ألوان مختلفة من الناس، بل يقضي الليل يحادثهم ويقنع هذا ويجيب ذاك، وخلاصة الأمر أن بسامًا كان محبوبًا وهادئا يتقبل الكل، ولكن في داخله اندفاعا صاخبا ليهدي الناس أجمع لطريق الحق والهداية، ذلك الاندفاع بتلك الطيبة وتلك الأخلاق جعل أجود يخشى عليه، أو يعده ساذجًا، وبسام هو الآخر عد الذين اعترضوا عليه سذج.

قال أجود بعطف:

-أنت طيب يا بسام.. ولكن الناس لا تستحق هذه الطيبة، هم لن يروك طيبًا كلهم، بل منهم من سيمكر بك، سيتحين الفرص ليكسرك، يروك عدوًا وماكرًا، ومنهم من يضمر لك

حقـدًا سـتراه علـى شـكلٍ أشـواك مزروعـة فـي الطريـق لتتعثـر وتسـقط.

فردَّ عليه:

-إنـك تفـرط فـي الظنـون الآثمـة، النـاس يحتاجـون لمـن يرشـدهم، لمـن يقـول لهـم هـذا خطـأ وهـذا صـواب، يجهـر بالحـق، الحـق يـا أجـود يريـد ألسـنًا ترشـد.. مـن رأى منكـم منكـرًا فليغيـره بيـده، فـإن لـم يسـتطع فبلسـانه.

-فإن لم يستطع فبقلبه.

-وذلـك أضعـف الايمـان، وأنـا بفضـل اللّٰه لسـت ضعيـف الايمـان لأقـف عنـد الانـكار القلبـي.

-ولكننا في زمن لا يرحم.

-البشر هم الذين غدو وحوشًا واتهموا الزمن بطلانًا وزورًا.

وهـكذا بسـام لا يقتنـع، مـن أي الاتجاهـات أتيتـه أتـى مـا يدحـض حجتـك ويبطلـه. وصـلا الـى بـاب بيتهـم وهـم مشـغولان فـي نقاشـهم ومـا أن دخـل بسـام بيتـه مودعًـا حتـى أخـذ أجـود يتلفـت يمنـة ويسـرة وشـيء قـدح فـي نفسـه ويلـح عليـه إلحاحـا.. يشـعر أن نظراتهـا تخترقـه، مـاذا سـتقول عنـه؟ وسـيم؟! أنـى له الوسـامة وسـمرة الفلاحـين طاغيـة عليـه؟! لعـل شـخصيته سـتعجبها وهـو يمتلكهـا، أجـل، ألـم يقـل لـه علـي مـرة ـــوهـو الـذي درس فـي بغـداد وعـرف مـا لـم يعرفونـه عـن البنـاتـــ أن البنـت تعجـب بشـخصية الشـاب أكثـر مـن مظهـره؟ بـل يحببـنَ الشـاب الشـجاع وهـو القـروي الـذي يمتلـك شـجاعة وثقافـة وشـخصية.. ولكنـه فقيـر. عندمـا تذكـر علتـه هـذه ضاقـت نفسـه وشـعر بشـيء يعتصـر فـي بطنـه .. أجـل، هـنَّ يعشـقن الأثريـاء ذوي السـيارات

الفارهـة والـذي يغدقـون عليهـن الهدايـا اغداقًـا .. ثـم تشـجع ورفـع رأسـه وإذا بهـا ترمقـه وتعلوهـا بسـمة خجلـى وسـرعان مـا اختفت خلف الستارة فملئت نفسه حبورًا وبسمة.. بل وصار يفكـر كيـف رأتـه ومـا قالـت عنـه، وبينمـا هـو علـى هـذا الحـال فُتِـحَ بابهـم وإذا ببتـول قـد فتحـت البـاب ورأت أخاهـا هائمًـا رافعـا ببصـره الـى شـباك نـوار... فقالـت:

-أجود.. مالك؟

فانتبه الى وجودها:

-لا شيء.. لم تقفين في الباب؟

-رأيت أقدامك من الحوش.

فدخل وأوصدت الباب قائلة:

-الى أين كنت تنظر؟

-كيف يعني؟

-عليَّ يا أجود؟ كنت تنظر الى غرفة نوار...؟

-...؟!

-تحبها؟!

-ماذا تقولين؟

فدخلت راكضة الى أمها بمرح طفولي:

-ماما.. أجود يحب نوار بنت أبي بسام.

فقالت مهدية متعجبة:

-صحيح ما تقوله؟

فقال كاظمًا هواه المستعر:

-لا.

-اي.. بنت ليست من ثوبنا، تلبس التنورة ولا ترتدي فوقها جبة، وأبوها رجل معقد، لا، غير ملائمة له.

فقالت بتول:

-يا عيني عليه، عاشق يشتهي الوصال.

فقال بعد ان استفزته:

-كفى وإلا ضربتكِ بالعصا.

فقالت مهدية:

-كفى يا بنت .. اش.

-٥٣-

أتعلمين يا رحمة أنكِ وحدكِ شغلي الشاغل، أنتِ تلك الأفكار التي تغير أول ما أضع رأسي على الوسادة، أنتِ التي تأتين في المنام فأقوم فزعًا هلعًا، كلما ذكرتُ القرية انتصبتِ أمامي كجذع نخلة وارف الظلال، أنتِ الذكرى الجميلة على بشاعة الذكريات الماضية، أنتِ الحنينَ الذي لا يخبو، بقيتُ أتساءل دومًا بأبيات الجواهريَ:

وجئتُكَ في نشوةِ اللاّعقول

أجـــرُّ جنـازة عقلي معـــــي

أتيتُك أفتلُ حبلَ الـــــــسؤال

متى ضَمّك العـشقُ في أضلـعي؟َ!

كيـف؟ أمـا زلـتِ تذكريـن لقيانـا عنـد النخلـة متخفـين وقـت الظهيـرة؟ أتذكريـن كيـف كنـتُ أزداد لهيبًـا كلمـا ازددنـا التصاقًـا وأنـت تدفعينـي قائـلا: عندمـا نتـزوج يـا أجـود. فـأزداد شـوقًا، وتنسـاب ترنيمـة ابـن عربـي الخالـدة لتسـكب زيتًـا علـى شـوقي فيـزداد ويمتـدُّ : «كُلُّ شَّـوقٍ يسـكن باللقـاء لا يعـوَّلُ عليـه» أتذكريـن عندمـا كنـت ألمحـك كيـفً أفقـد كل الأشـياء وتبقـين أنـت أيتهـا السـمراء؟ أتذكريـن كل تلـك الأشـعار التـي كنـتُ أشـرحها لـكِ؟ وسـرعان مـا جمعـتِ طرفًـا مـن الأدب، فبـدأتِ تفهمـين الكثيـر مـن شـعر نـزار ودرويـش والسـياب، وبإمكانـي أن أنسـى كل الأشـعار الا تلـك الأبيـات التـي قلـت لـك إنهـا أجمـل مـا راقنـي مـن شـعر نـزار:

فإذا وقفت أمام حسنك صامتاً

فالصمتُ في حَرَم الجمال جمالُ

كَلِماتُنا في الحُبِّ .. تقتلُ حُبَّنَا

إن الحروف تموت حين تقـــال

قصص الهوى قد أفسدتك .. فكلها

غيبوبةٌ .. وخُرافةٌ .. وخَيَالُ

–قم يا أجود .. الماء سيدخل علينا..!

جـاء صـوت بتـول قاطعًـا أفـكاره وذكرياتـه والأشـعار الجميلـة، الفراش دافئ في هذا الصباح الممطر. فقام بكسل وإذا بالسـماء تزمجـر وتهطـل بكثافـة، وكاد يذكـر المآسـي التـي سـيجرها المطـر فتكـدر صفـوه، ووقـف أمـا ذلـك الشـق يتابـع انهمـاره، النازحـون

الذين يقطنون الخيم.. كيف حالهم؟ ألم ينقلب هذا الصباح عزاءً؟ ألم يلعنوا أيامهم، ألم تجلس النساء باكيات نادبات يلمن أزواجهن كما كانت حمدية تندب عندما رحل ولدها للحرب؟ تتعد المآسي وتختلف المصائب والنوائب ولكن الحزن واحد. تذكر السياب ورائعته انشودة المطر.. كيف له أن يجمع الشتات والضياع والدماء فيها؟ هل تذكرينني؟ عندما كنت ألمح شرفتك وأقف تحتها والسماء تهطل والناس تلوذ ببيوتها مع شكر الاله متمنين موسمًا وفيرًا .. أنا استغل غفلتهم واسترق اللحظات وأقف أتلو تراتيله:

«أتعلمين أيَّ حُزْنٍ يبعث المطر ؟

وكيف تنشج المزاريب إِذا انهمر ؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضّياع ؟

بلا انتهاء – كالدَّم المراق ، كالجياع ،

كالحبّ ، كالأطفال ، كالموتى – هو المطر !»

عجيب هذا الرجل وكيف وصل الى هذا الحد.. كنا نحفظها كلمة كلمة.. هي عدتنا في الشتاء وقوتنا ودفئنا من العشق:

«كالبحر سرَّح اليدين فوقه المساء ،

دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف ،

والموت ، والميلاد ، والظلام ، والضياء ؛

فتستفيق ملء روحي ، رعشة البكاء

ونشوةٌ وحشيَّةٌ تعانق السماء

كنشوة الطفل إِذا خاف من القمر !»

رعشات البكاء تجتاحني..

وبينما هو يتابع الانهمار جاء صوت أمه واهنًا مبحوحًا: آه. فخرج مسرعًا وصوت بتول وصرخاتها المتتابعة قد شقت الفضاء.. كانت أمه ساقطة في الحوش في ذلك الطين اللزج وقد فقدت القدرة على الكلام... فقام أجود مسرعًا ودق باب بيت أبي بسام وطلب النجدة.. وما هي الا دقائق حتى كان بسام بسيارتهم يقف عند الباب، حملها أجود ووضعها في السيارة.



يقفان عند الباب منتظرين الطبيب ، أجود جلس وهو لا يكاد يصدق، ماذا بها؟ لمَ لم تستطع الكلام؟ ماذا بها؟

خرج الطبيب بخطوات واهنة، فقفز أجود أمامه، وقال كالمصعوق:

-دكتور ما بها أمي؟

فقال الطبيب ببطء وعطف:

-مع الأسف نتائج التحليلات تقول أن حوضها مكسور!

-.....!

-لن تستطيع التحرك الى أن يجبر .. على الأقل ستة أشهر.. وقد تحتاج لعملية!

عندما قال الطبيب كلمته لم يستطع أن يقف كما تقف الرجال بل انتحى جانبًا وجلس ينشج.. ينشج على ذلك قوتهم الخائرة .. على عيشتهم التعيسة.. وعلى الحال الذي انقلب بهم.. على صفعات الزمان .. اصبر يا زمن ما لك تحد انيابك وتتشب

مخالبك؟ لسنا سيئين لهذا الحد لدرجة أن تعظم الخسائر لتكون فادحة الى هذا الحد، ما معنى أن نفقد أخي ويموت أبي وتكسر أمي؟ ونفقد المسكن والأرض والحبيبة؟ تُرى أي لعنة هذه التي أصابتنا وأي عين حاسدة؟ لم يبقَ شيئ لم نخسره في أشهر ستة خالية.. هوينا من العز الى الذل ... من غنى النفس واليد الى ذلة السؤال.. أما كفاك يا زمن؟ ما الذي فعلناه؟ لمَ شُرِدنا فلم يبق مسكن نأوي إليه؟ لمَ جعلتنا تائهين ..يشبه تيه عباس لما خرج من هذه المدينة.. ولكن تيه عباس كان ليلة وانجلى فما للتيه جاثم على صدورنا كأن لم يعرف احدًا غيرنا..

بقي في المستشفى الى أنّ حلَّ الظلام وهو لا يفكر الا بها، بعد العاشرة وبعد أن اطمأن عليها خرج من جناح الطوارئ متهاديًا بفتور .. وكان أول ما لاح له الملوية وهي شامخة شاهقة منتصبة كمجد تحدى الزمان وزوابع الأيام الحالكات .. بقي واقفًا ويتابعها ويتخيلها شاهدة على التاريخ الطويل.. منذ أيام جعفر المتوكل وقد ارتقاها خلفاء وأمراء وصعاليك ومحتلون، هناك في أعلاها كان القناص الأمريكي يفتك بأهل هذه المدينة ويتصيدهم، وذلك المكان نفسه قصفته الأمريكان غير مرة فأعادت الدولة ترميمه وترتيبه.. هي التي شهدت صهيل الخيول الجامحة المنطلقة لاخضاع العداء ذاتها التي شهدت بنادق الباطل وهي تجتاحها .. ما أتعسها.. إنها تئن من كثرة وطأة الزمان .. ولعلها تندب وتبكي المتوكل وتناديه: أين أنت يا جعفر؟!

-٣٦-

-خال حسين؟

قالها أجود بتعجب عندما وجد خاله ومنذ الصباح الباكر يقف في بابهم. (من الذي قال له أصلا)؟ سأل أجود نفسه. فدخل وهو يلعن ذلك المستأجر ذو الاسمال البالية ويرغي ويرعد:

-لك أأنت رجل؟

-لمَ؟

فقال مغاضبًا:

-كيف تترك أمك هي من تمسح ماء الحوش..؟

-أنا..

فقاطعه:

-كنتَ نائمًا. لكن هو ليس ذنبك، بل ذنبك أمك التي علمتك على الدلال.. رحمك الله يا حاجة حمدية عندما كانت تقول عنكم: تربية سِز، تربيتها.. لم تعلمكم على الخشونة والعمل.. استح انت وأَخوك.. أمك تعمل للبيوت هي وأختك وأنت وأخوَك لا شغل ولا مشغلة... طز بهذا الزمن الذي جعل أمك مهدية الحنون والدة لأمثالك!

-كفى يا خال.

-ماذا ينفع التوبيخ؟ .يا بنت اعملي شايًا ..

ثم دخل وهو يلعن الشارع والمطر وصاحب البيت.. من النعم ما يكون نقمًا .. فالمطر كانوا يبتهلون الى الله أن يمنحهم اياه، ولكن لما صار مؤذيًا وها هي مهدية مطروحة في المستشفى بين الحياة والموت ولا يعلم أحد مصيرها.

فقال الخال وهو يرفع كأس الشاي:

-ستذهب بأمك الى أربيل أو بغداد.

فقال أجود:

-الطبيب قال ستة أشهر وإن لم يلتحم كسرها نجري لها عملية.

-لا عليك بهذا الطبيب، سنأخذها لغيره.

-لننتظر.

-لا، لا يوجد طبيب حاذق يستحق الاشادة هنا.. سنأخذها..

كانت بتول جالسة متلفلفة بشالها الطويل وهي تنشج بصمت.. فقال لها الخال:

-كفي يا ابنتي، يعني فوق الهم تبكين.. كفى.

دخلوا عليها في جناح الطوارئ فرأوها تتكلم بصعوبة بالغة، بتول جثت عليها منتحبة.. الخال داهمته الدموع على حالها التعيس.. وأجود وقف باستسلام. أتت الممرضة تتمايل.. فقالت: أوه نسيت الدواء المفروض قبل ساعة!!

ففار وثار الخال وقام مزمجرًا ولاعنًا المستشفى بمن فيه، بل

وزارة الصحة من رأسها الى أصغر موظف.. الى أن قال:

-ماذا نفعل؟ يعني بلد لن تقوم لك قائمة .. هذا حالنا.. وأين المدير ..

فهرع إليه مدير المستشفى وخلفه أطباء وممرضون.. فقال الطبيب:

-خير يا حاج ..

-يا دكتور هذا حال المريضة؟ حتى الدواء لم تعطه؟ ماذا نفعل؟ نموت؟ لا نأتي؟ ألم تأخذوا راتبًا مقابل العناية بالمريض؟ واللّه إنه لسحتٌ حرام في بطونكم..

-اهدأ يا حاج سنفعل اللازم.

بعد أن أتموا الفحوصات وخرج الطبيب، قال الخال:

-يا أم جواد، ستذهبين الى أربيل، هناك الأطباء أفضل ولديهم أجهزة مختصة ومتطورة، هنا كما رأيتِ، لا أحد يهتم بالمريض... فليذهب الى جحيم ...سأحجز لكم سيارة وغدًا تذهبان.

فقال أجود ببطء:

-الطريق آمن؟

-سألتهم.. نعم آمن .. قد تتعرضون لسيطرات داعش.. لكن لن يؤذوكم.

-وبتول؟

-مالها؟

-تذهب معنا؟

-لمَ؟

-تداريها.

-وأنت؟

فقال بصوت خفيض:

-تحتاج الى مداراة لا تعرفها إلا النساء.

-إذن تذهب بتول أيضًا.

فقالت مهدية بصوت مبحوح:

-أجود.. خذ الذهب الموجود عندي.. وبع منه .. يا بني الفلوس التي لا تعز أهلها وقت العوز لا خير فيها.

باع خاتمين وقلادة بمليون ونصف وقبض الثمن نقدًا، شك به الصائغ أول الأمر وخشي أن يكون لصًا سرقها لكن أجود شرح له وضعهم.

الخال هو الآخر دفع له مليون دينار وكان ذلك كرمًا منه لم يتوقعه أجود، ولكن هذا طبع الخال حسين يقف في الأزمات مواقف شجاعة، قد تبدو لأول وهلة متهورة أو شذوذ في طبعه، ولكن هذا الكرم الفياض هو طبعٌ أصيل فيه شابه شطحات من الغضب السريع والتي صقلته الأيام وسقته الأحزان وبعد الأحباب فكان الخال حسين بتلك التركيبة الغريبة.

في الليل جلس أجود مطرقًا كاسف البال قد استولى عليه الهم، بتول تكفكف دموعها وتعد الحقائب، دق الباب .. لعله الخال.. قام وإذا ببسام وأبيه وإمام المسجد، رحب بهم وأفسح لهم الطريق لكنهم اعتذروا، فقال ابو بسام:

-يا ولدي غدًا ستأخذ الوالدة شافاها الله، وأمامكم درب

طويل ولا تعرفون ماذا ستحتاجون، فخذ هذا منا .. نحن أهل المنطقة ومصلو المسجد.

-لا يا عم، الخير كثير والحمد لله، نحن لا نحتاج الى المساعدة، عندنا ما يكفي.

فقال امام المسجد:

-يا ولدي، هذا سفر، ولا تعلم ما به، ستحتاج أموالًا كثيرة، ولا تعلم ما سيلقاك، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، و»إنما المؤمنون إخوة«.. خذ يا ولدي.

فمدَّ يديه بخجل وأخذ.. ثم دعوا الله أن يعافي أمه وودعوه. اغلق الباب وفتح الظرف فوجد رزمة من فئة العشرة الاف .. فتبسم وفي نفسه هاجت الذكريات الخالية، بين صورة الاسلام عند التنظيم ومشهد شحط علي لمحاكمته واعدامه ومشهد امام المسجد وهو يناوله الأموال لعلاج أمه دون أن يعرف مذهبه أو فكره أو حتى هل كان يصلي أم لا، هنا صورة حية للدين الذين يعمل رجال لإنقاذ الانسان من بؤسه روحيًا وماديًا .. رفع رأسه الى السماء وإذا بغيمة تحوم فوقهم وبدا الجو ساكنًا والقمر منيرًا، الليل يشبههمً؛ الظلام يحتل مساحات واسعات ومع ذلك هناك قمر ونجوم ينيران تلك العتم .. أمي مثل القمر مهما ضؤل وتراخى وهزل يبقى يشع وينير وينادي على نفسه: إني هاهنا.

(ما أقبح الحياة حين تتوحش!)..لا يذكر أين قرأ هذه المقولة لكنه يوقن أنها مهما توحشت ستجد من يربت على كتفك مواسيًا.. مهما تجلدت القسوة ستجد تيارا لينا جارفا أمامها، ومهما اظلمت ستجد فجرًا رابضًا خلفه ..ومهما امتدت الفيافي القاحلة ستجد الخضرة النضرة ... ولكن هل تطبق

على بلده؟ هل تطبق على هذه المدينة؟ جاء أبو بسام وولده وامام المسجد ليقول له: نعم. الدنيا بخير.

-٣٧-

وضعوها في السيارة وصعدت جنبها بتول وهي متلفلفة بجبة بدل العباءة وهذا دأبهنَّ اذا سافرن. وصعد اجود جنب السائق، ثم انطلقت السيارة ومهدية بدأت تتلو الأذكار: اللهم انت الصاحب في السفر...

لم يخبر أجود أمه أن الطريق محفوف بالمخاطر، سيجدون سيطرات لداعش والجيش والبيشمركة، ولكل فئة وسيطرة منهم مزاج وطبع خاص طبقا للوضع الذي يمرون به، بل هناك ما هو أعتى وأشد ... قوات التحالف، أليس كسرها كفيل بأن يجتازوا كل تلك الحدود والسدود بأمان؟ المشكلة أن كل تلك الفئات تراهم من الفئة الأخرى، ولكن كتب علينا الشقاء. نحن الذين رفضتنا الديار فتهجرنا فلم نجد مأوى .. نحن الضائعون.. الشاة التي سقطت فتكاثرت عليها السكاكين.. نحن الذين كُتِب عليهم العيش في المنافي والمرافئ البعيدة .. وإذا أردت أن تختصر حكايتنا فقل: نحن الذين لفظتنا الأوطان!!

لو تعلم امي أن خروجنا مجازفة كبيرة هل ترضى؟ سأل أجود نفسه، الخطر محدق هنا في كل مكان خالي مجنون دائمًا، يأمر وعلينا الطاعة ويظنها هو منتهى الحكمة ولكنني وقفت لا أبصر شيئا الا أمي، أريدها أن تكون بخير. فلم يقطع تساؤلات أجود الا وهم يعبرون جسر سامراء وبدء طريق مجهول وساحات وغى لصراع اقليمي مرير، في هذا

الطريق تجد كل القوى المتصارعة لها يد أو مصلحة، والخاسر الوحيد هو بلدنا وأبناؤنا، تُرى ما الذي يدفعهم للخروج من مدنهم الآمنة ليحملوا بنادقهم ويقفوا على الخطوط الأمامية؟ أهي العقيدة الراسخة؟ أم الخوف على الأرض والعرض من زحف الهمج الهامج؟ أم المادة والمرتب الشهري الذي يعتبر جيدًا قياسًا بالبطالة المتفشية؟ قد تكون تلك الأسباب كلها.. وهو لمَ لا يتطوع جنديًا؟! ما الذي بقي ولم يخسروه؟ ومن الذي سيحرر أرضهم إن لم ينطلق هو وأصحابه من أبناء تلك المناطق فيفدوا تلك الأرض..!

فراجع وقلب تلك الفكرة في ذهنه كأنه يسمعها أوَّل مرة ، ومما زاد في تلك الفكرة وتطورها هو ما شاهده من دمار في تلك الطرق.. فالطرق خالية الا من القطعات العسكرية للجيش العراقي. الشوارع محفرة من الألغام، يقال أن التنظيم يعرقل تحركات الجيش بتخريب الشوارع وتدميرها! تلك الوحشة التي تملئ الشوارع تبعث في النفس شجنًا وألمًا، كيف غدت الطرق مدمرة مقفرة كأنها صحراء قاحلة لا تكاد تسمع فيها همسًا الا أصواتٌ هنا وهناك للمعارك الدائرة. كان الناس في أمان فتبدلت نعمتهم ... هذه الأراضي الزراعية مقفرة يابسة .. هلك الزرع والضرع، لم تعد هناك معاول ومناجل للحصاد، ولا فلاحون يحرثون . ومن المشاهد التي أثارت حنقهم في ذلك الطريق المرعب هو مشهد الدواب والماشية التائهة في الشوارع! ذلك أن الناس لما هاجرت وحملت ما تستطيع حمله من المتاع الخفيف ــــ وكان ممنوعا حمل الأنعام ــــ سيبتها في الحقول والمزارع والطرق.. لتعيش مما تنبت الأرض ومما تمطره السماء.. والله كفيل بحفظها، كانت تلك الشياه منها الميت على قارعة الطريق ومنها الميت برصاص ومنها ما زال

يسـير .. وراعهـم مشـهد بقـرة تحتضـر وتصـارع المـوت، فقـال أجـود للسـائق: قـف قـف. فنـزل مسـرعًا وبيـده قـارورة المـاء وسـقاها. لما صعـد فـي السـيارة وجـد مهديـة تنشـج بصمـتٍ.

-يُمَّة.. لمَ البكاء؟

-يا ولـدي أبكـي علـى الـذي حصـل لنـا، منـذ متـى ودوابنـا تمـوت ظمـأً؟ لـمَ هـذا الـذي حصـل؟ مـا ذنبنـا؟ مـا الـذي بقـي أصـلا؟ انظـر الـى المسـاكن كيـف هـي بائـدة خاويـة، متأكـدة أن فيهـا جثثـا أصحابهـا باقـون الـى الآن.. نحـن بلـد الخيـرات والغيـرة والحميـة يحصـل هـذا؟ حتـى الموتـى لا نكرمهـم...!

-قدر اللّه.

-لا إله الا اللّه.

أوقفهم الجيش، فقال الجندي:

-من أين؟

-سامراء.

-الى أين؟

-أربيل.

-لمَ؟

-الحاجة مريضة وسنأخذها الى الطبيب.

-اعطني هوياتكم.

أخذها ومضى وقتًا في تدقيقها.

-أنتم نازحون.

-أجل.

-اللّه معاكم، ولكن انتبهوا الطريق من هنا غير آمن!!

ما معنى هذا؟ معناه أن المسافة الآتية هي تحتَ سيطرة التنظيم.. سنمشي الى الموت لعله يخطأنا كما أخطأ أبانا عليًّا من قبل، سنتوسل لهم بها، لعلهم يرحموننا، ولكن إذا ظهر أمامهم من يعرفهم؟ كأن يظهر طلحة أو أسامة؟ ماذا يفعلون وقتها؟ لم يتعب نفسه في الجواب فالقدر هو من سيكفيهم الاجابة الشافية.

صوت مهدية ما زال يملأ أرجاء السيارة، فتارة تنشج وتارة تستغفر وتدعو، وتارة أخرى تستنجد بالأولياء وآل البيت، ولكن الذي يجمع تلك الأشياء كلها هو تلك النبرة المتحشرجة الحزينة، الحزن هو ملاذنا، نحن نقدسه في تلك اللحظات، ولولاه لكان المحزونون مجانين.

وفجأة أطلت سيطرة التنظيم من بعيد تعلوها الرايات السود وعناصرها منسدلو الشعر شاكين أسلحتهم نحوهم. ففزعوا، وبدأت حمدية تصلي على النبي صلى اللّه عليه وسلم وتتلو: (وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ).

أوقفهم رجال التنظيم وبدت وجههم متوجسة، فقال الملثم الذي تقدم نحوهم:

-من أين أنتم؟

-سامراء.

-الى أين؟

-أربيل. عندنا الحاجة مريضة.

-هوياتكم.. وتعال معي.

نـزل أجـود ولحقهـم لكـن سـرعان مـا وقـف مشـدودًا كالوتـر؛ فتـاة تـزوي جنـب حجـرة التدقيـق سـمراء ذات عينـين كسـاهما الرعـب، وقـف ينظـر إليهـا .. يتذكـر الماضـي .. عيناهـا الفزعتـان تشـبه عينـي رحمـة فـي تلـك الليلـة، نفـس الهلـع ونفـس الخـوف.. تُـرى أيـن رحمـة الآن؟

وسـرعان مـا انتقـل هنـاك ... أصـوات الرجـال فـي الديـوان يقـرأون الفاتحـة.. أمهـا تنـادي عليهـم... همهمـات ووقـع أقـدام مسـرعة للفتـك بـه... صرخاتهـا: اهـرب.. اهـرب. لـم يـا رحمـة قلتيهـا بالحـاح حبيـب لا يُـردُّ لـه طلـب؟ لـو بقيـتُ وأخذونـي فـداءً لكـم؟

-خُذ.

ايقظـه صـوت الملثـم وهـو يناولـه الهويـات. ركـب السـيارة وانطلقـوا.. الآن هـم فـي أرض الخلافـة .. لا مجيـر الا اللّٰه. وكانـت المشـاهد التـي تؤثـث تلـك الأرض: البيوتـات المهدمـة.. المسـلحون وهـم منتشـرون بـكل مـكان.. أعـلام التنظيـم وشـعاراتهم.. بـل شـعر أجـود أنـه فـي القريـة، نفـس الأجـواء الا أن هـذا الطريـق أشـدُّ خطـرًا؛ إذ تعتبـر القريـة بمنـأى عـن أهـداف التحالـف وفيهـا أمـان وتحصـين متـين، أمـا هنـا فهـم مسـتهدفون مـن كل الأطـراف... الخطـر محـدق .. (نحـن فـي نظـر الجيـش دواعـش، وفـي نظـر داعـش مرتـدون) هكـذا حـدث أجـود نفسـه الضاجـة بالحـوارات الصاخبـة، المتعثـرة بالخيـالات والكوابيـس.. تقـول مهديـة: ألقيـت حملـي علـى أبـي ابراهيـم فـلا تخـشَ شـيئًا. أمـاه ..إن الطـرق موحشـة .. طويلـة.. متوقـدة صراعًـا.. مشـتعلة حروبًـا.. ولكـن

وحده هو الطريق وما سواه لا يؤدي الى غاية منشودة. كُتِبَ علينا أن نسيرها ولا حارس الا هو، ولا منقذ إلا إياه فطوبى لنا ولم يبقَ حارس في الطريق الا هو..



سيطرة أربيل لا تقل ضجيجًا وصخبًا وبؤسًا عن سيطرة سامراء. الناس متدافعون على الدخول الذي لا يتم الا بعد اجراءات كثيرة ومملة. هنا تجد صورة أُخرى لعذاب الوطن المترهل والموغل بالمصائب، هم أنفسهم الفارّون من الحرب لم يجدوا مأوىً غيرها، فأما الذين يملكون أموالًا كافية فسيستأجر بيتًا ويعيش من ماله، وأما الفقراء فسيعيشون عيشة الكفاف. طال الانتظار منذ ظهر ذلك اليوم الى الليل حتى دخلنا أربيل. الخال حسين لا يحب ساسة الكرد، يرى أنهم أشدّ نكالًا من سياسي بغداد، وإذا كانت بغداد تطفح بسياسيين طائفيين فأن كردستان تطفح بسياسيين عنصريين ومع ذلك أول ما علم بمرض مهدية أرشدها بالذهاب الى أربيل. أربيل دار أمانٍ واطمئنانٍ، لا هم لك فيها ولا خوف سوى من المال الذي سينتهي، عالم آخر يسوده الرخاء، لا عنصرية لا صراع، المباني شاهقة تدل على عظم العمل الدؤوب في خدمة الانسان، بل تكاد تكون دولة مستقلة عن العراق. بقي أجود يطالع الأضواء الساطعة والشوارع الضاجة بالسائحين والمهجرين خاصة من المناطق التي دخلها التنظيم.

قال أجود:

-هنا أمان... فلتقري عينًا.

فقال مهدية:

-راح الأمان مع الغائبين.

-الذي ردَّ يوسف ليعقوب كفيل بردهم.

-أتعرف يا أجود؟ انظر الى المصائب كيف تواترت علينا، لمَ؟ لأن الروح قد تعبت وشاخت خلال أشهر، لأن أضواءها خفتت فلم يبقَ الا شبحٌ متوارٍ خلف هذا الجسد النحيل، الى أن ضجر هذا الجسد ولم يعد قادرًا على التحمل، لقد كسرت روحي قبل جسدي، ولا جبر لكسرها الا بعودتهم.. هل يعودون؟!

فقال وهو يغالب الحسرات:

-سيعودون.

-متى؟

-كما عاد أبي من قبل.

-هل يئست حمدية من عودته؟

-لا أعلم.

فقالت بوجع:

-متى سيعود؟

فقال كاذبًا وهو يعلم أنه كاذب:

-سيعودون .. هكذا أشعر منذ أيام.

كيف السبيل إليهم؟ هل يذرع الطرقات والمسافات والأبواب الموصدة ليسأل عنه؟ هل يقول لهم: أن أخي جنديٌّ محكوم عليه بالاعدام من قبلكم فهل نجده عندكم؟ كيف السبيل الى صد الحزن الهائج واقناع أمهم : أن جواد حاله حال الكثيرين

رحلوا، ولم يعودوا ... ولكن كيف يخبرها؟ إن الصدع بالحقيقة لأبشع وأعظم من الحقيقة نفسها؟!

-٨٣-

يقول الفيلسوف الصوفي ابن عربي: (الناس نفوس الديار).. تذكر أجود تلك المقولة وهم في طريق العودة، ها هم يعودون ثانية لطريق الخوف والحرب والصراع. عندما وصلوا الى تلال حمرين تذكر أجود بساما عندما قال له أن شيخ التكية قد اعتكف في مغارة في سفح هذه التلال سنينًا طولا متعبدًا لله، لا يأكل الا القليل من الطعام قد يصل الى تمرات معدودات في اليوم الواحد مع جرعة ماء يقيم به طوله، ويستمر واصلا الليل بالنهار ذكرًا وصلاةً وعبادةً.

لاحت سيطرة داعش مجددًا، وعادت مهدية تسبح وتدعو الله أن يكف عنهم شر التنظيم .. أوقفوهم كالعادة. قال الملثم بصرامة:

-من أين؟

-من أربيل.

-الى أين؟

-الى سامراء.

فنادى في جهاز اللاسلكي، وجاء مثلم آخر، فقال بلهجةٍ سامرائية:

-من أين من سامراء؟

فقال أجود:

-مهجرون.

-من أين؟

-أطراف تكريت.

فقال بحدة وصرامة زائدة:

-من أيِّ مكان؟

وقبل أن يحرك أجود فاه قالت مهدية:

-لوعة عباس!!

فوجمت الوجوه، وتبادل الملثمان النظرات التي تملئها الريبة.. وعلم أجود أن أمه وقعت في المحذور.. كيف قلتِ هذا؟ لمَ لم تقولي من (العباسية)؟ أو (الزلاية) أو (العاشق).. لوعة عباس ثانية!!

فانتحيا جانبا وراحا يتكلما ويتصلا. فاتجه أجود نحوها:

-لمَ قلتِ من (لوعة عباس)؟!

فقالت بأناة وايمان تام:

-يا ولدي، «النجاة في الصدق» !

وجاء أحد الملثمين وأنزل أجود وأخذه معه، وقال مطمئنا مهدية: سيعود بعد قليل! وأخذوه الى بيتٍ منزوٍ عن الشارع أعدوه مسكنًا لأمير تلك الكتيبة.. وأجلسوه على مقعدٍ معد للانتظار.. ولكن أيَّ انتظار؟ انتظار موتٍ آت.. سيتصلون ويعلمون القصة كلها.. هو الذي كان لرحمةً خدنٍ وصاحب ماجنٍ.. هو الذي حاول تدنيس شرف ابن الوالي والأمير والمقرَّب من الخليفة.. هو الذي نكس رؤوسهم وهزمهم

بحيلة.. تُرى هل ينتظره شيء غير الموت.. طائف الموت يحوم هنا.. آتٍ ليأخذ روحه.. وستكون أمه المسجات سبية وأخته.. يا الله مًا أبشع ذاك الشعور..! إن الموت ليبدو لينًا هينًا أمام مصائر مهدية وبتول.. هو الذي فعلها، هو الذي شطح وتهور وعاند وكابر ليقع في شرك عمله. لوهلة تبدو الحياة عزيزةٌ بهيجةُ.. بل حانية بعد أن كانت فانية، تتجًلى محاسنها كغادةٍ تجلى حسنها للناظرين وساغت غوايتها للشرهين .. تلكً اللحظات هي عندما يزف الموت ويقف ملوحًا كحقيقة أبدية راسخة زاحت كل ترهلات الرجولة وأهازيج البطولةً .. بلً تضاءل ذاك العنفوان المشاغب في النفس ليحل مكانه ذاك الصوت صداحًا وتصاغر ما سواه: حُبُّ الحياة.

وجاء رجل ضخم الذي سرعان ما يدرك الناظر من غير عناء أنه غير عربي، خاصة وأن شعره أحمر أصيل لم يخضب بحناء كما يفعل من سواه. فقال بصرامة:

-والله أنتم أهل سامراء لنصفيكم بالسيف...!

فتذكر الحديث الذي تتلوه أمه بقدسية خاشعة : «النجاة في الصدق» .. فقال:

-نحن لسنا من سامراء..

-اخرس! أنتم منهم تتصروهم علينا .

-لم ننصر أحدًا!

-لو كنت رجلا لانخرطت في صفوف الدولة الاسلامية..!

- ....!!

فجاء آخر يتهادى وقال له بصوت خفيض ولكن أجود سمعه

لقربه:

-أبو قتادة لا يرد.

-ولمَ؟ لعل مكروهًا حصل!!

-لا أعلم.

-وهذا.

-اتركه.

-كيف نتركه؟

-لا شيء عنده .. اطلقه.. وأمه مريضة.

فذهب غاضبًا، أما هذا الذي بدا سمحًا هادئًا فقد أقبل نحوه وأعطاه تمرًا وماءً، فتناولهما أجود على مضضٍ.. ثم ودعه باسمًا.



-لو تعلم يا خال المستشفى التي دخلناه في أربيل ما أكبرها! شاسعة رحبة، تشرح النفس وتشفي الفؤاد، هذا المستشفى يا خال يشفي العليل، عندما تجتاز عتباته يلفحك هواء بارد ينعش النفس. والطبيب الحاذق الذي استقبلنا بتلك الحلاوة والحفاوة... شيءٌ راقٍ والله.

كان خالها حسين يستمع لحديثها وهو منهمك بالأكل وبدا أنه جائع .. فقال قبل أن يجهز على صحن الأرز:

-بتول .. اجلبي صحنًا آخرًا.

فقالت مهدية وهي ترى انهماكه:

-خال .. بشرى لم تطبخ لك؟

-بشرى زعلى!

-أين هي؟

-في بيت أهلها..

-ولمَ؟

-تريد أن أسجل نصف البيت الآخر باسمها.

فقالت ذاهلة:

-النصف الآخر؟! يعني نصف البيت باسم بشرى؟

-أجل... وتريد النصف الثاني!

-لمَ؟ ما لك يا خال.. تضع نصف رقبتك بيد امرأة؟

-يا مهدية، بشرى لها نصف البيت، لأنها عندما اشتريتُ البيت باعت ذهبها وحليها وأعطتها لي، فهي شريكتي في البيت، ولكنها الآن تريد كل البيت، تقول إنها دفعت القسم الأكبر!!

-حليها وذهبها!! ومن أين لها هذا الحلي؟؟؟ أليس منك!

فقال بتؤدة:

-أجل.. عند العرس .. وبعدها كثير.

-وبعد العرس أيضًا؟ بكم باعته؟!

-أحد عشر مليونا.

-حسبي اللّه ونعم الوكيل!! أحد عشر!! وماذا ستفعل الآن؟

-لا أعلم.

-اياك أن تتنازل خالي عن البيت.

-اللّه كريم.. اكملي قصة المستشفى.. بتول أين التمن؟

-ثم بقينا في المستشفى .. تحاليل وفحوصات وأشعة.. وجاء الطبيب المختص.. فقال إن الدواء الذي سجله طبيب سامراء خطأ في خطأ...

فضرب الخال ملعقة الطعام بالصينية غضبًا وأحدث صوتًا عاليًا...

-قلت لك؛ الأطباء هنا لا يفهمون ولا يعتمد عليهم أو يعتد بهم.

-ولكنه لم يقل شيئا الا الانتظار لأشهر كما قال طبيب سامراء، وكتب لي علاجًا جديدًا وعليَّ أن آخذه بانتظام.

فقال الخال وهو يهم بالقيام:

-الحمد للّه على السلامة، المهم أن تكوني بخير وتقومي على رأس أبنائك، فما زالوا صغارًا، توكلي على اللّه، وإن شاء اللّه الشفاء عاجل ..

-استرح لتشرب الشاي.

-شاي ابنتك غير لذيذ.. سأشرب في المقهى.

فقالت بتول:

-لمَ يا خال؟ أهذا جزاء خدماتي؟!

-ماذا فعلتِ أنتِ لي؟

-ومن طبخ الغداء؟

-هذا فرضٌ عليكِ، ثم أني أكلته كي لا أُغضب مهدية.. وأنتَ يا مهدية أوصيها أن تتقن تخدير الشاي، قبل أن يُشاع عنها

أنها لا تحسن الطبخ، فتقعد عانسًا عندك...!

-عانس!!

-أجل، وما فائدة المرأة إن لم تحسن الطبخ؟!

-ما شاء اللّه بتول جميلة، ولن تقعد كما العوانس.

والحق أن مهدية مرتابة وخائفة، والخال حسين ضاعف ذلك الخوف، بتول لم تتزوج الى الآن، ولم يصارح أو يلمح أحد حتى الآن، إنه همٌّ وغمٌّ يملأ جنبات البيت الحزين هذا.

-٣٩-

لا ركود وهدوء الا وأتى ما يكدر ذلك الركود ويفسد هذا الهدوء. مضت أيّام عائلة مهدية هادئة، حتى إنها خالتها أيام هناء، وأن اللّه سيعوضها عما عانت من مصائب ونوائب ويرزقها هي وذريتها استقرارًا وسكونًا، لكن السعد كان بعيدًا أشد ما يكون البعد. وهذا حال سائر النازحين القانطين هذه المدينة. لما بدأ الجيش يستعيد عافيته رويدًا رويدًا ـــ وإن كانت تلك الاستعادة بطيئة ـــ وبدأت الدولة تفكر جديًا في استعادة الأراضي التي استحوذ عليها التنظيم بدأت حملت اعتقالات تروم المعتقلين السابقين بتهم الإرهاب، وبدأ التدقيق على النازحين... لذلك خشي أجود على نفسه وعلى أخيه، وحذر أهله من أن يقولوا هم من «لوعة عباس» بل من تكريت المدينة لا أطرافها. وذات ليلةً ربيعية سادها الدفء مما ينبئ بزمجرة الصيف القائظ القادم سُمعَت همهمات في الزقاق، كانت الأبواب موصدة والناس غارقةَ في نومها وسهرها، ودُقَ بابهم بقوة.. علموا أنهم جيش وآتين للتفتيش. فتح أجود الباب فدخلوا وانتشروا في الحوش، فقال الضابط بصرامة:

-بيت (حسان عبد القادر إبراهيم).

-أجل بيته، ولكننا مستأجرون منه.

-أنتم نازحون؟

-أجل.

-من أين؟

-من تكريت.

-فتشوا البيت.

-في البيت نساء، لأدخل وأخبرهن.

-تفضل.

وبعدها دخلوا وفتشوه فلم يجدوا شيئًا.

فقال الضابط:

-أين حسان؟

-لا أعلم.. استأجرناه ورحل حتى الايجار لم يأتِ ويأخذه.

فقال الضابط:

-خذوه.

فلما رأتهم بتول يجرونه صاحت، فسمعتها مهدية القابعة في الغرفة الصغيرة وبدأت تصرخ هي الأخرى صراخًا مدويًا حتى أطل الجيران من بيوتاتهم بفضول نحو بيت مصدر الصوت.

رحل أجود .. وانتشر في المنطقة أن الاستخبارات كانت تراقبه من فترة طويلة وأن له تعاون مع داعش ، بل هو جاسوس لهم، كان يوصل الأخبار ويراقب تحركات الجيش..

فـي اليـوم الأول لاعتقـال اجـود جـاء الخـال حسـين، وانطلـق يفتـش فـي المراكـز والدوائـر الأمنيـة ولكنـه لـم يعثـر عليـه.

في اليوم الثاني استمر الخال في البحث ولكن همته فترت.

فـي اليـوم الثالـث لـم يعثـر عليـه .. فظـن أن أجـود قـد رحـل كمـا يرحـل أولئـك المتهمـون دون أن يسـجلوا ضمـن المعتقلـين ... ومـن سـأل عنهـم والدنيـا مائجـة والسـعيد مـن سُـكِت عنـه؟



قوال أهل الحي في اعتقال أجود:

منـذ اليـوم الأول وأنـا شـاكة بهـم، وجوههـم كالحـة، تمجهـا النفس، وينفر منهـا القلـب السـليم، ومنعتُ أولادي مـن الاقتـراب منهـم مهمـا حصـل، وفـي نهايـة الأمـر تبـين أنهـم دواعـش، بـل مـا زال يكاتبهـم وينفـذ إليهـم الأخبـار تلـو الأخبـار حتـى اعتقلـوه بحمـد الله.

أم خالد، صاحبة الدكان في أول زقاق بيت أجود.



لمـا رأيـتُ أجـود أول مـرة رأيـت فـي عينيـه شـرٌّ يداريـه بطيبـة مصطنعـة، فعلمـت ــبفراسـتيــ أن هـذه العائلـة تنتمـي لداعش، بـل راوغ فـي الكـذب وذاع بـين النـاس أن أخـاه فُقِدَ فـي سـبايكر .. ومـن يـدري لعـل أخـاه داعشـي نجـس وصـوره بصـورة بطـل، بـل قـد يأخـذون تعويضـات عليـه، مثـل كثيـر مـن النـاس عندمـا يمـوت واحـد منهـم ــأيـام الاحتـلالــ مـن مـرض أو علـة يقـول: الامريكـان أو القاعـدة مـن قتلـه. فيأخـذ تعويضـات علـىً أنـه مـن متضـرري الإرهـاب أو الاحتـلال.

أبو فاضل، جار بيت أجود.



هـذا الفتـى هـو ومـن قبلـه صاحـب البيـت كانـا محـل شـك، تصرفاتهـم، دراسـته، كان يرتـاد المدرسـة الدينيـة، صلاتـه فـي المسـجد، كل هـذا ظهـر لـي، فعلمـت أنه متطـرف، ارق في تطرفه.

أبو توفيق، جار بيت أجود.



شـابٌّ مهذب، كان يرتـاد مسـجدنا، دمث الخلـق، لم نـرَ عليـه مـا يسـؤنا، ولكـن أولاد الحـرام كثـر،، لعلـه ذهـب بشـخطة قلـم.

إمام المسجد.



كان صديقًـا مقربًـا لـي، فلـم أرَ مـا يتوجـب الحـذر منـه، بـل بالعكس، كان طيبًـا، صحبتـه لأشـهرٍ فتعلمـت منـه الكثيـر وعلمت عنـه الكثيـر.

بسام، الصديق المقرب لأجود.



نظـرت بتـول النظـرة الأخيـر علـى مسـكنهم الـذي لـم يـروا منـه خيـرًا، نظـرت وبنفسـها شـرخ عميـق، أيـن صوتـه وهـو يذرعـه؟ أين صياحـه؟ بـل أيـن تلصلصـه علـى نافـذة نـوار تلصـص العشـاق؟ وسـمعت صـوت السـيارة إيذانًـا بالرحيـل. خرجـت وصعـدت فـي سـيارة الخـال حسـين. وجـدوا بيتًـا آخـرًا لا يقـل عـن بيتهـم هـذا بؤسًـا وضنـكًا ولكنـه علـى الأقـل لا يثـر الريبـة مثـل هـذا البيـت، وكذلـك جيـران غيـر هـذا الجيـران، الـكل بـدأ يحتقرهـم، يشـيرون إليهـم علـى إنهـم بيـت (الدواعـش). هـذا عـار مـا بعـده عـار،

حتى ضاق البيت وكأنهم في سجن موصدة أبوابه .. سجن من الحزن والتفجع. مهدية منذ اسبوع ترقد في المستشفى وفي العناية المشددة، يقول الاطباء أن مهدية لا تستجيب الى العلاج. لمَ يا مهدية؟ أهو كسر الروح الذي اتسع فضاقت معه الروح حدَّ الاختناق فاتسع معه كسر الجسد؟ أتحنين إليهم؟ الى القرية .. الى لوعة عباس في ذلك البيت.. حيث علي وهو جالس وحوله جواد وهو ينظف بندقيته.. وأجود وهو يقرأ بكتبه... وجودت وبتول وهما يمزحان تارة ويتشاجران تارة أخرى.. أهكذا يكون وجع الغائبين؟ تفجع وألم وبكاء... وفوق هذا ألم يحز الروح قبل الجسد.. يدمر أوصالها.. حتى لترى أن الحياة محض هراء.. لا عدالة ولا اتزان .. كأننا قبلة الألم ووجهته فيقصدنا في كل وقت ليقضي فرضه، يا ايها الألم أمهلنا قليلًا فإننا لم نلحق أن نودع السابقين بما يكفي من التفجع حتى تصفعنا ثانية.. أيها الألم تروَ قليلا وامهلنا حتى تستطيع العين أن تهمل مزيدًا من الدموع.. ما الذي بقي؟ لمَ هذا الشقاء؟ ألم يكفنا ترك الديار .. ألم يكفنا ذاك الحنين الذي أنهك الروح وصلاها من جحيمه ومره لتأتي صفعات الغياب التي لا تمهل ولا تبقي ولا تذر؟

البيت الجديد ليس أفضل حالا من البيت القديم، وهو قريب منه، غرفتان صغيرتان وصالة ومطبخ وايجاره مئتان وخمسون ألفًا ـــ ولا تدري بتول من أي سيأتون بهذا المبلغ شهريًا ولكن الخال هو من قررـــ . دخلت بتول والخال على مهدية في المستشفى، كانت مهدية في العناية المشددة، ولكن هل وضعت في غرفة مستقلة؟ لا، إنما قاعة فسيحة فصلت بين الاسرة ستائر لتكون على شكل حجرة صغيرة، قبلت بتول والدتها المسجاة وفي عينيها بقايا دمعة جفت لتوها بأمر

الخـال، أمـا مهديـة فعيناهـا غـدت كعينـي يعقـوب؛ جفتـا مـن الدمـع حزنًـا وكمـدًا.

-هل من خبر جديد عن أجود؟

فقال الخال:

-لا جديـد، لـم نـدع مركـز أو لـواء أو تكتـلا عسـكريا الا ودخلتـه وسـألت عنـه، ولكنهـم كلهـم أنكـروا أن يكـون عندهـم، ولكـن الفـرج آتٍ...

فقالت بقنوط:

-متى سيأتي؟

-عندمـا يـأذن اللّه.. فـرج اللّه قريـب وأنـت مؤمنـة.. أعرفـك قويـة لا تزعزعـك المحـن، واللّه قـد وقفـتِ أمـا نـوازل أشـد مـن هـذه، نسيتِ كيف حملت وعشتِ في القَرية مع عمتكِ حمدية وولدهـا سـعَيد ومـا عملـوا بـكِ ... ومـع هـذا حملتهـا ورحَلـت كأن لـم تكـن، فمـا لـكِ تقفـين هكَـذا واهنـة رخـوة؟ عهـدي بـكِ امـرأةً تتحـدى الصعـابَ ولا تبالـيِ.. متـى جلسـت مهديـة القويـةَ هكـذا تنـدب وتبكـي حتـى لـم يبـقَ بعينيهـا دمـع؟

-يـا خـال، أحمـل همومًـا لـم تحملهـا الجبـال الشـامخات. أنـا عاجـزة. أن تفقـد ولديـن ولا تعـرف مصائرهمـا هـو المـوت.. لقـد مـات كل شـيء بـي يـا خَـال.. أنـا شـبح أمامـك.

-لـن تموتـي، ايـام وتتعافـين.. أنـتِ أقـوى مـن ذلـك، إن لـم تفكـري بنفسـكِ ففكـري بابنتـك هـذه (ثمَ تبدلـت لهجتـه مـن الليونـة الـى الصرامَـة) أنـت تعلمـين أن ابنتـك شـابة، والعالـم موحـش لا يرحـم، لمـن سـتتركينهاَ؟ هـه؟ حتـى وأن مـات أجـود وجـواد، مـن سـيبقى لهـا؟ الحيـاة قاسـية لا ترحـم فـلا ترمـي ابنتـك لقمـة سـائغة لهـا.

فأشاحت بوجهها عنه كأن الكلام لا يعنيها.

فقال الخال:

-انتقلتم الى البيت الجديد، وسأشتري سريرًا لكِ ونضعه في احدى الغُرف، فالبيت شرح شاسع..

فقاطعته قائلة:

-كم ايجاره؟

-لا عليكِ بالايجار ولا تفكري به ، كوني بخير أنت وهذا المهم.

فقالت كمن تذكر شيئًا:

-خال.. عرفت طريقة ممكن توصلنا الى أجود.

-...؟؟

-٤٠-

عندما كاد يموت ولم يبقَ به شيء ينبض الا نفسًا يصعد ويهبط ببطء أمر الضابط بإخراجه الى المنفردة. حملوا جثمانه الهامد الا من ذلك النفس وشحطوه وهو غير واع في الممرات الطويلة المظلمة الا من ضوء شاحب. في تلك الأثناء لم يكن يشعر بشيء الا أنين المسجونين تترامى الى مسمعه من هذه الزنزانة وتلك، كان غارقًا في بحر من الظلمات. فتحوا الزنزانة وقذفوه فيها بقوة ودون مبالاة لعظامه التي ارتطمت بالحائط بقوة. كان الزنزانة لا تتسع الا لجسد واحد، والظلام الدامس قد غطى المكان حتى لا يكاد يرى أعضاءه. كان جسده يشخب دمًا من كل مكانٍ، لم يعد يشعر بأيِّ شيء، نسى كل الشيء وبدا ذلك الماضي من النعيم المقيم.. أمّا

القريـة فهـي مـن الأحـلام البعيـدة والتعيسـة فـي آن.

كل هـذا حصـل لـك يـا أجـود؟ كل هـذه العـذاب والضـرب لمـاذا؟ نحـن متهمـون ولـم نذنـب، مجرمـون بـلا جـرم، ارهـابيـون بـلا إرهـاب. منـذ متـى وطالـب العلـم الشـرعي هـو مجـرم وتلفـق لـه اربعـة ارهـاب؟ وبينمـا هـو يغلـب المـوت وتـراءت لـه الحيـاة كخيـال تذكـر أوَّلَ مـا دخلـوا عليهـم، قالـوا لـه تحقيـق بسـيط، ولكـن ذلـك التحقيـق البسـيط كان قطعـة مـن العـذاب الأليـم، وتلـك الفتـرة القصيـرة امتدت وتشـجرت لتكون أشـهرًا طـوالًا وهـو لـم يسـجل حتـى فـي عـداد المسـجونين. أول مـا دخـل غرفـة التحقيـق سـأله الضابـط المـوكل عـن حسـان صاحـب البيـت الـذي يقطنـون فيـه، فقـال أجـود:

-لا نعرفه.

-كيف استأجرتموه إذن؟

-وجدناه في مكتب العقار، وأخذ ايجار شهر وذهب ولم يعد.

-الى من تسلمون الايجار؟

-لا نسلمه لأحد، ذهب ولم يعد أصلًا؟

-أين رقم هاتفه؟

-سـيدي .. أقـول لـك لا نعرفـه، اسـتأجرناه وذهـب ولـم يعـد، لـمَ تسـألون عنـه؟

-أجود، عليك أن تساعدنا حتى نساعدك.

-أساعدكم وتساعدوني؟ لمَ؟ ما الذي ارتكبته أنا؟

-قولك لا نعرفه ولا نتصل به أمرٌ لا نقبله.

-كيف لا تقبله.

-من أي المناطق أنت؟

-تكريت.

-بدأت تلف وتلعب معنا.

-....!

-أنت من قرية لوعة عباس.. هذه القرية المشبوهة والتي عليها خطوط حمراء كثيرة، ثم تكذب وتقول أنك من تكريت.

-إداريًا هي تابعة لتكريت.

-أنت بعثي؟؟

فقال بارتباك:

-سيدي .. عمري واحد وعشرون عامًا، أنى لي الحزبية؟!!

فقال حازمًا:

-اخرس!! البعثيون ما زالوا ينتشرون وتكاثرون على أمل العودة من جديد، أحلام، زمن البعث راح، ولن يعود، وما هذه المحاولات الا محاولات يائسة بائسة مثلكم.

-سيدي، أنا لست بعثيًا، وعندما سقط النظام عمري عشر سنين.

-سقط من الحكم ٢٠٠٢، ولكنه بقي فيكم الى الآن، بل أنتم الجيل الجديد موالون لهم وتحنون، تسلكون كل السبل الى الوصول .. القاعدة.. اعتصامات.. داعش.. أنتم مخربون. بل أنتم الجحر الذي ينطلق منه الشر!

فقال أجود بجرأة:

-ما تهمتي؟!

-إن المدعو حسان، والذي تسكن جنابك في بيته هو مقاتل في تنظيم القاعدة سابقًا، وانضم الى داعش حديثًا، قضى ثماني سنين في السجن والآن رجع الى ممارسة ارهابه وتطرفه.

-وأنا ما ذنبي؟

-ذنبك أنك تعرفه، واستأجرت بيته، وعندك تواصل معه.

-لا اتصل به، ولا أعرفه!

فقام ببطء نحوه وصفعه صفعةً سُمع لصداها دوي في ارجاء الغرفة وسقط أجود من كرسيه وارتطم بالأرض، وتبعها الضابط بصرخة مدوية:

-دواعش.

فقال أجود وهو يغالب ألم الصفعة:

-لسنا دواعش، نحن من ضحى بدمائه لأجل الوطن وهكذا تكافؤننا؟ أنا أخي جندي فُقِدَ في سبايكر، بدل أن تعوضونا وتربتوا على كتفنا وتحلوا مشاكلنا تتهمونا بأنا دواعش. ما ذنبنا يا سيدي؟ منطقة واستولى عليها الارهابيون وانسحب الجيش بلا قتال أو نزال، لم تحاسبنا على ذنب لم نرتكبه؟

-خذوه.

الليلة الأولى في السجن الجماعي كان طويلة ومتعبة، فالسجن مكتظ ولا تكاد تجلس حتى يأتيك الذي جنبك ليسمع قصتك ثم يحلل القضية وكأنه محام متمرسٌ، ثم يريد منك أن تنصت فتحسن الانصات لقصته وكيًف أنه بريء ولم يرتكب جرمًا. في السجن الكل أبرياء، حتى المجرم يصرخ إنه بريء. هذا

السجن يعتبر من أرقى السجون العراقية، فالوجبات الثلاث يأتين بمواعيدهن، ويأكلون في الافطار بيضَ وقشطة وخبزًا حارًا، ويأكلون اللحم مرة في الاسبوع، ولما علم أجود عن أحوال السجون الدامية كـ (أبو غريب) وغيره حمد الله. حتى الضرب الذي تلقاه والتعذيب الوحشي كان يطال فئة معينة؛ وهم المتهمون بقضايا الإرهاب. فلما تعذب علم أن وضعه كبير، وأنه لن يخرج في القريب الممكن. في اليوم التالي أعادوه الى التحقيق مجددًا.. كان ذلك الضابط كالغريق إذا لاحت أمامه خشبة طائفة أو زورق تائه، ففي تلك اللحظة لن تكون خشبة أو زورقًا بل حياة ونجاة.. هكذا الضابط يرى أجود، حلقة الوصل الى التنظيم، خاصة بعد أن علم أنه من «لوعة عباس» تلك القرية التي تعتبر بلاءً على الدولة، فهي مثوى ومأوى الشر.. أجود هو الكنز المنتظر .. وهو الذي سيقودهم الى القرية وقيادات التنظيم.

-عزيزي أجود، علمنا ما لعائلتك من تضحيات وفضائل، فأخوك من الجنود البواسل في جيشنا، ولكن كذلك عائلتكم مصدر الريبة، وقدومك الى سامراء يثير أسئلةً وعلاماتِ استفهام كثيرة تجعلنا نشك شكًا كبيرًا فيكِ وفي قدومك. وأولَ تلك الشكوك ٍ هو قدومك الى سامراء مع عائلتك وحدكم دون القرية كلها، لمَ؟ ثانيًا: الهجرة ممنوعة من قريتك، التنظيم يمنع أحد من الخروج وقد يعدمون الهارب .. فضلا عن أن يتركوه يهرب سالمًا منهم، فكف جئت؟؟ ثالثًا: تركت بيوتات سامراء كلها وسكنت ببيت ارهابي ولم يأخذ منكم ايجارًا لبضعة شهور!! اجبني.

-الهجرة أول الأمر كان مسموحًا بها.

-كيف؟

-الطرق مفتوحة.. اذهب ان شئت، ولكن بعد أن استعاد الجيش عافيته وعلموا أن المعركة آتية لا محالة تشبثوا بالنَّاس ومنعوهم من الخروج...

-لمَ؟

-ليكونوا حماةً لهم، يستدرون بهم عطف المنظمات الدولية والانسانية، أو بمعنى أقرب دروعًا بشرية يتقون بها القنابل والرصاص، وهذا الأمر معروف وأنتم تعرفونه.

-وعمك سعيد؟

فقال أجود ببطء:

-ما به؟

-اليس هو شيخ القرية وكبيرها وصاحب الأملاك؟

-نعم.

-مع الداعش؟

-لا أعلم.

-هو بعثي؟

-لا أدري.

-ماذا تدري إذن؟

-ليست مهمتي أن أُتابع عمي وتوجهه السياسي، أنا كنت طالبا، فلا يعنيني الأمر كثيرًا.

-لماذا لا تعترف بالحسنى؟

-قلت لكم الذي أعرفه، وهذا كل الذي عندي.

فخرج من الحجرة غاضبًا. وبدأ قلب أجود يخفق بسرعة خفقات وجلة مرتابة.. وما هي الا دقائق حتى دخل جنديان فارعا الطول مفتولا العضلة، لتبدأ حفلة من التعذيب لم يذق مثلها، بدءًا من الركل واللطم والسب بأقبح ما يكون السب مرورًا بكيل التهم «داعشي.. بعثي» .. وتستمر هذه الحفلة لساعات قبل أن يعيدوه الى تلك الزنزانة الضيقة والمعتمة. في اليوم التالي بقي أجود مصرًا على موقفه معاندًا .. فلقي ما لا يحتمله أمثاله، خنق بكيس حتى يكاد يموت.. أو خنق بالماء.. أو جلد بسوط حتى تشق صرخاته الفضاء.. جراح مثخنة نازفة.. تكسر أسنانه بفعل اللكمات الموجهة على الفم.. وقبل أن يحاول أن ينطق تأتي لكمة تفقده وعيه .. ثم يأتون بسطل ماء بارد ويسكبونه عليه، فيقوم فزعًا، وتعود حفلة الضرب واللكم ثم يرجعونه الى الزنزانة منهوكًا مكمودًا. فدخل عليه الضابط وأجود مستلقٍ يشخب الدماء ويئن. فقال الضابط:

-ألم أقل اعترف بالحسنى؟

فقال أجود:

-لا أعرف شيئًا.

-إذن ستبقى في هذا العذاب الى أن تشاء .

في اليوم الثالث لم يأتوا بل تركوه وحده يناجي الظلمات والآلام دون طبيبٍ أو طعام، كل الذي قدموه له كسرات خبز وحساء العدس وماء، طعام لا يسمن ولا يغني من جوع، وبينما هو على هذا الحال طافت في خيالاته ذكريات زينت له

الحياة.. ولكنها حياة الوجد .. عالم الأولياء والقلوب الصافية.. تصوف وعبادة، نور ونقاء.. تذكر ضرب الدفوف.. أين انت يا علي؟ مهدية تتوسل الى الله بِكَ فهلا أجبت؟

في اليوم التالي عاد الى تلك الغرفة والى ذلك العذاب، ولكن هذه المرة أشدُّ ايلامًا، فقد بدأ التعذيب بالكهرباء نتلا وصراخه وعياطه يملأ المكان. فدخل الضابط قائلا:

-أتتألم يا أجود.

فقال باكيًا:

-أي والله يا سيدي.

-أتحن الى القرية وسكونها وطبيعتها؟

-.....

-أتريد الخروج؟

-أي.

-أخبرني.

-لا أعلم شيئًا.

فتقدم أحد الجنود ومسكك أحد أصابعه ليخلع اظفره وبدأت صرخات أجود وكأنه طفل: لا لا. فخلعه ذاك الجندي بصلابة وأجود يبكي ويصرخ. ماٍ لك يا أجود تبكي كالصغار؟ أهو العذاب الأليم؟ أم الحنين؟

فقال الضابط:

-اخلع الظفر الثاني.

فصرخ أجود:

-لا لا ... سأعترف .. سأعترف.

-بماذا تعترف؟

-بكل شيء.

وأخذوه وغسلوه وكسوه حليةً مقبولة ـــوإن كانت ليست جديدةـــ وأطعموه طعامًا دسمًا، فأكل حتى شبع، ثم عاد لغرفة التحقيق، فتحدث عن كل شيء في القرية، عن أخيه جواد وعداوته لعمه قبل دخول التنظيم ثم فقده في سبايكر، وعن أسامة بن عمه سعيد وشده في الدين وانضمامه للتنظيم، وعن التنظيم وكيف دخل واستوطن، وعن وجود أبي عبد الله النجدي وكيف دخل القرية بطريقة مريبة باسم أبي سلمان، وعن رحمة وزواجها من طلحة وفراره من القرية بتلك الطريقة.. تحدث لساعاتٍ طوالٍ والضابط يكرر ويستفسر ويأمره أن يعيد اجابته. بعدها أعادوه الى السجن العام مع الناس ليبقى لشهرين متتاليين دون أن يسأل عنه أحد، عاش في السجن عيشة رتيبة مملة، لم يضربه أحدٌ أو يمسه بسوء، يأكل كما يأكلون وينام، نسي المدرسة والبيت الا مهدية وقلقها، ماذا حلَّ بها؟ كيف تنام دونه؟ ولماذا لم يسألوا عنه الى الآن. كان يسأل نفسه.

ذات ليلةٍ قمراء حنَّ واشتاق، نام المسجونون واقطعت الأصوات الا أصوتٍ الحيوانات تسبح للّه، هي لا تكف عن التسبيح كما كان يقول له شيخ التكية.. استمر بالتسبيح الى أن أخذته سنة من النوم. فرأى ما يرى النائم مهدية وهي تسير معافاة صحيحة، فقال أجود بعين دامعة:

-أماه.. أنتِ بخير؟

-بخير.. فقط عد.. سأكون بخير.

فأخفض رأسه وقال بيأس:

-لا أعلم متى أعود.. هنا في السجن يوجد من أقام سنين طوال وبتهم بسيطة... أما أنا فتهمتي عظيمة، لا أعلم متى يحولونـي الى المحكمة ـــإن حولونـيـــ وقضيتي ثقيلة قاصمة، فأقلها متعاون مع داعش.

فقالت بصرامة تشبه صرامة حمدية:

-لا تخف، ستخرج... وكلت بك أبو الحسنين، وقلت له: يا سيدي أريد ولدي منك.. رده، وأنا متيقنة يا ولدي أن دعوتي قد استجيبت.

-وكيف عرفتِ؟

-إن لاستجابة الله شعورا يملأ حنايا الروح سكينة واطمئنانا، كماءٍ باردٍ يروي العروق في نهارٍ قائظ، كيقينٍ راسخ يسكن القلبَ بعدَ أن أضناه الشك، كراحةٍ تتنزل فجأةً علىً قلوب الحيارى. ستخرج.

فقال:

-أماه، كثرت الدعوات.. ولكن السماء أغلقت حجبها، فلا تستجيب، كأنها ملئت حرسًا شديدًا وشُهبًا، فلم تعد تفلت دعوة مظلوم في الأسحار، ولا دعوة أم فُجِعت بالفقد، كأنها لم تعد تسمعنا.

-اسكت يا ولد... أصرت مثل علي؟

فهاج الوجع ثانية.. علي الذي كان يقول: أين الرب نادوه فلا يستجيب؟!

-أماه، ماذا أفعل.

-ادعوه، ولا تيأس أو تقنط من رحمته.

-سأفعل إن شاء الله.

واستيقظ على صوت المؤذن معلنًا دخول الفجر: الصلاة خيرٌ من النوم. فقام وتوضأ ثم صلى وقنت، ودعا واستعبر، فسالت دموعه مدرارًا على غير عادتها. ثم سلم وعاد الى فراشه وهو يتمتم ويتلو بأذكار الصباح، وقرأ بعدها (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) وبينما هو يتلوها أخذه طائف النوم. وإذا به يرى فيما يرى النائم أن أبواب السجن قد تحولت من ظلمة حالكة الى نور أضاء أرجاء الغرفة، فأطلَّ القمر الأول، فقال أجود مستعبرًا: سيدي أبو بكر الصديق.. سلام الله عليك يا صاحب رسول الله ورفيقه وقت الضيق. ثم أطل القمر الثاني، فقال: سيدي عمر.. الذي فر من الشيطان. ثم القمر الثالث فقال: سيدي عثمان.. شهيد المحراب المظلوم. ثم جاء القمر الرابع، فقال: سيدي علي .. صهر النبي صلى الله عليه وسلم أبو الحسنين .. الشهيد. فوقف القمر الرابع أما باب الزنزانة المقفلة واستل سيفه ذو الرأسين وبدا بتارًا ورفعه فضرب به قفل الزنزانة ففتحت على مصراعيها. صحى أجود من النوم على صوت الزنزانة وهي تفتح، فقال الجندي:

-أجود علي عباس.

-نعم.. هنا.

-إفراج!

-٤١-

مـاذا تفعـل مهديـة إن قدحـت فـي رأس الخـال حسـين نوبـات الجنـون المعتـادة فدمـر الأمـل الأخيـر فـي طريـق الوصـول الـى أجـود؟ ولكـن مـا الحـل وكل الذيـن يعرفونهـم لا يدانـوه وفـاءً وقربًـا؟! و الـكلام والاقنـاع وعـرض المسـألة هـو الآخـر فـنٌّ لا يتقنـه الخـال، بـل لا يحسـن التذلـل فـي طلـب المسـالة، فإرسـاله مخاطـرة كبيـرة ولكـنٍ وحدهـا هـي الطريقـة. وصـل الـى مقـر الجيـش وظـل مشـغولاً بمقارنـة بـين اسـم المقـر المكتـوب فـي الكـرت وبـين اللافتـة أعـلاه، فهـو لا يحسـن القـراءة تمامًـا ولكنـه يتهجـى الحـروف مـن غيـر عنـاءٍ كبيـر. فقـال لـه الجنـدي:

-ماذا تريد أيها الشيخ؟

فرفع الخال نظره وقال بكبرياء:

-تأدب أيها الجندي عندما تخاطب الأكبر منك سنًا ومقامًا.

فقهقـه الجنديـان الواقفـان جنـب ذلـك الجنـدي، بـدأ اللمـز بـه وبهيأتـه:

-متأسفون أيها الشيخ العظيم ولمقامكم السامي.

فقال الآخر:

-ويحك ما هذا الشماغ؟ حسبته لمتسولٍ يسأل الناس.

فأجاب الأول:

-ومـن قـال إنـه لا يسـأل النـاس؟؟ اذهـب حجـي مـن هنـا الله يعطيـك، نهايـة شـهر والفلـوس انتهـت.

فقال الخال بغضب:

-قبحكم الله من جنود، أنتم جنود؟ أتحسبون أنفسكم عسكرا وعندما كنا نحن عسكراً؟ ما هذه الثياب المتسخة؟ وأنت الآخر ما هذه اللحية الكثة كأنها حشيش؟؟ عندما كنا كنا رجالا حقًّا، منذ الصباح الباكر نحلق اللحية بالموس وغير ذلك يعاقب أشد ما يكون العقاب، كنت أرتدي قيافة وأناقة لا يحملها رائد في أيامكم.

فقال الأول وقد جحظ عينيه:

-ماذا تعني أيها ..؟

-أعني أنكم ممخرقون، ألا ترون أن الموصل ضاعت وتكريت .. بل ثلث العراق، لمَ؟ لأن أنت وأمثالك عسكر!! أنتم لا تحسنون الوقوف استعدادًا واحترامًا، ثم تريدون أن تحرروا العراق.

فمسكه الأول من تلابيبه قائلا:

-قبحك الله من عجوز.. بعثي وتأتي هنا وتغلط علينا.

-اتركني.

فصفعه الثاني بقوة وجره الى الداخل ثم عمل شكوى ضد الخال بتهمة الاساءة الى المنظومة العسكرية والاعتداء عليهم، ورموه بالسجن!

لم يعد الخال في ذلك اليوم وهاتفه مغلق، فحارت مهدية ماذا تفعل وهي في المستشفى، لعله اساء الأدب مع العقيد؟ يفعلها. لعل سيارته تعطلت ونسي هاتفه مغلقا؟ ممكن. ماذا تفعل؟

فقالت بتول:

-بسام، نرسل له ونرسله الى العقيد بدل الخال.

-صحيح، جودت اذهب الى بسام وناده ليأتيني.



-أريد لقاء العقيد محمد السامرائي.

قالها بسام بلطف ولباقة. فقال الجندي:

-تفضل.

ودخل على العقيد الذي هشَّ وبشَّ دون أن يعرف حتى من هو، مع كلمات الترحاب لدرجة أن بسامًا خجل من لطفه.

-سيدي أنا من طرف عائلة (جواد علي عباس).

-جواد علي عباس؟ أين سمعتُ هذا الاسم..

-الذين لقيتهم على أبواب سامراء وأدخلتهم وولدهم جواد كان تحت امرتك.

-تذكرت.. أهلا وسهلا بك، كيف حالهم وأين أجود؟

-لهذا جئتك يا سيدي، حالهم سيء جدًا، السيدة أمهم تزحلقت وكسر ظهرها..

-لا حول ولا قوة الا بالله.. السيدة الطيبة.

-والمصيبة الكبرى أجود. سيدي، أجود معتقل ولم يعرف مكانه الى الآن، منذ شهر تقريبًا ولم ندع مركزًا لم نسأل فيه أو قاعدة عسكرية، كلهٍم ينفون أن يكون عندهم، علما أنه تم اعتقاله من قبل قوةٍ أمنيةٍ ويسألون عن رجلٍ في تنظيم القاعدة سابقًا..

-تنظيم القاعدة!!

-البيت الذي سكنوا فيه عائد لرجلٍ في تنظيم القاعدة، ويبدو

أنهم عقدوا صلة بين صاحب الدار الذي هرب وبين النازحين الذين قطنوا البيت، علمًا أن الناس اتوا الى سامراء بكثافة عارمة، فمن أين لهم أن يعرفوا ويميزوا الرجال وهم غرباء وحيدون؟ عثرات خطتها الصدف فحاكمه عليها القانون.

-أين هو الآن؟

-المشكلة أنهم لا يعلمون أين هو الان.

-الحقيقية يا ولدي لا أعلم ما أقول، ولكن سأُحاول أن أبحث عنه، وان عثرت عليه فلن أُقصر بإذن الله.

-بارك الله فيك سيادة العقيد.

فقال ناهيًا اللقاء:

-أهلا وسهلا.

وقبل أن يقوم، قال:

-صحيح.. أمس جاء رجل كبير يرتدي دشداشة وشماغ يسأل عنك وهو خال أجود ولكنه لم يعد!!

-أيضًا لم يعد؟

-اي والله.

-ما قصتهم؟!

-لا أعلم.

-لعله شيخ مزعج؟

-أجل هو.

فنادى على الحارس وفتح السجل وقال: نادِ من التوقيف:

حسـين مرتضـى كامـل.

فقال بسام:

-نعم هو الخال حسـين.

-هـو؟!

-أجل.

-هـذا الرجـل سـبب لنـا مشـاكل كادت تـودي بـه، ولكـن سـأحاول اخراجـه اليـوم، تعـارك مـع الجنـدي الواقـف فـي البـاب.



فتـح العقيـد محمـد السـامرائي ملـف أجـود بعـد جهـد جهيـد مـن البحـث والاتصـالات والعلاقـات مـع الضبـاط حتـى عثـر عليـه، يدهـش تـارة مـن بعـض الفقـرات ويعبـس تـارة أخـرى الـى أن أتم قراءتـه. رفـع الهاتـف واتصـل بجهـة عاليـة وبعـد الترحـاب: سـيدي، عنـدي فتـى نـازح، تم تلفيـق دعـوى كيديـة لـه بسـبب وجـوده فـي مناطـق سـيطرت عليهـا داعـش... الفتـى مـن عائلـة محترمـه وأخـوه كان جنديًـا فُقِـد .. نعـم.. المشـكلة أنـه لـم تثبـت عليـه تهمـة.. نريـد اطـلاق سـراحه... شـكرًا سـيدي شـكرًا.

بقـي العقيـد فـي محادثاتـه واتصالاتـه الـى ان تم اطـلاق سـراح أجـود، وأول مـا خـرج مـن السـجن كان العقيـد محمـد في انتظاره. لمـا رأى أجـود العقيـد فـي انتظـاره داهمـه خجـل مفاجـئ، لعـل ملابسـه الباليـة وشـعره الأقـرع همـا سـبب الاحـراج، فهـم فـي نظـره عائلـة بطـل قضـى نحبـه فـي سـبيل الوطـن.

-الحمد للّه على السلامة.

فقال بارتباك:

-شكرًا جناب العقيد، ربي يسلمك.

-كنت متهمًا بقضية كبيرة، وكان من المقرر محاكمتك طبقًا للمادة أربعة من قانون الارهاب، لكن الوالدة فعلت خيرًا عندما أرسلت لي خبرًا، وبعد فترة طويلة امتدت لشهرين أو أكثر ها أنت تقف أمامي حرًا طليقًا.

-شكرًا سيادة العقيد.

اخرج علبة السجائر من جيبه وناوله واحد فأخذها أجود ممتنًا وأخذ واحدة له واشعلها لأجود بكل تواضع. أجود أصبح مدخنًا في السجن. فقال العقيد وهو ينفث:

-ماذا تعمل أنت؟

-لا شيء.

-سأجد لك عملا لم تكن لتحلم به يومًا، أحتاج منك فقط أن تجتهد وتأخذ شهادة السادس الاعدادي، بعدها ستعيش عيشة الملوك. هل تجيد استعمال السلاح؟

-نعم.

-ممتاز، سوف أجعلك ضابطًا برتبة ملازم في الجيش وبشهادة السادس، تدخل فترة اعداد لمدة ستة أشهر، وبعد تقبض راتب ضابط، ستعيش بالراتب الطائل بلا منة أحد مهما كان. ستعود الى العيش بكرامة وعز يا أجودً.. هل نسيت؟ تطاول الاقزام عليكم في هذه الأشهر ومن لم يكن يرفع صوته أمامكم صار يأمركم.

ها هو العقيد يضع يده على موطن الألم، ها هو جاس على

الوجع مرة واحدة بلا رفق ليعيده الى تلك الأيام الى العز الحقيقي.. ولكنه عمل ضابطا مرة واحد؟ لم يفكر يومًا في هذا العمل، كل احلامه كانت امام مسجد، وإذا غالى فمدرس في قريتهم.

فتابع العقيد:

-فكر جيدًا يا أجود.. ستكمل ما بدأه أخوك.. جواد.. ستثأر له .. هل تقبل أن تكون جبانًا وتترك دمه؟

فقال والالم يغوص في اعماقه:

-لا .. لا..

-العسكرية شرفٌ ما بعده شرف.

-سيدي.. لمَ تفعل هذا معي؟

-لأن جوادًا كان جنديًا باسلا وأنت صورةٍ عنه، سأرفع الى الداخلية اسمك ونطالب بتسيبك ضابطًا برتبة ملازم، تكريمًا لذكرى أخيك.. صحيح نسيت أقول لك.. عثرنا على جثة أخيك في مقبرة جماعية، ودفناه في كربلاء.. عظم اللّه أجركم.

فطفرت الدموع من عينيه.

-٤٢-

سيدي الرئيس إن ملكك عالٍ كيعسوب ولكنه راخ تدمره أول رياح تهب فكيف بك إذا كانتٍ تلك الريح هي دًماء هادرة غضبى؟ ضحيتم بنا وسرعان ما رميتم لنا علما نلف به موتانا تكريمًا لنا وحفرة جوار أبي عبد اللّه الحسين.. أتحسب ذاك

تكريم؟؟ إني لأشم لعنات أبي عبد الله الحسين تنطلق هادرة تزمجر .. ما الذي بقي ولم تأخذه؟ أموالنا وتقاسمتموها كما تتقاسم وحوش الغاب فريستها، دماؤنا ومصصتموها وأكلتم لحمنا ورميتمونا عظمًا، قل لي بربك أي بيت خلا من نازح ترك أرضه وماله، أو شهيد ترك خلفه صبيةً يتجرعون الفقرَ والبؤس والتشرد؟ أو معوقٍ خسر يدا أو رجلا فبقي يحمل جرحه وألمه طول عمره ويصب عليك لعنته؟ سيدي الرئيس، نحن بسببك وبسبب سياسة دولتك وحكومتك الخرقاء وقيادتك البائسة تصدرنا العالم في كل شيء تعيس وبائس، فعاصمتك التي تدر عليك مليارات الدولارات هي المدينة رقم واحد في ترتيب المدن التي لا تصلح للعيش!! عدا الفقراء والمشردين والنازحين وعدا ثلث العراق المدمر، ما الذي أبقيته لنا بربك؟ أما آن أن تكف بلاك عنا؟ أما آن للحكومات البائسة أن تعتزل السياسية بعد أن علمت أنها لا تحسن السياسة بل هم مجموعة لصوص؟



نجح أجود ذلك العام ولم يكن هناك بد من النجاح وإن لم يتفوق ككل عام، ولم يأتِ بهذه النتيجة كسلًا، بل لأنه لم يدرس معظم ذلك العام.. وأنّى له أن يدرس وقد قضاه بين السجن واربيل والمستشفيات، ولكن على العموم كانت تلك النتيجة مرضية وتفي بالغرض. وبعدها بأشهر تم تكريم عوائل الشهداء ــــ شهداء سبايكر ــــ ودفع تعويضات لكل عائلة وقدرها عشرة ملايين دينار، مع راتب تقاعدي لأمهاتهم، وبعضهم من حصل على قطعة أرض. ولكن هل هذه التعويضات البخسة تجعل الجرح يلتئم، والحزن ينتهي، ويحل النسيان بدل الذكريات؟ أم أن دولتنا الرشيدة تحاول أن تشغل

الناس وتنسيهم أمر الدماء التي شخبت؟ الحكومة منحت عوائلنا دراهم معدودة وكانت فيهم من الزاهدين ولكن هل يحسبون أن الصرخات ستحجبها أموالهم؟

ودخل أجود دورة لمدة أشهر ستة وتخرج ضابطًا برتبة ملازم، احياءً لذكرى أخيه وتكريمًا لشجاعته. وعاد الى حيه ببزته الجديدة والنجمة لامعة على كتفه تصرخ وتقول: ها أنا هنا.. وفجأة استيقظ بنفسه ذلك الجزء النائم.. بل الميت وعاد حيًا.. ذلك الشعور بالانتصار وانصاف النفس والتحرر من سطوة الغير عليه.. تذكر ذلك اليوم عندما وقفوا بباب سامراء أذلةً متوسلين ببوابها وامامها ليدخلوها آمنين على انفسهم عندما لفظهم كل شيءٍ .. تذكر الاعتقال المرير والتعذيب واللكم والتهم المعتادة : بعثي.. داعشي. فقال لنفسه: ها أنا عدتُ انسانًا آخر غير الذي تعرفونه.

وماذا يعيني غير الذي تعرفونه؟ يعني أن اللين المشبوب بتلك الرحمة قد انتزعت واستبدلت بقسوة شابها حب الانتقام والثأر لأخيه.. ولكن تحل القسوة والفتوة مكان الطيبة والرأفة في أشهر قلائل؟ هل تُقتلع الوردة وتنبت مكانها شوكة في آن؟ ولكنهم هم الذين حملوا من الغموم والهموم ما لم تحمله شمم الذرى، ألا يحق لهم أن ينشبوا اظفارهم ويشهروا نبوتهم؟ أم هم ملائكة فلا يغضبون أو يثأرون؟ بينما يسأل نفسه سمع صوتًا أليفًا يناديه: أجود!! التفت الى الصوت وإذا ببسامٍ وهو يحمل كتبه، تقدم نحوه وعانقه طويلا:

–متى أتيت؟

–الآن.

–ضابط مرة واحد يا أجود.

فقال أجود مازحًا:

-(قل أعوذ برب الفلق)..

-كبرت يا أجود وبدأت تخشى أعين الحاسدين، تستحق، فقد صبرتَ وتجلدتَ ونلتَ من المكاره الكثير، وضحيتم، وفي النهاية حصدت.

-ما زال الطريق في أوله.

-الخالة مهدية كيف هي؟

-لم تزل على حالها ولا تحسن يذكر، لا أعلم ما بها يا بسام، الطبيب يقول انها حالة نفسية، ترفض التجاوب مع العلاج.

-استرح عندي.

-لا .. اريد الذهاب الى البيت.

-لا تخف يا رجل، لن تتسخ بدلتك إذا جلست عندي. نحن أهلٌ أتستكبر علينا؟

-لمَ تظن إنني أتكبر؟

-لأنك غير أجود الذي نعرفه.

-سأذهب معك وأمري الى الله.

وما أن دخل بيتهم حتى رأى نوار من الشباك ولكنها هذه المرة واقفة دون ستائر والنافذة مفتوحة، ووقفت بسامة الثغر تنظر إليه فكأن القمر تلألأ في ثغرها، ولكنه الآن ضابط وعليه أن يزداد رزانة ووقارًا.

قال أجود لبسام وهما يشربان الشاي بعد الغداء:

هناك أمر أريد أنن أصارحك فيه.. كتاباتك على الفيس

بوك، ونشرك على العام بهذه الصورة، تارة تنتقص من رجال الجيش..

فقاطعه ضاحكًا:

-لم تدخل الجيش حتى بدأت التهجم عليَّ والدفاع عنهم؟!

-أنت أخي يا بسام، وعلي أن أُحذرك مما سيقال وعمَّا يجري، الفيس بوك وهذه المواقع مراقبة، فلا تكتب ما يجلب الشبهة عليك، فأولاد الحرام كثر، وبشخطة واحدة تذهب وراء الشمس.

-إنني أوعي الناس واعظهم وانصحهم.

-ألم تجد غير الفيس؟

-وهل يوجد غيره؟

-اتركه.. ولا تكتب على العام.

-لو رأيت الخاص؟

-وماذا في الخاص.

-نصح ورشد وهداية.

-وهل أنت خليفة اللّٰه في الأرض لتهدي الناس؟

-الاصلاح مهمة كل واحدٍ فينا.

-هذا الكلام قله لأُناس متحضرين مثقفين، صدقني بخبر واحد من مخبر سري تكون خبر كان، الدنيا هنا تائهة، فلا تجعلنا نخسرك.

-أنت تسرف في ظنونك كعادتك.

ستبدو لك الأيام صدق حدسي، ولكن أتمنى أن لا يكون قد فات الوقت وبقي الندم والتحسر.. (ثم بعطف وضعف) ارجوك يا بسام، لا أريد أن اخسرك، خسرنا أناسًا كثيرين، وغير مستعدين لأن نخسرك.

فضحك ضحكة كبيرة:

-يا أجود ما بِك؟ لمَ شعور الفراق هو ما يسيطر عليك؟

-لأني ذقتُ مرارته مرارًا، ولا أحب أن أذقها ثانية.



ودخل بيتهم فلما رأته بتول شهقت ودُهشت، وقالت:

-أجود؟! هذا أنت.

فتقدم يتبختر أمامها بزهو وهي متعجبة فرحة حتى أن عينيها فاضت من الدمع.. فقال لها:

-لم البكاء؟

-من الفرح يا أخي.

ثم احتضنته وهي تبكي.

فجاء صوت مهدية واهنًا:

-من؟

-ماما هذا أجود عاد.

فدخل عليها وجثى عندها مقبلًا يدها، ورفع رأسه ،فقالت:

-اللهم صلِّ على محمد وآل محمد، حرستك من كل حاسد وحاقد ببركة النبيِّ وآله.

فقالت بتول:

-العشاء اليوم عليَّ.. أنا اشتريه واطبخه لكم.

فقال أجود بتدلل:

-وماذا ستطبخين لنا يا حلوة؟!

-كيلو كباب كامل.

فصفق جودت وقال:

-يا سلام سنأكل كباب ضأن؟

فقالت:

-طبعا .. خروف خالص.

فقال أجود بتغنج:

-فقط؟!

فوقفت بتول حائرة.. فقالت بسخاء قارب على النهاية:

-وصينية كنافة.

-فقط؟

فقالت عاجزة:

-لا مال عندي يكفي لأكثر من ذلك.

فضحكوا بجذل. قالت مهدية:

-كم راتبك؟

-لا اعلم، ولكن اظنه أكثر من مليون دينار.

فشهقت بتول بتعجب ..فقالت مهدية:

-قل اعوذ برب الفلق. لا يحسد المال الا أهله.

-٤٣-

صعد أجود الى مكتب العقيد محمد السامرائي بتؤدة، ألقى تحيته كما يلقيها الجندي الباسل. وجلس بعد أن أشار له العقيد بذلك. فقال العقيد بأناة:

-أنت تعرف يا سيادة الملازم وضع قريتكم «لوعة عباس» والقرى المجاورة وما سببت لنا من قلاقل ومتاعب، وأنت أعلم. وقيادة العمليات كانت ترجئ تحريرها الى ما بعد تحرير تكريت، لأنها بنت دروعًا حصينةً وخنادقَ محفوفة بالمتفجرات وعملية معقدة جدًا، واراضيكم فيها بساتين كثيرة وحقول شاسعة، ومع هذا فيها ثقل التنظيم في محافظة صلاح الدين، بل هي خط الوصل بين الموصل والانبار ديالى وحزام بغداد، ولكن حان الآن قطع دابر تلك القرية الظالمة هي وأهلوها، وقد اخترتك مع الضباط الموكلين بمهمة التحرير لسببين اثنين: لأنك عارف بطبيعة تلك الأرض ومداخلها وأشياء أُخر، ستكون مستشارًا أمينًا ولن تخيب ثقتي بك، وهذه أحد الأسباب التي جعلت الداخلية توافق على ترفيعك ومنحك هذه الرتبة. السبب الثاني هو الثأر لأخيك واخوانك، اعلمُ منذ أن اخبرتك أن أخاك متوفى وعثرنا على جثته وصدرك ينطوي على شعلة متقدة لا تطفئها الا نار الانتقام. هذا ولن يخيب بك ظني، أنت المفتاح الذي سيدخلنا للوعة عباس لنعلن انتهاء التنظيم في محافظة صلاح الدين، ولن ينسى الوطن تضحيتك التي ستقدمها.

فقال أجود بارتباك:

-أنا ..أنا.. لا اعلم كيف اشكرك ..

فقاطعه قائلا:

-ستشكرني عندما تقدم خدمتك للوطن..

هل يعطي روحه للوطن الذي يفر منه؟ الذي نفاه وكفر به قبل عام؟

فقال أجود:

-أمرك سيدي!

-وهذا ظني بِك.

-متى الانطلاق ؟

-غدًا فجرًا، واليوم اجازة ودع الأهل والحبيبة.

فقال أجود كحلمٍ بعيدٍ:

-الحبيبة!

فقال العقيد باسمًا:

-كلنا لنا حبيبة واحباء.. الحبُّ شيءٌ مقدس.

-أنت صوفي.

فضحك العقيد بمليء شدقيه.. وقال:

-وهل الحب مختص بالصوفية؟

-التصوف كلٌّ، والحبُّ جزءٌ، فإذا قلت لك صوفيٌّ أعني أعلى سمات الحب، بل يشمله ويشمل غيره، كل انسان نقي الفطرة هو صوفي بوجه أو بآخر.

-أأنت شيخ أم مريدٌ؟

-أنا مريدٌ لمن أهوى.. ولكن كيف يفعل المريد إذا الذي يهوى راح؟ أيبقى معلقًا بين الهوى ولعنته؟ أيبقى يتلظى بنار

الحسرات والآلام والأوجاع؟ أيبقى ينتظر من نسيه؟ قل لي.

فأجاب العقيد عن سؤاله بسؤال:

-ولمَ لم يجبك أو يأتيك من تهوى؟

-تقضيه لوعة كلوعةِ عباس تمامًا.

-تموت كمدًا؟

-بالضبط.. أو تنتظره!



عاد يتهادى حزينًا كئيبًا كاسفَ البال، هل حان وقت الموجهة والوقع في المحذور؟ الذي كان يخاف منه سيحصل، وجهًا لوجه مع لوعة عباس، مع الشقاء مع العذاب، هل سيضطر أن يدل الجند على مكانها .. رحمة وسعيد وكل أهل القرية .. ولكنهم هم أنفسهم من طردوهم وسجنوه هو وضربوا أمه بالرصاص.. هل سيدخل القرية منتقمًا أو فاتحًا؟ هل سيعطف عليهم أو سيقتلهم ويزج بهم في السجون؟ ولكنه مأمور، وهذا قدرهم.. هم من تعاونوا مع الإرهابيين، ولكن هل يدكون البيوت بالطائرات على رؤوسهم حتى يكونوا انقاضًا وجثثًا هامدة.. لمَ يا إلهي ترميني في هذا المعترك؟ لو هاجرت مع المهاجرين الى أوربا لكنت الآن أحسن حالاً وأصفى بالاً ولكن وقع المقدور على المحذور ولا بدَّ من المواجهة.. يقول العقيد إنها تثير قلاقل وبلابل وتربط أرض التنظيم كلها.. أي بلاء هذا وأي ذنبٍ ارتكبتموه، كيف صرتم وكيف ستقاتلون؟ ماذاً أصنع؟ أأخرجُ هائمًا كما خرج جدي وأفعل ما لم يفعله فأريح واستريح مما سيأتيني، إن تهدمت القرية سيركبنا عار أبدَ العمر.. سأهدم ملك عباس .. ولكن ما ذنبي؟ كل نفس بما

كسبت رهينة، وهذا ذنبهم وهم الذين اقترفوه.

واطمأن للخاطر الأخير ورآه قريبا من نفسه. كان قد وصل أمام بيت بسام ودق الباب، فخرج بسام..

-صديقي بسام أنا ذاهب الى معركة التحرير.. تحرير قريتنا، تقول جدتي حمدية أن جدي عباس قرر ارسال أبي الى العسكرية لأنه مؤمن أن الأرض لا تعاد الا إن سقاها الانسان بدمه، سأذهب وقد لا أعود، إني أرى الموت يلوح لي ويناديني نداء صدقٍ.

فقال وقد نزت من عينيه دمعة:

-لا تقل هذا يا علي.. لن تموت..!

-الموت حق.

-اعلم أنه حقٌ لا ريب فيه، ولكن ..لا ...... أريدك أن تعيش..

فقال كلمته الأخير ودخل في نوبة بكاءٍ وحضنه وهو يبكي على الباب ويقول له: لا ترحل.. لا تمتً..

كانت نوار تنظر من شباكها وتبكي هي الأخرى.. تبكي بدموع عاشقة ولهى!

فقال أجود:

-ما لك تبكي كالنساء يا بسام؟ استوِ وقف كالرجال.

-لا تذهب..

-قف.

فمسح دموعه وهو يقول:

-لا تطل الغياب.

-اعرفـك أقـوى مـن هـذا، اسـتمع إلـي واحـذر أن تكتـب علـى الفيـس بـوك.

-اتركني بهمي يا أخي.

فقال أجود وهو يستعيد صداقتهما الصادقة:

-أتعـرف يـا بسـام تـارة أراك أقـرب إلـي مـن نفسـي، بـل نحـن واحـد، أنـا أنـت وأنـت أنـا، نفـس الأفـكار، كلانـا يكمـل بعضـه البعـض، وتـارة أشـعر أننـا بعـداء كبعـد المشـرقين، متنافـران كالضديـن، والحـوار يـكاد يتحـول الـى عـراك، لـمَ؟

-لأن الكلفة مرفوعةٌ بيننا، نتكلم بصدق لا يداهنه نفاق، كلانا يتمم الآخر.

ثم تعانقا طويلا.



بكـت وندبـت حظهـا ولطمـت واسـتحضرت الموتـى والغائبـين، مهديـة تخشـى الرحيـل.. خائفـة متوجسـة مـن الشـتات، لـم يعـد بهـا قـدرة علـى التفجـع كمـا يليـق بهـم، كثـر الراحلـون ولـم يعـد هنـاك قـدرة علـى وداع يليـق ويتسـع الجميـع. فقـال لهـا:

-إنها الحرب يا أمي.

-خسرت واحدًا ولم يعد هناك متسع لأخسر الثاني.

-سأعود إن شاء الله.

-لـم أعـد قـادرة علـى الانتظـار، ولا تحمـل الصدمـات يكفـي خسـران واحـدٍ فـلا تفجعنـي بـك.

-قرار ولن اتراجع عنه.

-لأجلي.

-كُتِبَ علينا القتال وهو كره لنا، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لك والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

فاستسلمت للقدر، وقالت له:

-إذن استودعك الله، اتقِ الله واحفظ اهلك ولا تسفك دماءهم فإنهم الأهل والعشير.

-هم ارهابيون.

-لا يا ولدي.. ولكن غرر بهم.

-بعد كل الذي فعلوه بك!

-يا ولدي، إذا حقدتُ على كل من آذاني ولم أعفُ فلن يعفي عني دياني وذنوبي كثيرة ولم يبق في العمر بقية.

-اماه .. مازلتِ شابة.

ففتر ثغرها عن بسمة باردة:

-شباب!! الشباب ولى وما بقي قليل.

-أريدكِ أن تكوني بخير وتقفي على قدميكِ عندما آتي.

-كله تقدير.

وعانق أخاه الصغير، وعانق بتول.. وخرج فجرًا.

ها هو الشتاء الثاني يزحف مجددًا برعده وبرده ورياحه وهم بلا وطن، ها هو يحمل حقيبته ليحرر ذلك الوطن المغتصب.. ليقف وجهًا لوجه، ويفديه بدمائه إن لزم الأمر، فإن الأرض تحتاج لسقيا الدم كما الماء.

القسم الثالث

١

القرية الظالمة

«وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ في سَبيل اللَّه وَالْمُسْتَضْعَفِينَ
مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالولْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
أَخْرِجْنا منْ هَذه الْقَرْيَة الظَّالم أَهْلُها وَاجْعَل لَنَا
مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْك نَصِيرًا (٥٧)»

النساء:٥٧

-٤٤-

كان حفيف الاشجار عاليًا، وهذا دأب الرياح أول الشتاء. شيء يلمح للحارس أنه يتحرك تجاه القرية، فقام وسحب بندقيته ووجهها تجاه ذلك الشيء الذي بدا غريبًا ويتحرك مع الريح، سوادٌ يتحرك، ما زال يرمقه، لعلها شجرة اقتلعتها الرياح فهي تتدحرج تجاه القرية... أو لعله هو الذي لم يعد يفرق بين الحشائش والزهور والزروع المختلفة ألوانها إذا عصفت بها رياح عاتية، أو لعله ضبع أو ذئب أو ظبي يعدو. واستراح لهذا الخاطر واعاد بندقيته الموجهة نحو ذلك الشيء الغريب. كانت دروب القرية خالية الا من جنود التنظيم المنتشرين هنا وهناك لغرض الحماية، وقرب دكان تحسين جلست مجموعة من رجال التنظيم وقد أوقدوا نارًا وجلس احد الرجال وكان أنداهم صوتًا لينشد ويشحذ هممهم بصوته الذي بدا لهم نديًا:

صليل الصوارم نشيد الأباة   ورب القتال طريق الحياة

فبين اقتحام يبيد الطغاة   وكاتم صوتٍ جميل صداه

فقم يا أُخي لدرب النجاة   لنمضي سويا نصد الغزاة

ونرفع مجدا ونعلي جباه   أبت أن تذل لغير الالـــه

كانت قد تسللت الى البيت المحاذي للدكان وهي متوشحة

بالسواد الذي زادها الليلة والرياح الهوجاء سوادًا قاتمًا وصوت الأناشيد قد بدا واضحًا، وكالقطة المتسللة دخلت ذلك البيت فتلقفها تحسين بشغف، وقال لها بصوتٍ خفيض:

–أين أنتِ يا غنية؟ تأخرتِ كثيرًا .. كم مرة قلتُ لكِ لا تتأخري الى هذا الحد؟

–ماذا أفعل؟ جنود التنظيم مستيقظون لا يكادون يهجعون، ولولا الريح ما تيسر لي القدوم، حتى أن الحارس قبل قليل صوب سلاحه نحوي.

–ماذا؟ اكتشفوكِ؟

–لا .. ولكنهم شكوا أنَّ أحدًا هناك، متى ننهي هذه اللقاءات يا تحسين؟ تعبت من التخفي ومن هذه الطرق الملتوية، حتى أمي تلح على موضوع الزواج، لنتزوج يا تحسين ونقضي أوطارنا بالحلال خير من الحرام وما به من مخاطر وخوف، أتدري لو أنَّ التنظيم امسكنا ماذا يفعل؟ اعدام. تزوجني يا تحسين ولن أُكلفك شيئًا، المهم أن تأخذني، ببلاش، فقط تعال أنت والشيخ واعقد قراننا ونتظلل بظلال الحلال.

–اللّه كريم.. نتكلم في هذا فيما بعد.

–متى؟

–ألم تشتاقي لي؟

فقالت بتغنج:

–بلى.

وسرعان ما جذبها نحوه وهم في حديقة البيت المظلمة؛ وخلع عباءتها وفوطتها فبدا شعرها أسودَ فاحما وجذبها نحوه

ليغطي شعرها وجهه ويمضون في قبلات حميمية..



صوت الناي يخترق أذنيه، صوت مألوف .. كأنه يعنيه هو دون غيره من الناس، تُرى أين سمع هذا الصوت؟ أينوح على بؤسنا؟ أجل يشبه صوت علي المتهدج في نايه، هل عاد علي؟ وهل يعود الموتى؟ ومن قال أنه مات؟ وإن لم يمت فمشهد تدحرج رأسه أمام المسجد الكبير على رؤوس الأشهاد ماذا يسمى؟ علي يبث لعناته، وروحه آتية للانتقام، تغير في الكوابيس لتصب غضبها بلحنٍ يخلد ذكراه.. يستدعيه من جدثه ويجعل روحه تحوم بذلك اللّحن وهي غضبى. فتح أسامة عينيه فزعًا هلعًا، قام من غرفته الى المطبخ وغسل وجهه فهدأت روحه.. لا لحن ولا ناي ولا علي. علي مات وهو راقد في قبرٍ مجهول؛ فلم يسفه منامه بتلك الكوابيس وذلك اللحن المنكرٍ؟ منذ أن مات علي وتلك المنامات تقضُّ مضجعه فيستيقظ فزعًا. مشى الى باب البيت واذا القرية ساكنة الا من صوت رجال التنظيم ينشدون عند دكان تحسين، حمل بندقيته وخرج ورأى بيت عمه المهجور فهجمت الذكريات كظبي مطارد، متقافزة نافرة تعيد المشاهد وتكر الذكرى تلو الذكرى لتعود حية مترائية أمامه وكأنها تجري الآن بأهوالها وصعابها، فاعتصر قلبَه ألمٌ خاصة بعدما رأى تلة عباس، فتمتم قائلا: التلة الملعونة .. تبًا. وبصق نحوها لعله يقلع الماضي ويوئد الذكريات الذابحة، ولكن كيف السبيل وهي ترفض الا أن تبقى متأججة متقدة لتحرق الفؤاد وما حوى؟ يقول أبوه إن هذه الشجرات التي تظلل التلة شجراتٌ ملعونات تزين الخطيئةٍ وتكسوها لباس التقوى تارة ولباس الوجد تارة أخرى تسهيلًا وتيسيرًا. ماذا فعلوا لتنبت في أرضهم وقرب مسكنهم شجرةً ملعونةً تجلب

السوء وفاله ومدعاته. ولكن أليسوا هم من يعتبرون الإيمان بهذه الأمور كفرًا وشركًا؟ فكيف خالجه الشك ليصدقها؟ قد يخرج الايمان من القلب إن آمن بها خروج العشق من القلب الخرب. وخروج الأسير من السجن. أغدى قلبه صلدًا خاويًا من الإيمان حتى يؤمن بشجرةٍ فالها سيء؟ أهذا كلام مؤمنٍ موحدٍ ولسان تلا للقران آمن وجاهد في الله طاعةً وتقربًا؟ متى تًرحل يا عليٍ فقد أطلت المكث في الذاكرة كأمرٍ يأبى النسيان. كان قد اقترب من مكان تجمع رجال التنظيمٍ وهم ينشدون قرب دكان تحسين ومر من أمام باب بيت تحسين فسمع ما أثار ريبته، همهمات وهمسات ولهاث ورفع وخفض وضحكات مكتومة وتحرك العشب! فوقف وأرهف السمع جيدًا، ولكنه تذكر قوله تعالى : (ولا تجسسوا..) فوقف وهم بمتابعة سيره، ولكن صوتًا داخليًا ألحَّ عليه أن يقف وينصت، فقد تكون تلك الهمهمات والضحكات الخفيضة من أهازيج الخطيئة التي تستوجب عقابًا، ولو كان حلالا لمارسوه داخل بيتهم لمَ في الخارج، وجال فكره الى أن انتصبت أمامه هذه الجملة شاهقة كجبال، تصب لعنة كالشجرات التي تظلل التلة: الفاحشة في القرية!! لم يكد يصدق الجملة وهي تطن في رأسه، فكررها كأنه يريد نطقها بصوتٍ صحيح لا لبس فيه ليوقن أنه في حقيقة لا كابوس من كوًابيس علي التي تغير عليه إذا لاح سنى النومٍ في عينيه. واقترب ببطء وأرهف السمع ليصدق سمعه فأيقن ومشى الى الأناشيد الصادحة كاظمًا دهشته وتعجبه. وعانق الليل السحر واقترب أذان الفجر أن يرفع ليوقظ القرية الخامدة وما تاخمها من القرى والنواحي وتسري فيها الروح بد النعاس. وخرجت في ذلك الوقت غنية وكانت الأصوات الناشدة قد هجعت ولم يبق الا

صوت ثغاء شياه أو صوت ديك يستعد للصباح، نظرت يمنة ويسرة فرأت الظّلام جاثم على القرية والسكون يلفها كما يلف السوار المعصم فمضت بخطوات متروية تسير وقبل أن يبلعها الظلام الكثيف أو تبتعد عن البيت جاء رجال التنظيم من كل مكانٍ مكبرين وكأن الأرض شُقت فخرجوا منها راكضين مكبرين مشهرين أسلحتهم عليها فأحاطوا بها وأسلحتهم عليها ويحملون أضواءً قلبت عتمتها نهارًا، وظنوها مسلحة فلما خلعت عباءتها وبدت خالية الوفاض أجلسوها وجاءوا بتحسين مقيدا وقد حاول الفرار من الحائط الخلفي. فتقدم طلحة ضاحكًا وقائلا: تمارسون الدعر والعهر هنا؟ في هذه القرية الطاهرة التي اجتباها اللّه لتكون أرض خلفائه وأنصاره، فدنستموها وفسدتم فيها ومارستم الرذيلة فيها، كمن يتحدى اللّه علنًا، وماذا بعد هذا؟ فصاح رجاله كلهم أجمعون:

-الحدَّ .. الحدَّ...

فقال طلحة:

-اعلموا أن الدولة الاسلامية دولة عدلٍ وانصاف، تقيم حدود اللّه، وأنتم يا رجال شهود الحق علىً هذين، وانهما كانا يمارسان الزنا متخفين، أتشهدون؟

فقالوا بصوت واحد:

-نشهد بذلك.

-ستقفان غدًا في المحكمة، وسينفذ بكم حد الزنا بما يرضي اللّه.

فصرخت غنية:

-أنا بريئة.. بريئة.

فنهرها اسامة:

-اخرسي يا عدوة اللّه!!

فقال طلحة موجهًا كلامه لتحسين:

-وأنت؟ ألم تنتهِ عن منكر حتى تأتي ضعفه؟ نهيناك عن المغالاة بالثمن فبعت السكائر عنا، ونهيناك عن السكائر فأتيت الفواحش علنا!!

- ....

-أجب.

لم يجب تحسين، واخذوهم الى السجن الى أن ينظر الأمير أبو عبد اللّه غدا في امرهم.

-٤٥-

دخل تحسين الى السجن ومعه ستة آخرون. بدا يتصبب عرقًا وفكرة مرعبة قد سيطرت على ذهنه، هل سيقطعون رأسه كما قطعوا رأس عليٍّ فيمضي رأسه متدحرجًا تلاعبه الريح على رؤوس الأشهاد والناس تنظر وتلعنه وتسبه؟ لم يسمع كلامها ويتزوجها فينقذ نفسه من هذه المهالك ومسالك السوء؟ ولكن «وقع الفأس في الرأس» وانتهى كل شيءٍ. السجناء النائمون بدأوا يستيقظون واحدًا تلو واحد فيرون ذاك الاسمر القابع قرب باب الحجرة وتسكنه تلال من الهموم، وجبال من الغموم. فبدأ أحدهم يسال الأسئلة التي يطرحها كل المساجين أول ما يدخل عليهم نزيل جديد: ما تهمتك؟ كيف قبضوا عليك؟ متى تحاكم؟ ألديك واسطة

فتنقذك من هذا المأزق؟ وتحسين صامتٌ يطيل الصمت كأن لم يسمع، لا يردّ. فقال أحدهم:

-لعله كافر، وسيحاكمه القاضي بتهمة الكفر ــ والعياذ باللّه ــ فهو مطرق يفكر كيف سيطير رأسه أمام الجامع الكبير...!! مسكين حقًا كيف آلت الى هذا الحد لدرجة أن يكتشفوا كفرك والحادك.. قل أمنت باللّه ووحد تسلم.

فجاء صوت الثاني وقد تخطى الستين وفي ملامحه وقار وكان صوته مبحوحًا:

-يا ولدي ما زالت شابًا فلا تمت من أجل زوبعة، إن كنتَ مرتدًا فعد، وإن كنت عاصيًا فتب.. وسيتوب اللّه عليكم.

فردّ الأول:

-وإن تاب اللّه عليه فهل سيتوب التنظيم عليه وينجو من غضبه؟!

فقال الثاني متجاهلا كلام صاحبه:

-إن صلحت نفسك وطهرتها وسموت بها فلا تخف من التنظيم ولا من غيره، وسيفعل اللّه أمرًا كان مفعولًا.

فجاء صوت رجلٍ ثالث مغمض العينين ولكنه منصت إليهم:

-يا ناس اتركوا الرجل، أخشى ما أخشاه عليه أن يكون كسابقه الذي جاء وبقيتم معه تحقيقًا يشبه هذا التحقيق وظهرت تهمته هي محاولة اغتيال ابن الأمير، وتم جلد ومعاقبة كل من تحدث معه هنا.. جلودنا لا تتحمل، اتركوا الفتى، السجن مليء بالجواسيس.

فقال الأول وهو يحاول معرفة كل شيء:

-تكلم لعلنا نخفف عنك وجعًا، نحن اخوتك وكلنا تهم قريبة منك. أنا متهم بتعامل بالربا، ولكني بريء الله يشهد بذلك، تهمة لفقها أولاد الحرام وما أكثرهم.

فرد عليه الأشيب ذو الستين عامًا:

-أأنت بريء؟ أنسيت عندما بعت ولدي البيت لأجل القروض التي أخذها منك وجاءني يبكي ولا يلوي على شيءٍ هو وعياله؟ اللّه ينتقم منك ومن أمثالك، وسيأخذ التنظيم حق ولدي منك.

-التنظيم الذي سيأخذ حقك أيها العجوز؟ وغدًا إذا جاء الجيش وتحررت المدن صرت بطلا مناضلا ومكافحًا وأنت الذي كنت تعتمد عليهم ليأخذوا حقك من ابن عشيرتك.

-وما فائدة ابن العشيرة إذا أوردني المهالك؟ ما فائدته وهو الذي جعل ولدي مفلسًا بتلك القروض الربوية عليك لعنة اللّه.

-اللعنة عليك أنت وولدك.. هو من جاء وأخذ .. وأنت من تنعم بها وصرف أم نسيت كيف كنت تأخذ منه الملايين تلو الملايين لسفراتك؟

-لصٌ ومحتالٌ.

-اخرس أيها العجوز وإلا هشمت رأسك.

وسمعوا دق الحارس على الباب يأمرهم بالسكوت والا جلدهم!

فسكتوا. وكانت تلك المشاهد معتادة منذ الصباح الباكر.

مرت ساعاتٌ قبل أن يقرر تحسين أن ينطق وينفس عن نفسه. فقال مجيبًا عن الحاحهم:

-تهمتي الزنا!

فشهقوا واستنكروا وكادوا ينفرون منه ومن تهمته الكبيرة، فقال الأول ذو الصوت الأجش الذي يتعامل بالربا:

-وهل مسكوك متلبسًا في فراش واحد؟!

-لا. رأوها خارجة من بيتي.

فقال الرجل الستيني:

-ويحك يا تحسين! كيف وقعت هذه الوقعة وأنت السبع؟؟ لم تجد مكانًا الا «لوعة عباس» تركت تكريت كلها والفيافي الخالية والحقول الا البيت وجنب دكانك؟ الذي نعلمه أن دكانك هو ساحة الاعدامات والمحاكم بعد الجامع الكبير في تكريت، فالتنظيم كما تعلم يخشى ما يخشى على نفسه هذه الايام من العمليات العسكرية القادمة ومن الطيران المحلق فهو يأتي ليحاكم ويعدم خفية أمام دكانك..

-أعلم.. ولكنه النفس قاتلها الله تعشق الملذات.

فقال آخر ينصت بغير اهتمام:

-النفس!! وأخيرًا أوصلتك الى التهلكة.

فقال فزعًا:

-سأموت.. سيعدمونني؟ هه؟

فقال الستيني:

-هون عليك يا تحسن.. الأمر هين.

-سيطلقوني.

فقال آكل الربا:

-بعد ثمانين جلدة، فإن كنتَ قويًا أكالا للحم والشحم شديد العضل ستنجو وستقاسي أياما آلامًا وعذاباتٍ ولكنها ستزول وتتناساها.

-وإن لم يتحمل جسمي؟

-ستموت.. ولن تموت فورًا، بل ببطء.. رويدًا رويدًا.. ستنتفخ أوداجك .. ويعاني ظهرك من أورام .. ستعيش مع العذاب وبلا علاج أو أطباء الى أن تموت، ولن يصلي عليك أحد، ولن تدفن في مقابرنا، بل ستبقى ملعونًا مهجورًا .. ومن يدري ربما يكون مصيرك يشبه مصير رحمة بنت سعيد عباس!!!

-رحمة!!!

-أجل! لا أحد يعرف عنك شيء.

-ويلاه.

فجلس جانبًا يبكي كالاطفال بكاءً مرًا صارخًا من ذلك المصير المنتظر. أنى لهذا الجسد النحيل الذي أضناه الكد والعمل حتى غدا نحيلا هزيلًا أن يتحمل جلداتٍ تشقق الجسد وتجعله يتألم ويموت مائة مرة قبل أن يموتً .. يموت مرارا حتى إذا لم يبق به شيئ قالوا: مات. ما أجمل أن يموت الانسان هكذا فجأة وهو يمرح ويضحك دون ألم؟ والعراقيون أكثر الناس موتًا على هذه الشاكلة، سيارة ملغومة بثوانٍ وتنهي كل شيء، حتى قبل أن يعوا ماذا هناك يكونون قد انتقلوا الى العالم الآخر. أما هو فيتعذب ويذل وقد يرمونه بالقاذورات كما رموا عليًا يوم مات.. وقد يلعنون .. وابوه قد يتبرى منه كما تبرى سعيد من علي.

جاء صوت الرجل الستيني:

-لا تستسلم.

-كيف؟

-أُنكر .. قل لهم عابرة سبيلٍ.. تائهة في فلاة الليل.. عطشى فسقيتها .. أي شيء.. وليكنْ أمك وأباك شهود على ذلك.

-ولكنهم مسكوها ومسكوني بأيديهم وأنا أحاول الهرب.

-هل رآك أحد منهم وأنت تضاجعها؟

-لا.

-اعلم يا ولدي يجب أن يراكم أربعة شهود أصحاء عدول حتى يحكم القاضي. فإذا انكرت والفتاة لم تقر لم يقم عليك الحد، بل لا يقام أصلا لأن لا يوجد شهود على ذلك.

فجاءه صوتٌ من أقصى الحجرة:

-هاهاهاها.. أنت مجنون أيها الرجل، لو طبقوا تعاليم الاسلام كما أمر الله لما كان هذا حالنا، ولرضينا بها دولة، ولكنهم متطرفون مجرمون. هؤلاء يا سيدي مجموعة لصوص وسراق وخريجو سجون ولوطيون وزناة وأراذل القوم.. قسمًا بالله لم أعرف رجلًا منهم الا ومشكوك في أصله ومتهم في عرضه.

فحار تحسين كيف يجيب عليهم وعلى أقوالهم المتناقضة، فكلهم ذوو تجربةٍ مع التنظيم ولكن معظمهم قضاياهم هينة أمام قضيته، فواحدٍ متهم بالربا والرجل الستيني دخل السجن أثر عراك مع أحد رجال التنظيم ووصف التنظيم بأوصاف مقذعة، واثنان بتهمة تعاطي السجائر وسيجلدون

عشر جلدات ويخرجون، الا هو. الدنيا كلها مغلقة في وجهه. ابوه ترى ماذا قال عنه؟ مؤكد أنه يصب اللعنات ويتوعد أن يضربه بالعصا ويبرحه ضربًا كذلك اليوم الذي اكتشف فيه الخسائر الفادحة في الدكاكين. أمه تلطم وتولول وربما شقت ثوبها كما تفعل كلما ماجت الأيام بولدها وطرحته ليقف ندًا لأبيه.

-٤٦-

كان يتابع الشمسٍ وهي تغزو القرية فتمحق الظلام الذي جثا عليها أمدًا طويلًا. لعله يرى ويتخيل التنظيم كهذه الشمس سيسطع على العالم ويبدد ظلمه وظلماته، ولعل خياله شطح أكثر من ذلك فحلم بالتنظيم وراياته منصوبة فوق كل بحر وأرض لا تغرب هذه الشمس عنها كاملة. قوةٌ عظمى تجتاحً العالًم ولا يقف بوجه مركباته الجامحة ومدرعاته النافرة كظبي، الصاهلة كخيل أصيل جامح. وقطع خيط التأمل صوت أبي قتادة:

-السلام على الأمير أبي عبد اللّه.

فقال بأناة ودون أن يستدير:

-وعليك السلام.

-أرى الأمير ــأعزه اللّهــ غارقًا في تأملاته وتفكره في الخالق العظيم ــجل جلالهــ.

-كنت أفكر في ما كتبه سيد قطب في (معالم في الطريق) وحلمه ببناء تلك الدولة المنشودة. هل تعلم يا أبا قتادة أن سيدًا كان يعد ذلك المشروع لبناءِ دولةٍ، حتى وإن كانت

مستغربة أوَّل الأمر ولكنها ستكون طبيعة ومتقبلة لو أن مشروعه نهض، يعني مثلها كمثل الماركسية والشيوعية، أفكارٌ بدت مستغربة أول أمرها ولكن سرعان ما قادت دولًا كبرى وعظمى ومساحات شاسعات من الأرض. ولكن حلم سيد قطب وئد وحلت محله دكتاتورية العسكر، أقول لنفسي هل الدولة الاسلامية في الشام والعراق البذرة الأولى الناضجة لدولة سيد قطب المنشودة؟!

فقال أبو قتادة وهو مهتم بشأن سيد قطب بعد أن قرأ عددًا غير قليلٍ من مؤلفاته:

-لكن هل فعلًا الدولة الآن هي مبنية على هيكلة سيد قطب؟

فالتفت نحوه وقال باستغراب:

-ماذا تعني؟

-إن كنت تعني يا مولاي أن سيدًا هو منظر دولتنا من حيث لا ندري فالأمر فيه نظر ويحتاج الى توقف. لا أرى الدولة تتفق كثيرا مع منهجه وفكره، والدليل أن الإخوان المسلمين منبوذون من قبل الدولة الاسلامية، وتلك الأفكار التي طرحها سيد قطب والبنا من قبل، مناسبة لفئة ما، وهم الإخوان وحماس والحركة الاسلامية في السودان والجماعة الاسلامية في باكستان والحزب الاسلامي العراقي بدرجة أقل، وغيرها من الحركات الجهادية التي استسقت من منهجه، أما الدولة الاسلامية فلا أراها اهتمت كثيرًا بطرحه، فنحن أيضًا لنا منظرون ومفكرون، قد نأخذ ما يلائم فكرتنا ونطرح ما دونه، وبشكل عام لا أرى الدولة الاسلامية ومنظريها يعولوِّن عليه كثيرًا، كُلُّ كاتب يتعصب لفئة ويكرس قلمه في سبيلها دون غيرها لا يعوَّلُ عليه. وسيد من هذا النموذج الذي تعصب

لفكرة هو خالقها ومنظرها ومقعدها في سبيل خدمة قومٍ أرادهم دون غيرهم.

أبو عبد الله يسمع كلامه مطرقًا مفكرًا. فقال أبو قتادة:

-هل أنت ترى أن الدولة قائمة على تنظير سيد قطب؟

-لا لا .. ولكّن سيدًا له معنى آخر في نفوسنا.. سيد رمز البطولة والشجاعة والحرية المذبوحة، الحرية المنشودة التي نتوق إليها هو كان رمزها. أيهما أفضل لنا: حرية تعلوها ذلة أم شهادة تتفجر عزةً؟ حياة هادئة تحت حكم الطغاة والبغاة والغزاة أم حياة السجون والتعذيب والتنكيل في سبيل التحرير من قيدهم؟ الأولى راحة الجسد ومصرع الكرامة والغيرة والروح، والثانية راحة الروح التي تتجلى فيها العزة وإن انهك الجسد. ايهما تفضل يا أبا قتادة؟

-الأولى على ما فيها من ضنكٍ وألمٍ.. طريق الله ليس بالهين ولذلك نحن هنا.

-أتذكر تلك الأيام .. يوم كنا نقبع في (أبو غريب).. حتى إذا عدنا من حفلة التعذيب وأجسادنا منهكة تئن وتنز دمًا وفوق ذلك ظلمات السجن القاتمة أنشدنا كلنا بصوتٍ واحدٍ وفي طياته تتراءى لنا صور الحرية ونحن ننشد أبياتٍ سيد قطب:

أخي أنت حرٌ وراء السدود — أخي أنت حرٌ بتلك القيود

إذا كنت بالله مستعصما — فماذا يضيرك كيد العبيد

أخي ستبيد جيوش الظلام — ويشرق في الكون فجرجديد

فأطلق لروحك إشراقها — ترى الفجر يرمقنا من بعيد

أخي قد أصابك سهم ذليل — و غدرا رماك ذراعٌ كليل

ستُبترُ يوما فصبر جميل و لم يَدِّمَ بعدُ عرينُ الأسود

أخي قد سرت من يديك الدماء أبت أن تُشلّ بقيد الإماء

سترفعُ قُربانها ... للسماء مخضبة بدماء الخلود

سأثأرُ لكن لربٍ و دين و أمضي على سنتي في يقين

فإما إلى النصر فوق الأنام وإما إلى اللّه في الخالدين

فقال أبو عبد اللّه بعد أن عاد الى جو القرية تاركًا القصيدة وسيدًا:

-ماذا هناك؟

-شيخ خليل، تكرر اسمه مجددًا وعليه شبه وعلامات استفهام، بل هو تحت المراقبة منذ وقتٍ ونشك أنه يخطط لحركةٍ ما.

-حركة ما؟ ماذا تعني؟ من هو أصلا؟

-هذا شيخ يدرّس الفقه في المدرسة الدينية في تكريت، أخوه تم اعدامه من قبل تنظيم القاعدة في عام ٧٠٠٢ ويبدو أن أخاه ـــ الذي كان خطيبا في أطراف تكريت ـــ كان عميلًا ودعا الى قتال تنظيم القاعدة باعتبارهم خوارج ومارقة. وتم تصفيته في ذلك الوقت. وأخوه ملا خليل سائر على نهجه ولكن بتكتم وسريةٍ تامة. راقبنا تحركاته ولم نجد شيئًا قاطعًا ضده وكذلك لم نبرئه تمام البراءة.

-كيف؟

-له لقاءات مع طلبة من جامعة تكريت الذين لم يجدوا سبيلا للخروج من تكريت، أو لا مأوى لهم، معظمهم شباب من ديالى والموصل والأنبار، نزح اهلهم في مخيم، فالبقاء في الأقسام افضل وآمن من طريق طويل محفوف بالموت.

ولكن بالمقابل هؤلاء الطلبة لم ينضموا الى التنظيم، علما أنهم يقفون في الصف الأول في الصلاة ولم يحلقوا لحية. أخشى أن يبيت ملا خليل لنا ثورةً مدمرةً لا نستطيع قمعها إذا أضرمت.

بقي أبو عبد الله يعبث بلحيته المدببة وهو يستمع الى أبي قتادة الذي تابع:

-كما أن هذا الملا خليل جاء الى القرية قبل فترة.

فقال أبو عبد الله فزعًا:

-هنا؟!

-نعم.

-وماذا يريد؟

-أجود!! يسال عن أجود علي عباس، فأخبروه أنه نزح الى سامراء.

-أمره لا يخلو، لا بدَّ أنه ينطوي على فتنة هوجاء آتية، وإن لم نتداركها فستحرقنا، خاصة مع هذا الملعون أجود.. صحيح أين هو؟

-في السجن.

-لمَ؟

-يتهموه بقضايا ارهابية. وهناك أمر آخر... قُبِض على تحسين صاحب الدكان متلبسًا بالزنا.

-زنا مرة واحدة في القرية!!!

-اي واللّه. ماذا نفعل؟

-ماذا تفعلون؟ تقيمون حدود الله وتحاكمونه.

-سمعًا وطاعةً.

-٤٧-

إنه مرهقٌ ضجرٌ. جالس يتأمل ذلك الحقل بفتور، واسعار الحنطة التي غدت زهيدةً لا تؤتي أجور التعب والشقاء وأجور العمال. الآن سعر طن الحنطة هو مائة وثمانون ألفًا بعد أن كان ثمانمائة وخمسين ألفًا، وفوق هذا لا تباع الى التجار الا بعد شقاء آخر لا يقل عن شقاء زرعها وسقايتها. مئة وثمانون ألفًا ماذا يفعل بها؟ هذا المبلغ لا يسد أجور المصاريف والفلاحين العاملين. لحيته الآن طويلة غزاها الشيب والهم في آنٍ، يكاد يخسر كل شيء.. حتى القرية غدت مصدرَ رعبٍ يؤرق الناس، وشر مستطير يُخشى شره. ما الذي ينتظرك يا سعيد؟ التنظيم يكشر عن أنيابه ويفرض أتاوات وضرائب وخاوات ويسميها أسماءً أخرى، فتارة زكاة وتارةً صدقةً وضريبةً تارة أخرى حتى لم يعد هناك عمل مربح، يعملون ليسددوا تلك الأتاوات المثقلة المدمرة لهم. التنظيم يفرض عليهم ما لا يطيقونه وقبل أن يشتدَّ عودهم ويعوضون ما خسروه في الحرب، ولو قالوا لهم خففوا عنا. قالوا لهم: نحن نقاتل ونجاهد في سبيل اسعادكم ودولتكم وأنتم تبخلون بأموالكم وثمركم؟ نحن نضحي بالدماء وأنتم تبخسون فينا المال. هو يمتلك مدخرات وأموالا طائلة وأراضي واسعة وولده معهم فلا يقسون حتى يلِّينون لأجل أسامة فلا يهمه أن يخسر موسم أو موسمين ولكن عامة الناس أنّى لها الدفع؟ وقد تدفع مرة أو مرتين ولكن سرعان ما ستمل وتضجر. قام

يذرع الطريق محاذيًا الحقل وقد بدت مشيته المتوئدة كسيرة متعبة والأشهر القلائل الخالية كانت كفيلة أن تنهكه حدَّ بلوغ هذا المبلغ ودق أبواب الشيخوخة المبكرة حتى لتراه عجوزًا قد أخذت منه الأيام كل غالٍ ونفيس.. وهل الذي خسره قليل والذي جرى عليه؟ عائلةً أبيه كلًها ضائعة وهو الذي حمل همهم، فعائلة علي لا يعلم أين انتهى بهم المطاف وقد خسروا واحدًا من أفرادها.. عائلة سالم خسرت وحيدها عليًّا أمام عينيه ولم يستطيع أن يرد ولو انكارًا. وفوق هذا قلبه يوحي إليه دائما بالحذر والوجل، يشعر أن جنود ابي عبد اللّه يحصون عليه الحركات ويرقبون النظرات واللفتات، يرى نفسه يتحرك وسط دائرة مليئة بالترصد والتوجس والتجسس. وهو شأن الضعفاء أمثاله الذين سلموا أنفسهم للهمج الهامج الذين لم يعرفوا الا السجون المظلمة والمنافي البعيدة والتصعلك وأثارة القلاقل والبلابل. واستولى على قلبه الخوف من القادم. المستقبل أيها القادم المخيف هلا هونت تلك الزوابع التي تسبقك؟ وقطع سكوته مشهد أبي حازم وهو آت نحوه وقد بدا شكله مثيرًا للضحك أشبه ما يكون بمهرجٍ؛ فجثته الضخمة المتكورة ولحيته غير المشذبة زادت تكورهً، وفوق ذاك يحمل بندقيته مستعدًا للحرب مما أضفى عليه سمت مهرج أو ممثل مسرحي لا مقاتل.

–السلام عليكم.

–وعليكم السلام.. أهلا بأبي حازم.

–هل سمعت الخبر الجديد؟

–لا.

–تحسين مسكوه متلبسًا بالزنا.

-تحسين!!!

-أجل وسيجلدونه على رؤوس الناس.

-لا حول ولا قوة الا باللّه.

-وهل تعلم من الذي بلغ عليه وكشفه؟

-من؟

-أسامة ولدك.

-أسامة! هو صديقه وقرينه.

-هذا الذي حصل شيخ سعيد. وأنا خائف من ولدك.

-ولمَ الخوف؟

-ينظر إلي نظرات زائغة تقطر شرًا ووعيدًا. أنا خائف منه، ابنك لا يرحم. لم ينسَ الجلسة عندما اتهمني بأكل الربا وأغلظ القول فأجلسته جلسة عشائر..

فقاطعه سعيد بنبرةٍ ذات مغزى قائلا:

-اتهمك بأكل الربا..!

ففطن أبو حازم لمأربه:

-لقد تاب اللّه عليَّ وهو التواب الرحيم، فلمَ يصرّ على هذه التهمة؟ أنا الآن مقيم للصلاة آتٍ للزكاة، صائم رمضان، ومجاهد في سبيل اللّه. تحدث معهً يا شيخ سعيد.

فقال سعيد وهو يرمق الأفق البعيد:

-سأتحدث معه.

فشكره أبو حازم وراح يتهادى وكأنه عجل سمين لضخامته.

ماذا تفعل يا أسامة؟ ألهذا الحد بلغ تطرفك؟ تضحي برفيق عمرك وترميه هكذا دون هوادة أو مراعاة للصحبة القديمة والليالي التي جلستم في دكانه ساهرين. ماذا حصل لك يا بني؟

وسرعان ما تحدرت دمعة على خده ضاعت في لحيته الكثة وراح يسير الى بيته وهو يفكر فيما آل له أسامة من تطرف.. هم الآن في قعر القاع.. طائرة مجنونة وبصاروخ واحدٍ وتنهي كل شيء.. هجومٌ عاتٍ من الجيش يستغرق أسبوعًا وسينهي الأمر تمامًا. نظر الى السماء بقلبٍ يائس مشبوب بقنوط فرأى غمامة تظلل القرية، فقال: يا رب، أين المفر؟ عدوٌ أمامنا، وعدو يسكن عندنا، وعدو فوقنا، وكلهم ينتظر رأسنا ليحزوه..! الفرج يا ربي.

كان أسامة ينظف سلاحه عندما دخل سعيد وهو مكفهر الوجه.

-ما لك يا أبتِ؟!

-هل صحيح ما قال أبو حازم؟

-وماذا قال هذا المنحوس؟

-أنت من نصب كمينًا لتحسين وقبض عليه؟

فقال ببرود:

-صحيح.

-وتقولها هكذا؟!

فقال منفعلا:

-كيف أقولها إذن؟

-هو صاحبك ورفيق دربك، أنسيت؟

-هذا الدين لا يستقيم أمره الا بصرامة لا يداخلها واسطة أو محسوبية.

-هو القريب والصديق، ألم تقم لها وزنا؟

فقال بانفعال:

-(إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ ، وَايْمُ اللَّه لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّد سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا) هذا نصٌ صريح من البخاري، فإذاً تغاضيتُ أنا عن فعل تحسين لأنه رفيقي وغيري سكت عن منكر لأن قريبه من فعله فماذا يبقى فينا من مظاهر الاسلام؟ لننضوي تحت لواء الدولة العراقية ولا حرب ولا صخب ولا قتلى ولا سجون، بل نتصافى معهم ونجلس على طاولةٍ واحدة.

-أنت شاهدٌ واحد، اين الشهود الثلاثة البقية؟

-يوجد عشرات الشهود.

-رأوهم رأي العين؟

-رأوها خارجة من عنده.. والقاضي هو من يحكم.

فقال سعيد باستهزاء:

-قاض يحكم!! أنت تهزأ بي.. أنت تعلم أن لا حكم للقاضي الا ماً يحكمه أبو عبد اللّه .. وهو تبع له يتلقى أحكامه منه.

-بل هو قاضٍ يحكم بالعدل!

فقال ساخرًا:

-قاضيكم سفيه وجاهل، لا يفقه شيئًا.

-لا تتثقل القول يا أبتِ.. صن لسانك والا أوردك المهالك.

فقال بخيبة:

-حتى أنا! تفعلها واللّه.. لا بارك اللّه فيك من ولدٍ عاق.

-تريدني أن أطيعك فيما يغضب اللّه! غضبك هين ولكن غضبه قاسٍ لا أتحمله.

-الويل والثبور لك.

-بل الويل لك وانت تزين لي المعصية وتفضلها على الطاعة، لا طاعة لك في معصية الخالق والأمير.

-شهور وسنرى دولتكم الى أين ستصل.

-متمرد أيضًا.

-إذا كانت الدولة تحوي نماذج مثلك فلن تعيش.. لأنها دولة سقيمة عقيمة. الدول يا ولدي لا تقام على الجور والظلم ومحق الآخر. دولة بلا تعايش لا يعوّل عليها، إن لم تسمع فيها دق الكنائس وأذان المساجد فهي حركة عابرة لا دولة وطيدة.

-أبتاه، احتفظ بفلسفتك هذه لنفسك علها تنفعك.. ولا تنسَ أن هذه الدولة التي «لا يعوّل عليها» هي من أثرتك بعد أن كدت تكون فقيرًا. أم هو المال المعبود والمقدس!

-لا بارك اللّه بك وبتربيتي.

تركه وخرج. سعيد يصب لعنته على ولده وعلى تربيته

الـ«سِـز». كانـت فـي تلـك الأشـهر قـد اتسـعت الشـقة بـين الأب والابـن وزاد تنافرهمـا مـن بعـض، ولكـن الشـيء المهـم فـي هـذا التغييـر أن أسـامة لـم يعـد يقيـم لأبيـه وزنًـا أو طاعـة، فمـا وافـق الدولـة فهـو الحـق الـذي لا يلبسـه باطـل، والصـواب الـذي لا يشـوبه خطـأ. ولكـن سـعيدًا العاشـق الجمـاع للمـال لـم يرضِـه طاعـة ولـده العميـاء والانجـرار وراء التنظيـم بـلا هـدى.. يعلـم أن ضربـة جويـة كفيلـة بهـدم القريـة ومصـدر رزقـه، بـل تصنيفهـم كـ ارهابيـين، أو نازحـين يقطنـون المخيمـات العاريـة حتـى مـن الكرامـة. ولكـن المخيمـات والذلـة فيهـا أهـون مـن تهمـة (ارهابـي) أو (بعثـي).

-٤٨-

بـدت شـمس فبرايـر دافئـة وديعـة وسـماؤها الملبـدة بالغيـوم قبـل اليـوم ولأجلـه أرجئـت محاكمـة تحسـين. اليـوم سـيحاكم تحسـين بعـد يومـين مـن إلقـاء القبـض عليـه بتهمـة الزنـا، الحكـم قـد بـتَّ بـه أبـو عبـد اللّٰه مسـبقًا وأمـا اجـراءات القاضـي وجلسـته ومحكمتـه فمحـض شـكل، لتعتبـر النـاس وتنـأى عـن الخطايـا. جلـس القاضـي فـي حديقـة الجامـع الكبيـر الرحبـة، وحولـه النـاس بـدأت تتجمهـر للعبـرة كمـا قـال أبـو قتـادة علمًـا أن طلحـة انتابـه شـعور بعـد الارتيـاح لمحاكمـة تحسـين، خاصـة وأن النـاس بـدأت تمجهـم وترفـض مبدأهـم ولكـن أبـا قتـادة رفـض هـذا القـول رفضًـا قاطعًـا مشـبوبًا بسـخرية مـن ضعـف الأهالـي. وقـال لـه: مـا تفكـر بـه محـض افـراط فـي الظنـون ومبالغـة فـي الحـذر. وجـاء القاضـي مسـدل اللحيـةً، قصيـر الثـوب، معتجـرًا عمامـة سـوداء عاليـة لتنبـئ بمكانتـه، وجلـس خلـف طاولـة موضوعـة

لهذا الشأن. وجيء بتحسين مصفدًا تعلوه ذلة وكرب. بدا كل شيء له يشبه ذلك اليوم؛ نفس التفاصيل ونفس الوجوه الا أن هذه المرة تجمهر الناس بكثافة غير اعتيادية.. هل سيحصل مثل ما حصل لعلي ويجلدونه أمامهم؟ وقد يموت؟ وأتت غنية ملفلفة بعبائه سوداء لا يظهر منها شيء ووقفًا أمام القاضي. نظر تحسين إليها في إشفاق، تذكر أول مرة رآها في دكانه وكيف كانت بينهم لقاءات حميمية يتخللها غزل وقبلات مسروقة خاصة عندما تأتي وقت الظهيرة، وما أن شاع أمر خسارة دكاكين تحسين وجاء أبوه غاضبًا وهرب تحسين الى الحقول حتى اختفت غنية هي الأخرى فشكوا أنها هي التي كانت تسرقه خلسة عندما تسحر تحسين بغوايتها، ولكنها عادت نهاية العام عندما ضاقت بها السبل معتذرة متأسفة بعد أن انكرت أمر السرقة ولكنها قالت تزوجت زيجة جبرها عليها أبوها، ثم هربت من ذلك الرجل الذي كان يضربها فعادت لخيم أهلها والذين يقطنون الآن في حجرة من الآجر غير بعيدة عن القرية، اقتنع وكان قد بلغ من التعطش للنساء منتهاه، فلم يعد يرى نسوةً الا نادرا وهن مغطيات الوجوه. وبدأ يلتقي معها خلسة بعد أن ينام أبوه في الحديقة.

قال القاضي:

-أنت المدعو (تحسين عبد اللّه سعدان)؟

-نعم.

-وانتِ (غنية عبد القادر أحمد).

فقالت وصوتها كأنه آتٍ من قعر قاعٍ عميق:

-نعم.

-بسم الله نبدأ .. يقول الله تعالى (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ومن هذه الفواحش والجرائم الأخلاقية هي الزنا، وقد قال الله تعالى (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) فأجزل العقاب الحق لمرتكبيه، فقال: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) وقد عثر جند الخلافة على المتهمين الواقفين أمام المحكمة متلبسين بجريمة الزنا علنا، وبعد اقرار المتهمين بهذه الجريمة وثبوت أن المتهم (تحسين عبد الله سعدان) غير محسن قررنا أن يُجلد مئة جلدة أمام المؤمنين وفورًا، وبعد أن ثبت أن المتهمة (غنية عبد القادر أحمد) متزوجة وعلى ذمة رجل..

فقاطعته صارخة:

-أنا مطلقة..

فأكمل:

-قررنا أن ترجم حتى الموت!!

فعلت همهمات وهمسات وتكبيرات خفيضة. فقال تحسين:

-أنا أعترض يا حضرة القاضي.

-لا اعتراض.

-عليك أن تسمعني.

فقال متأففًا:

-قل ما عندك.

فصمت الكل مرهفين السمع. فقال:

-أنا لم أزنِ.

فعمت فوضى بين الناس وحديث فيما بينهم.

فقال القاضي:

-سكوت..! الكل يسكت. قل يا تحسين كيف لم تزنِ ومكتوب عندي أنك أقريت بهذه التهمة؟

فنظر أسامة وطلحة وأبو قتادة باهتمام وكانوا يقفون جنب بعض.

فقال تحسين متشبثًا بأمل لاح في الأفق:

-سيدي أنا بريء، وهذه المرأة مقطوعة وأهلها عالة يسألون الناس، فنجود عليها ما يجود الكرام من خيرهِم، فلما أتتني فجرًا داهمها جنودكم ولفقوا لنا تهمة الزنا وأجبرونا على الاقرار ولا يوجد شاهد واحد فضلا عن شهودٍ أربع.

فماجت الأصوات المتجمهرة في الحديقة. فنظر ابو قتادة الى القاضي بترقب يريد أن ينظر القاضي إليه ليشير بالحكم الذي قضوا به مسبقًا لكان القاضي كان مرتبكا كيف يتجاوز هذه المحنة ويثبت عدالة قضاء الدولة الإسلامية؟

فصرخ تحسين:

-سيدي أين الشهود؟

فجاء صوت أبو قتادة:

-هنا!

اشرأبت الأعناق نحوه بتلهف، فأمر أبو قتادة أسامة وطلحة وأثنين آخرين بالخروج للادلاء بشهادتهم. فخرجوا وشهدوا، ولكن أسامة ارتبك فقال: لم أرهم رأي العين ولكن سمعت صوتهم. وهم القاضي بالنطق بالحكم وأسامة عاد الى مكانه كسيفًا مستاءً، وقبل أن ينطق جاء صوت آخر:

-هذا الحكم باطل!

وإذا بالشيخ خليل واقف وسط الحشود:

-الشهود ليسوا كاملين، هناك شاهد لم يرهم بعينه، فلا يعتد به، إذن الشهود ثلاثة فلا حكم عليهم.

فقال القاضي:

-بل الحكم واقع وسينفذ.

-أنت تحتال على النصوص وتلوي أعناقها في سبيل تنفيذ أوامر سيدك!!

فعاد الناس للتهامس فيما بينهم وتوجس أبو قتادة من الآتي الذي لن يكون خيرًا عليهم.. وقبل أن يفكر ويستوعب اعتراض الشيخ خليل.. جاءت صرخة مدوية منه:

-الحكم باطل.

فجاءت أصوات كثيفة من بين الجماهير تنادي:

-باطل.. باطل.. باطل ... حكم الدولة باطل.

وبدا أن هذه الجموع متفقة فيما بينها وليس مصادفة، فالهتافات موحدة منظمة، ومعظمهم شباب يهتفون خلف الشيخ خليل، هل يعقل أن الملا خليل قد نظم حركة احتجاجية ضد ممارسات التنظيم وقوانينه الجائرة؟ ومتى رتب هذه الجموع؟

كانت الجماهير قد بدأت تتدافع غاضبة تهتف وتنادي ببطلان أحكام الدولة الاسلامية وتتقدّم محو طاولة القاضي وهي تهتف : باطل باطل. تراجع الجنود المحيطون بغنية وتحسين حتى انحصروا أمام الطاولة والجموع بدأت تزداد وتتوافد نحو المسجد من كل حدب وصوب شبابًا وشيبًا ونساءً، كل الفروع المؤدية الى الشارعً القابع فيه الجامع الكبير هائجة فائرة كبحر هادر.. وكلها تتوافد نحو الجامع حتى أن الشارع ضاق بهم وبهتافاتهم الفائرة. أما حديقة المسجد فقد غدت عبارة عن يوم محشر. وظن أبو قتادة وهو يعتلي حجرا أن القاضي ستأكله الجموع بهتافاتها وأن جنوده القلائل عاجزون عن دفع شرهم والحفاظ على تحسين فأخرج مسدسه وضرب رصاصة في الهواء فنظروا إليه. فقال بصوت غاضب:

-تفرقوا وإلا أفرغنا الرصاص عليكم.

فزادت الجموع هياجًا وتقدمت نحوه مهتاجة كالسيل العرم تدمر كل شيءٍ وآخذين سلاح رجاله. ولم تمضِ دقائق عشر حتى كان أبو قتادة ورهطه خارج الجامع بلا سِلاح أو عتاد.. أصرَّ الشيخ خليل على اطلاقهم. اعترض بعض الطلبة الواقفين معه:

-لنتخذهم رهائن يا شيخ.

-لا، إنما نحن مصلحون لا مسلحون وقطاع طرق.

-سيهجمون علينا.

-لا.. الكلمة والمظاهرة السلمية خير سلاحٍ نواجه به الطغاة.

كان موقف الملا خليل صارمًا غير قابلٍ للنقاش، سلميةً لا سلاح فيها. فقط هتاف. وخرجت الجموعً الهادرة من المسجد

تزبد وترعد وتزمجر وتنذر بزوابع إن لم يعفُ عن تحسين وأن يحسن التنظيم معاملتهم بكرامةٍ افتقدوها.

كانت الشعارات ثابتة وكما حددها الشيخ خليل والمطالب قد اعدها في حال قرر التنظيم مفاوضتهم والجنح الى السلم، بعض الطلبة رفض أن يبقوا بلا سلاح لأن أبا قتادة ورهطه معروفون بعنجهية وصلابة تأبى الرضوخ أو الانصياع لضغوط الاحتجاجات.. بل سيمضون في حماقتهم وهمجيتهم الهائجة ويرتكبون مجزرة أو شيئًا قريبًا من المجزرة، ولكن الشيخ خليل قال لن يهاجمونا ونحن عزل ومعنا نساء وأطفال.

تدفق جنود التنظيم بكثافة وهم مدججون بالسلاح ولكن وجوههم تنطق بما تكن نفوسهم من توجس وخوف، حاولوا الوقوف بوجه المظاهرات المحتجة وحصرها ومنعها من التقدم وذرع المدينة ولكنهم فشلوا وأخذوا يسيرون نحو مبنى مجلس محافظة صلاح الدين وتتقدمهم هتافات وأصوات ثائرة ابت الظلم، وكلما مروا بشارع أو زقاق تنامى عددهم، وهذه الأعداد تسري في نفوسهم رعشات الذل والظلم فهم يحاولون استعادة ما سلبه التنظيم منهم. يريدون أن يقولوا للعالم: إننا رافضون لداعش وارهابها، وإننا تكبدنا خسائر من الدماء والأموال ما لا يتصوره عقل. هذه هي شوارع تكريت تضطرم بالثورة.. ها هي تأبى الظلم.. ها هي تثور ضد الاستبداد القاتم.. أوليس التنظيم استبدادًا؟ ألم يروض الحريات ويملأ السجون بمخالفيه ويعدم ويمحق خصومه؟ ألم يكن هو المسؤول عن جريمة العصر.. (سبايكر)؟ ألم يكن هو الذي لوث دجلة وغير لونها الى أحمر قانٍ؟ ألم يسفك ويفتك بالرجال؟ ألم يعد الرافضون مرتدين يجب قتلهم؟ ولكن مهما احلولك الظلام فهناك صبح، ومهما طال الظلم سيأتي من يحييها .. ومهما

غـرق النـاس فـي الجـبن والخـوف سـيأتي يـوم يـزول ذلـك الخـوف ويحـل مكانـه شـيء تـواق للحريـة.

-٩٤-

دخـل مكسـورًا مذلـولًا ليجـد ابـا عبـد الله وقـد تملكـه الغضـب وغـدا بركانًـا ثائـرًا. نظـر إليـه بغضـبٍ:

-أتعلـم مـاذا يعنـي الآن الـذي يجـري فـي الشـوارع؟ أتعلـم أن الخليفـة نفسـه اتصـل بـي وقـد سـمع بهـذه التخبـط وهـذه الثـورة؟ (ثـم صارخًـا) مـاذا يجـري؟

فتلعثـم أبـو قتـادة وتـردد وشـعر أن الـكلام تآمـر مـع المحتجـين فلـم يعـد يخـرج مـن فمـه. فصـرح أبـو عبـد الله:

-مـا لـك لا تحـرك سـاكنًا؟؟ مجموعـة مـن الطلبـة والصعاليـك يجردونـك مـن سـلاحك ويخرجونـك هكـذا حتـى عمامتـك منزوعـة؟

-سـيدي، كان كثـر، والجماهيـر كانـت جامحـة، هنـاك مؤامـرة مـن قبـل الشـيخ خليـل وهـو سـبب هـذه المظاهـرات.

-ومـاذا تفعـل أنـت وجنـدك؟ هنـاك حكـم يريـد أن يطبـق لـمَ لـم تأخـذ حـذرك؟ لـمَ أخذتـك العـزة فتكبـرت وهـذا وبـال غـرورك والله.

فقال أبو قتادة:

-سـيدي، سـاعات وأكفـر عـن خطـأي ونسـتعيد المدينـة بحـول الله.

فقال أبو عبد الله بتوتر:

-لا.. أنـت لا.. ستفسـد كل شـيء.. اليـوم يجـب أن ينتهـي الموضـوع

كله، كيف ننهيه، ألهم طلبات؟

-ينادون بالاصلاح.

فقال بصوت عالٍ:

-ونحن ماذا؟ السنا مصلحين؟ ألم نأتِ لننقذهم من حكم الكفرة والمرتدين، ولكن هذا هو الانسان؛ آفته النسيان، وسنذكرهم ماذا فعل بهم الجيش الكافر يوم قرروا المطالبة بحقوقهم.

-ماذا سنفعل الآن؟

فقال وقد زادت حدة غضبه:

-أهل العراق أهل شقاقٍ ونفاقٍ ومعصيةٍ، لا يستقيمون الا بسيفٍ بتار، لم يرضوا بولايةٍ صحابيٍّ وهُم العدول الهداة، فهل يرضوا بنا؟ لقد استعملنا معهم اللين فما طاعوا ولا استكانوا، وها هم يشقون عصى الطاعة علنا، ويعلنون الخروج على أمير المؤمنين أبي بكر البغدادي، فلم يبقَ لنا الا القوة، فمن لم تصلحه الملاينة أصلحته القسوة!!

وانطلقت سيارات سودٌ تشبه قلوبهم، ضخماتٌ تشبه حقدهم، مسرعاتٌ تشبه شهوةً الفتك المستولية عليهم. كان السيارات كثيرة فقدً استنفرت قرية «لوعة عباس» وما حولها من القرى لغرض قمع تلك الاحتجاجات التي تهدد وجودهم. كان أبو عبد الله خائفًا، يريد أن ينهي هذه الثورة مهما كلفه قبل أن يسقط مجده في هوة الهزيمة. لو لم يفلح في انهائها في يومها قد يتطور الأمر ويصل الى حرب شوارع او مواجهات عنيفة لا قبل لهم في تفريغ جيشٍ مرابطٍ على قتال الجيش لقتال الأهالي. إن لم ينجح أبو عبد اللّهً في فكها قد يقيله

الخليفة من ولاية صلاح الدين ويحطم حلمه في فتح بغداد وسامراء والولاية على احدى العاصمتين العباسيتين. لما توغل في المدينة جاءت الأصوات هاتفة ضدهم: باطل باطل. ما أبشع ذلك الهتاف وهو يشعر أنه يهز أركان عرشه؟ كان يريد سلطته أن تتسع فإذا بهذه المظاهرات تضيقها، يريد أن يبسطها فإذا بها تغلقها وقد لا يفتح أبدًا.

كانت الحشود قد سدت الشوارع وتخطت اعدادها السبعة آلاف محتج بين رجلٍ وامرأة وأطفال رفضوا الرضوخ والخنوع للذلة. وكلمًا تكاثروا علت همتهم وزادوا هتافًا وتصفيقًا وغناءً في أحايين أُخر ـــ والغناء محرم ـــ فكم كان يغيظهم هذا الغناء ويتمنون لو مسكوا المغني فجلدوه وربما قتلوه، ولكن هيهات، الجمع غفير وأي تهور قد يحيل التظاهرات الى نزال وقتال. وصلت قوات أبي عبد الله الكبيرة ونزلت شاكية السلاح مستعدة للقتال، كانوا ملثمين بلثام أسود فلم تبدُ منهم الا الأعين، وسياراتهم مستعدة واقفة للهجوم.

نزل أبو عبد اللّه وكان مرتديًا عمامة سوداء، فوقف كل الجند استعدادًا. فقال أبو عبد اللّه لأبي قتادة:

-كم عددهم؟

-سيدي، الجند يقولون أنهم تخطو الخمسة آلافٍ.

فقال بذهول:

-خمسة آلاف؟! أتعرف ما معنى هذا العدد؟ هؤلاء يسقطون دولة لا يثيرون بلبلة فحسب! اذهب وليخرج لك كبيرهم وقل له عليه الاستسلام فورًا دون تفاوض!

-سيدي..

فقاطعه بغضب:

-قلت فورًا.

وتقدم نحوهم ومسك بالسماعة ليسمعوا ما يريد:

-من كبيركم فليخرج لي..

فهدأوا وسرت بينهم همسات وجلببة. فخرج الملا خليل. فقال أبو قتادة:

-أنت كبيرهم؟

-أنا المتحدث باسمهم ولست كبيرهم ولا استعلي عليهم فـ(إرادة العلو على الخلق ظلم، لأن الناس من جنسٍ واحد) كما يقول شيخ الاسلام ابن تيمية.

فقال أبو قتادة بلهجة آمرةٍ:

-عليكم إنهاء احتجاجكم هذا، وإلا سنستعمل القوة في فضه، وأنت المتحدث باسمهم، هداك الله، احقن دماءهم أفضل وأسلم.

-لا عودة الا بعد تحقيق المطالب التي خرجنا من اجلها.

-قل.. ما هي مطالبكم.

-أولا: الكف عن الظلم الذي تمارسونه ضدنا، إلغاء حكم جلد المدخنين وإلزام تطويل اللحى وملاحقة ذوي العساكر، فإن هذا ظلمٌ وتعسير، والله سكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان؛ فلمَ تبحثون عنها وتشددون ما هو يسير ظلمًا وجورًا؟ هذه أفعالٌ الله لم يحاسبنا عليها فلم تحاسبونا أنتم؟ ثانيًا: التساهل في اراقة الدماء هو من شيمكم، ونحن نرفضه ولا نرتضيه، فعلى التنظيم تشكيل لجنة من اهل المدينة ترى ما

يحكمه القاضي ويمر عليها قبل أن يسري مفعوله. ثالثًا: نطالب بفتح الحصار المضروب علينا، ليس الحصار بمعناه الذي تعرفونه، بل الحصار الفكري الذي تطوقونه من حرق الكتب ومنع التواصل مع المدن الأخرى. قل للذين فوقك أننا لن نتراجع دون تحقيق هذه الطالب ومهما كلفنا الأمر.

عاد أبو قتادة الى أبي عبد اللّٰه الواقف في الشارع المحاذي لتجمعهم وأخبره. فقال أبو عبد اللّٰه:

-اضربهم بالنار.

فقال مدهوشًا مصعوقًا:

-ماذا؟

فقال بصوتٍ عالٍ:

-اضربهم بالنار، افتح الرصاص الحي، أريد رؤوس هذه الاحتجاجات وتحسين والبنت التي معه.

وقف أبو قتادة وصرخ بالجند:

-استعداد... تحضر.. اللّٰه أكبر اطلق.

عندما قال (استعد) سرت في نفوسهم شهوة السفك التي خار اتقادها منذ زمن بفعل سكوت الأهالي. وعندما قال (تحضر) زينت لهم المشهد. وعندما قال (اللّٰه أكبر) حسبوه أمرًا إلهيًّا وبه يحوزون رضا اللّٰه وجنته. وعندما قال (اطلق) تجسدت الحور العين والجنان وارفة الظلال في ذبح أولئك. وانطلقت الرصاصات الذابحة من كل اتجاه، ولم تجد تلك الرصاصات ملاذًا ومثوى سوى الرؤوس العارية والصدور والأذرع فسقط من سقط قتيلا. أما من سقط جريحًا فقد دعسته الأرجل

وركلته الأقدام دون عمد، والأطفال هم الآخرون الذي صاروا همًّا وصراخ النساء وعويلهن الذي زاد المشهد حزنا، والرصاص يتساقط عليهم كزخات المطر ويردي بهم قتلا. فانتشروا في الفروع فارين ولائذين بأقرب بيت أو أرض. وجنود التنظيم ماضون في رمي الرصاص دون أن يستشعروا بالذنب، بل ماضون لتجفيف ماء الحياة في عروقهم، هم الأعداء على سلميتهم، ألم يطالبوا بالتحرر من الدولة المؤمنة والعودة لظل الدولة الكافرة؟ بتلك الفكرة المجنونة المتهورة يستمرون برمي النار، لا مهرب من هنا، أينما ولوا وجههم وجدوا طائفة منهم ترمي دون التفريق بين رجلٍ أو امرأة أو طفلٍ، حتى غدت الجثث المتكدسة تسد الطرق. أما الباقون فقد هربوا ما وسعهم الهروب ومواجهة رجال التنظيم بالحجارة والعراك والمطاردة التي ملأت الشوارع. ولم يقف الأمر على الرصاص الحيِّ الذي أطاح بذلك الاحتجاج وذاك الجمع الهائج، بل رموهم بالقنابل لتنفجر عليهم.



عند الساعة العاشرة مساءً كان أبو عبد الله واقفًا عند بوابة الجامع الكبير وجيء بالشيخ خليل مكبلا هو ومجموعة من الطلبة عددهم تجاوز العشرة، فأجلسوهم أمامه وقد بدا وجه الملا خليل أنه يشخب دمًا والطلبة الذين معه كذلك.

نظر إليهم أبو عبد الله بفتورٍ. فقال:

-أخيرًا يا ملا خليل التقينا! سمعتُ عنك مرارًا ولكن مع الأسف التقينا في فرصة غير مناسبة.

فقال الملا خليل بصرامة:

-لا جمعنا الله لا في دنيا ولا آخرة.

-أبلغ اخواننا الذين سبقونا بالايمان سلامنا، وقل لهم أن الدولة الاسلامية باقية وتتمدد على رغم أنف الكفرة والمرتدين.

-متأسف، فطريقي ليس الى جهنم!

فأشار الى رجاله بغضب أن ينهوا امرهم. كان يقف فوق الملا خليل رجل مسلح وملثم وفوق كل واحدٍ من الطلبة مثلم شاك عليه بندقيته. فمسك المثلم الذي يقفً على رأس الملا خليلً برقبته بيساره، وبيمينه التي يمسك بها سكينًا وذبحه كما يذبح الجزار الخروف وتركه يرفس أما الطلبة الذين لم يسعفهم الوقت حتى يشاهدوا الشيخ وهو يدافع الموت ويتألم؛ إذ أطلقٍ كل ملثم رصاصة على رأس طالب منهم وأرداهم قتلى. أُحتز رأس الشيخ وعُلق على باب الجامع الكبير ليكون عبرة لغيره. صُور رأسه وأٌرسل الى الخليفة محمولة على نبأ النصر المبين.

-٥٠-

(السنة والشيعة ليسا دينين، بل مذهبان لدينٍ واحد فرقت بينهما السياسة). استحضر أسامة مقولة الٍعالم اًلشيعي موسى الصدر وهو يتابع طائرة التحالف الواقفة فوقهم وتقصف مدينة تكريت معلنةً بداية التحرير، القرية في هرج ومرج، ولكنه جلس لبرهة متحصنا بظلام الليل وهو يتابع وميض الصواريخ .. هل حقًا فرقتنا السياسة كما قال موسى الصدر؟ منذ متى؟ بل هم يتمتعون بكرهٍ مزدوج، فكل من لا

ينظـم الـى التنظيـم هـو كافـر أو مرتـد؟ اسـتحضر جملـة لأبـي قتـادة وهـو يعـظ جنـوده قائـلا: كلُّ سنـيٍّ لا يكـون معنـا فهـو مرتـد وقتلـه واجـب ولا يدفـن فـي مقابـر المسـلمين، وكل شـيعيٍّ هـو كافـر بالفطـرة، أمـا جنـود الجيـش فاقتلوهـم بـلا معرفـة اصلهـم أو مذهبهـم. فقـام أحـد الجنـود الجـدد وهـو لـم ينظـم الـى التنظيـم الا دفاعًـا عـن عرضـه وخوفًـا مـن أن يأخـذوا أهلـه سـبايا خاصـة وأن أخـاه عسـكري هـارب ولكـن نفسـه الأبيـة لـم ترضـخ بعـد:

-ولكـن رسـول اللّه صلـى اللّه عليـه وسـلم قـال لأبـي طالـب عنـد موتـه : ((قـل: لا إلـه إلا اللّه، كلمـةً أحـاجُّ لـك بهـا عنـد اللّه)) والسـنة والشـيعة موحـدون قبـل كل شـيء يـا مولانـا، ألا أنهـم خالفونـا، نخالـف نصًـا صريحًـا ونكفرهـم بهـذه العشـوائية؟ ثم أن للتكفيـر ضوابـط وشـروط معقـدة لا يقـدر عليهـا الا الراسـخون فـي العلـم، وأنـت الـى الآن لا تحسـن القـراءة بالعربيـة بشـكل صحيـح، ثـم تأتـي وتكفـر النـاس!!

فشـعر أبـو قتـادة أن الأرض تـكاد تبتلعـه، فقـال بحنـق مشـبوب بشـهوة الانتقـام:

-تعال إليّ.

فقام الرجل ووقف أمامه. فقال له:

-من أين أنت؟

-الضلوعية.

فأخـرج مسدسـه وبسـرعة خاطفـة أطلـق النـار علـى رأسـه وتركـه يخـر صريعًـا. ثـم بصـق عليـه وقـال:

-الى جهنم وبئس المصير.



في يوم ٢ مارس عام ٢٠١٥، شنت الحكومة العراقية عملية عسكرية واسعة لاستعادة تكريت بمشاركة قوات من الجيش والشرطة العراقية، إضافة إلى بعض العشائر السنية، وقوات الحشد الشعبي. تمت محاصرة مدينة تكريت من جهات فغدت أسيرة لا يخرج منها أحد أو يدخل، وانقطع الامداداً من قرية لوعة وعباس والقرى المتاخمة لها ذات المناعة القوية. ولكن التنظيم كان متهاويا منتهيا منخورا من الداخل، أهل تكريت مستعدون للتحرير، فالتنظيم بعد تلك المجزرة غدا مستبدًا لا يطاق، يحسب كل حركة وصيحة عليه، صار يعد السكنات واللفتات على الأهالي، يعاقبون على أخطاء تافهة بالاعدام، يتهمون الناس بالخيانة لأدنى شك أو شبهة، متقوقعون على أنفسهم، هالتهم الخسائر والتراجع الذي تشهده قواتهم، قبل أشهر قلال كانوا يدقون أبواب سامراء وهناك على أبوابها تجريً المعارك فما هذه السرعة لينقلب الموقف وتأتي المعارك على أبواب تكريت؟ لا بدَّ أنها خيانة وأي خيانة؟ الكل يخونهم، الكل يرفضهم، والكل ينتظر الجيش أن يأتي فيحررهم، قد كسد العمل ولم يعد هناك مال، وثقلت عليهم الضرائب حتى أثقلت كاهلهم ولم يعودوا قادرين على دفعها.. وفوق ذاك الأرواح تزهق والاعدامات التي تنفذ يوميًّا لأتفه الأسباب. الطائرات تحلق فوقهم ليلا نهارا. والمعارك بدت ضارية. الصواريخ تتساقط كمطر طال احتباسه؛ مدمرةً. الحرائق تجتاح المدينة بفعل الصواريخ. البيوت تتهدم على ساكنيها بفعل القصف. إنها المعركة الحاسمة .. استعادة الأرض وتحرير الناس من تلك العبودية الهمجية. الناس قابعة في البيوت تدعو وتستغيث بأن يأتيهم الفرج

وتنتهـي هـذه المعركـة وهـم سـالمون. وتمضـي أيـام المعركـة بطيئـة مخيفـة. و بعـد اشـتباكات عنيفـة تمكنـت القطعـات العسـكرية مـن الوصـول إلـى مناطـق تـل كصيبـة ومشـارف الـدور والبوعجيـل و السـيطرة علـى حقـل عجيـل النفطـي بعـد طـرد عناصـر داعـش منـه. وسـيطر الجيـش على منطقـة (العَلـم) شـمال تكريـت، ممـا مهـد لاقتحـام المدينـة، ثـم سـيطر الجيـش بعـد معـارك ضاريـة استمرت لاسـبوع تـام على مداخل المدينـة . و بعـد مـا سـيطرت القـوات الأمنيـة مـع الحشـد الشـعبي علـى جميـع مداخـل تكريـت توقفـت عـن الزحـف إلـى قلـب المدينـة لإعطـاء المسـلحين فرصـة لتسـليم أنفسـهم. فـي يـوم ١١ مـارس بـدأ الجيـش العراقـي وقـوات «الحشـد الشـعبي» ومتطوعـي العشـائر عمليـة عسـكرية واسـعة لتحريـر مدينـة تكريـت مـن سـيطرة التنظيـم ، وذلـك مـن خـلال التقـدم مـن أربعـة محـاور، بعـد اسـتكمال حصـار المدينـة التـي تمكـن الجيـش مـن دخـول كافـة أحيائهـا و وصـول تعزيـزات عسـكرية للقـوات الحكوميـة . فدخـل المقاتلـون مدينـة تكريـت و تقدمـوا مـن الشـمال والجنـوب فـي أكبـر هجـوم وسـيطروا علـى جـزء مـن حـي القادسـية الشـمالي فـي حـين تقدمـت قـوة أخـرى مـن الجنـوب باتجـاه وسـط المدينـة الواقعـة علـى نهـر دجلـة . ثـم تمكنـت القـوات مـن رفـع العلـم العراقـي فـوق المستشـفى العـام جنـوب تكريـت. و دخلـت منطقـة القصـور الرئاسـية شـرق تكريـت، مـن محوريـن. وتعرضـت المناطـق المتبقيـة مـن تكريـت إلـى قصـف مكثـف بالمدفعيـة الثقيلـة، ومراقبـة مكثفـة مـن الطائـرات العراقيـة. ثـم بـدأت القـوات هجومهـا علـى مركـز مدينـة تكريـت عبـر منطقـة الديـوم. و واصلـت زحفهـا بهـدف السـيطرة علـى مركـز مدينـة تكريـت .



فـي ١٣ مـارس سـيطرت القـوات العراقيـة وقـوات الحشـد الشـعبي علـى مدينـة تكريـت بالكامـل بعـد معـارك عنيفـة مـع مسلحي داعش . و تم رفع العلم العراقي فوق مبنى المحافظة وسـط المدينـة وأعلـن رئيـس الـوزراء العراقـي حيـدر العبـادي تحريـر مدينـة تكريت بالكامل مؤكداً أنّ « تكريت تحـررت بدمـاء العراقيـين وحدهـم.» أن القـوات العراقيـة فرضـت سـيطرتها كذلـك علـى مجمـع القصـور الرئاسـية فـي تكريـت، التـي كانـت تعـود للرئيـس الأسـبق صـدام حسـين، والبالـغ عددهـا ٣١ قصـرا .

أمـا قـادة التنظيم فقـد انسـحبوا للقـرى الآمنـة والمحصنـة والتـي مـن المسـتحيل دخـول الجيـش إليهـا لمـا تتمتـع مـن مناعـة قويـة وطريقهـا المدمـر والمحفـوف بالمخاطـر، إذ القنابـل مزروعـة علـى طـول الطريـق، اضافـة الـى جغرافيتهـا الصعبـة وتمركـز التنظيـم فيهـا بشـكل مخيـف، إذ الانتحاريـين يخرجـون مـن كل حـدب وصـوب، مـا جعـل القـوات العراقيـة تؤجـل تحريرهـا لوقـتٍ آخـرٍ.

-٥١-

اسـم (أبـو جعفـر) كان مرعبًـا، مـا أن يسـمعه أبـو عبـد اللّه حتـى يطيـر قلبـه هلعًـا وفزعًـا، ومـن هـذا الهلـع الـذي يشـوب قلـب أبـي عبـد اللّه بـدأ رهطـه وحجابـه ثـم جنـده أجمعـون يفزعـون مـن هـذا الاسـم، ويعلمـون علـم اليقـين أن أبـا جعفـر لا يحضـر مكانًـا الا لأمـر جلـلٍ أزعـج الخليفـة وباعـد بـين جفنيـه والكـرى وصـار شـغلهً الشـاغلَ. يقولـون مـن يأتـه أبـو جعفـر فقـد شُـطِبَ عليـه أو يـكاد، قليلـون هـم الذيـن نجـوا مـن تحقيقـه . إنـه مَستشـار الخليفـة ويـده التـي يبطـش بهـا بطـشَ جباريـن، وإن أرسـله الـى مـكانٍ فمعنـاه أن أبـا جعفـر هـو الطريـق الوحيـد لتصفيـة ذلـك المكانً وتسـوية الأوضـاع بهـا .

إنـه آت الـى «لوعـة عبـاس» للتحقيـق بقضيـة سـقوط تكريـت والعلم والبو عجيل وغيرهـا مـن القرى والنواحـي المحيطـة بهـا. لقـد غضـب الخليفـة وخسـر موقعًـا كان مؤديًـا الـى العاصمتـين العباسـيتين. فـي هـذا اليـوم قـد يطيـح بـ(أبـي عبـد اللّه) إن ثبتـت خيانتـه أو تقصيـره وقـد يطيـح برأسـه إن لـزم الأمـر، فأبـو جعفـر يمتلـك صلاحيـات مطلقـة، يعـدم ويسـجن ويعـزل ويغيـر بمـا يشـاء، ولا أحـد يعتـرض علـى قـراره الا الخليفـة نفسـه. أبـو عبـد اللّه ومنـذ أيـام وهـو يرتـب القـرى محـاولًا أن يظهـر رخـاءً وسـؤددًا يسـود تلـك المناطـق لا حربًـا مشـتعلة لا أُوار لهـا. فمـلأ طـرق القـرى بالـورد وزرع النخيـل وأنواعًـا أخـر مـن الثمـرات، بـل اقتلـع أشـجارًا ونصبهـا فـي الطريـق الـذي سـيمر منـه أبـو جعفـر والوفـد المرافـق لـه. ونظفـوا مدخـل القريـة مـن آثـار المعـارك، وأمـر جنـده بلبـس حلـىً جديـدة كطقـس تكميلـي لمشـهد التهليـل والترحـاب. بقـي عنـده مشـكلة واحـدة؛ الأهالـي الناقمـة كيـف سـيجعلها تخـرج مادحـة للدولـة الاسـلامية وعدلهـا وصونهـا لـلأرض والعـرض؟ منطـق القـوة، فكل بيـت لا يخـرج مرحبًـا مهللا بقـدم وفـد الخليفـة يعـرض نفسـه لأقسـى العقوبـات الصارمـة.

وجاء وفد الخليفة، ثلاث سيارات سود عاليات تعلوها الأعلام السـود وجنـود يرتـدون السـواد، ووقـف أبـو عبـد اللّه ببـاب قريـة لوعـة عبـاس ومعـه الأهالـي متجمهريـن مرحبـين، وكان قـد أعـد مأدبـة الغـداء لهـم، يتقدمهـم شـيوخ القـرى ووجهاؤهـا وسـادتها. نـزل أبـو جعفـر وكان قصيـرًا نحيـلًا تعلـوه سـمرة ولحيـة خفيفـة، وملامحـه قاسـية مخيفـة، فملابسـه سـود، وعمامتـه سـوداء، وفـوق ذلـك هـو عابـس كأن لـم يعـرف الابتسـام. فقـال بصـوتٍ أجش شـابهه شـيء يشـبه الأمـر والزجـر فـي آنٍ:

–السلام عليكم.

فرد الكل بصوت عالٍ يدل على طاعتهم وفزعهم منه:

-وعليكم السلام ورحمه اللّه وبركاته.

فتقدم أبو عبد اللّه بسَّام الثغر، هاشًّا وباشًّا له:

-أهلا بأبي جعفر، رسول خليفة رسول اللّه وناصر الدين ومذل الشرك والمشركين، حللت أهلا ووطئت سهلاً.. هذه القرى آتية طائعة متجهزة للغزو والحرب.

فنظر الى الشيوخ بلا مبالاة ثم نظر الى أبي عبد اللّه وقال بلهجة ساخرة:

-هؤلاء من ستقاتل بهم؟

فقال بارتباك:

-ولِمَ لا؟ هؤلاء واحدهم يمتلك عشيرة قويةً لا يقل رجالها عن الألف رجل.

-ألفُ رجلٍ يا أبا عبد اللّه للواحد منهم وتكريت احتلها الكفرة بألف رجلٍ فقط!! المفترض ـــ إن كنت صادقًا ـــ أن يكون لديك أكثر من عشرة آلاف رجل.. عشرة الاف رجل ينتصرون على الألف ليس بشجاعتهم بل بكثرتهم، ولكنكم أضعتم تكريت، بغرورك وشطحاتك التي لا تغتفر. ألا فاعلم أن أمير المؤمنين قد بعثني إليك محققًا وباحثًا عن أسباب الهزيمة والانكسار وأن لا أتهاون مع أحد، والكل متهم عندي حتى أجد السبب الحقيقي وراء سقوط تكِّريت وما حولها!

فقال أبو عبد اللّه محاولا مداراة الموقف المحرج أمام الشيوخ والأهالي الذين يحملون لافتات كتبت عليه عبارات الترحاب:

-أمر أمير المؤمنين مطاع، فلتتفضل أنت ورجالك لترتاحوا من وعثاء السفر ثمّ تباشرون عملكم.

-نرتاح؟ أمير المؤمنين يرى عرش الخلافة متأرجحا على شفا جرف هار وأنت تقول راحة؟! لا راحة دون البناء من جديد، ولكن قبلاً البناء علينا أن نعد أرضًا صالحة لنقيم عليها ذاك البناء.

فقال بوجل:

-تفضل.

واشار الى دكان تحسين الذي اتخذوه مكتبًا ميدانيًا لقيادة العمليات بعد أن أفرغوه. دخل أبو جعفر الدكان متبوعًا بالتكبير والدعاء لأمير المؤمنين بالنصر المبين على أعدائه. جلس خلف الطاولة وكأنه هو صاحب المكتب. هدأت الأصوات في الخارج ووضعوا الطعام لهم. وإذا بخروف مشويٍّ يُوضع أمام أبي جعفر. سَمَّى باسم اللّه وأكل. وبعد الأكل وضعوا له فاكهةً وتمرًا وشايًا. وبعد أن أتم الأكل قال:

-الحمد للّه.. أكل طعامكم الابرار وصلّت عليكم الملائكة الاخيار وأفطر عندكم الصائمون وذكركم اللّه في من عنده.

-هنيًا ومريئًا.

الا أن الطعام والفاكهة لم تؤتِ أكلها اذ ان ملامحه العابسة لم تتغير أو تهدأ، وموجة الغضب الهادرة لم تفتر، وما زال صوت الخليفة الغاضب وهو يشدد عليه في رأسه حيًا. فقال ولهجة الزجر والأمر ما زالت باقية:

-أبا عبد اللّه، بلغنا ما في ولايتك وتحت إمرتك من فساد وسوء إدارة.. وهذه النتيجة التي تراها، خسرنا أغلب محافظةً صلاح الدين.. أعني المراكز المهمة والمدن ولم يبق لنا الا الصحارى والقرى المتهالكة. ولم يكن هناك سبب لتجميل

القرى واخراج الأهالي مكرهين فأنا أعلم ماذا يجري منذ شهرين. وما هذا التبذير؟ خروف كامل ومأدبة عظيمة! أأنت مشغول بالجهاد ودفع الإعداء أم العزائم والولائم وتحشيد الشيوخ الذين لم تستفد منهم أي شيء؟؟

فقال أبو عبد الله:

-كل ما وصلكم عنا سوء فهم..

فقاطعه بغضبٍ:

-سوء فهم! أأنت عاقلٌ أم مجنون؟ أنا أبو جعفر وتد الدولة التي هزت عرش امريكا وجعلت العالم كله يخاف لا أعرف ما يجري عندك من سوء تدبير. أنت مخطئ، وسيظهر خطأك وفساد أمرك، وأريد أن تعلم علم اليقين أنني لن أتهاون حتى تتجلى الحقيقة، ولن أتردد لحظة واحدة في عقاب المسيء.

-....

-بدأ سوء تدبيرك منذ خطبت بنت سيد القرية هذه لولدك طلحة وما أدى الى مشاكل كنت في غنىً عنها.. هل النساء أنتهين فلم يبق الا بنت شيخ القرية.. ما كان أسمه؟

-سعيد.. سعيد عباس.

-سعيد.. ثم مضيت في تخبطك وسوء تدبيرك في المعارك على أبواب سامراء، في الحويش ومكيشيفة ومنطقة قصر العاشق، لِمَ لَم تحسم تلك المعارك لصالح الدولة الاسلامية؟ لمَ تكبدت قواتنا كل تلك الخسائر الفادحة في الأموال والأرواح والمواقع والمساحات؟ أتعرف كم قلّت أراضي الدولة الاسلامية وكيف انحسر ملكها هاهنا؟ قل لي ألم تصل الى سامراء قبل الموصل بأيام وتحديدًا يوم ٢٠١٤\٥\٦م، وأسقطتم

المدينـة خـلال سـاعاتٍ وأحرقتـم السـيطرات فـي مداخـل المدينـة ورفعتـم رايـة الدولـة فـوق مسـجدها الكبيـر...

-جامع الرزاق وليس المسجد الكبير.

ففتـح ملـف مـن الملفـات الكثـر التـي كان يحملهـا معـه وقـد سـماه (سـجل الهزيمـة) فقـرأ ثـم قـال:

-بالضبـط، جامـع الـرزاق، فلـمَ انسـحبتم بعـد سـاعات؟! أنـت ضيعـت سـامراء مـن يـدك.

-يـا أبـا جعفـر، صحيـح أننـا سـيطرنا علـى سـامراء خـلال سـاعات قـلال ولكـن كان يجـب أن ننسـحب.. يجـب أن لا تبقـى سـامراءً تحـت أيدينـا وتحديـدًا فـي ذلـك الوقـت الحـرج، لأن سـامراء فيهـا مرقـد الإمامـين العسـكريين والسـرداب الـذي يزعمـون أن المهـدي اختفـى بـه، يعنـي ثلاثـة مـن أئمـة الشـيعة الاثنـي عشـرية فيهـا، ربعهـم، لـو بقينـا لأصبحـت سـامراء قبلـة المتطوعـين الشـيعة لتحريـر المقدسـات، لصـارت حربًـا شـعواءً لا قبـل لنـا بهـا، لانقلـب العـراق الـى حـرب طائفيـة أخـرى لـن تحصـل الدولـة علـى شـيء منـه سـوى زيـادة الأعـداء..

فقاطعه سـاخرًا:

-كيف زيادة الأعداء؟

-الشـعب العراقـي يـا سـيدي ملَّ وكلَّ مـن الاقتتـال الطائفـي ولـم يعـد ذلـك الخطـاب فعـالا، فلـو أننـا بقينـا فـي سـامراء لصـار التحشـيد ضدنـا مـن قبـل السـنة والشـيعة فـي آن، السـنة فـي سـامراء لا يفرقـون كثيـرًا علـى الشـيعة، يعتقـدون بالأوليـاء وآل البيـت مـا يعتقـده الشـيعة، فيقدمـون لهـم القرابـين ويسـألونهم الحوائـج، هـم متصوفـة ولكنـه تصـوف قريـب مـن التشـيع... لـم

أشـأ أن أخلـق زعزعـة وبلبلـة علـى منطقـة صغيـرة وقواتنـا لـن تتحمـل تلـك المدينـة.

-(كَم مِّـن فِئَـة قَلِيلَـة غَلَبَـتْ فِئَـةً كَثِيـرَةً بِـإِذْنِ اللَّهِ)؟ ايـن الايمـان الـذي ينبغـي أن تتسـلح بـه أنـت وجنـدك؟ أخفـت المـوت يـا أبـا عبـد الله؟ أحلـت فـي عينيـك الدنيـا الفانيـة؟ وا اسـفاه أنـك تقـود جيشًـا بالعـدة والعـدد، بـل مـادة، ولكنـك نسـيت شـيئًا أسـمى وأعلـى، الأيمـان بـأن النصـر لا يكـون بالعـدة والعـدد، بـل النصـر مـن عنـد الله، الـم تسـمع قـول الله (إِن يَنصُرْكُمُ اللَّه فَـلَا غَالِـبَ لَكُمْ ، وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّـذِي يَنصُرُكُم مِّـن بَعْدِهِ ، وَعَلَـى اللَّهِ فَلْيَتَـوَكَّلِ الْمُؤْمِنُـونَ)؟ ثـم تأتـي بتحليـلات واهيـة لا وزن لهـا وتبـرر انسـحابك ..؟

كانـت لهجتـه قـد احتـدت وعلـت، وملامحـه يـكاد يتطايـر منهـا الشـرر. فقـال ابـو عبـد الله بضعـف:

-للأرض أحكامٌ وضروراتٌ لا يعلمها أي أحد.

-أيٌّ أحكام وأي ضروراتٍ وأنت ماضٍ في تخبطك؟

-الجنود أمانة، فهل نخسرهم؟

-الخـوف مـن المـوت هـو المـوت بحـد ذاتـه، اطلـب المـوت توهـب لـك الحيـاة، وأنـت فـررت مـن المـوت.

فأخذ ورقة وكتب عليها ملاحظاته. ثم قال:

-انتهينا من ملف سامراء وأنت المسؤول الأول عن ضياعها.

فقال أبو عبد الله ذاهلًا:

-أنا؟

فقال ابو جعفر:

-أجل.. أنت المسؤول الأول.

فكظم أبو عبد الله غيظه. ثم قال له أبو جعفر:

-والآن حدثني عن المعارك التي كانت تجري في الحويش وهذه المناطق، أهي في سبيل سامراء وما حولها؟

-أجل.

فقال بتعجب:

-أنت الذي أعطيت أمر الانسحاب منها!! ثم تعود لتحارب وتخسر الجند في سبيلها؟!

-الظروف هي التي حكمت، بعد سقوط الموصل والأنبار صار التنظيم قوةً ضاريةً لا يقف في سبيلها جيش، فالأنبار وحدها ثلث العراق، والموصل ثاني أكبر محافظة عراقية من ناحية التعداد السكاني، فلما ملكت الدولة الاسلامية هذه المساحات الشاسعة والمترامية حان وقت سامراء وما حولها لنسيطر على صلاح الدين كلها، اي الظرف والوضع في ذلك التوقيت حان لضربة قاصمة للدولة العراقية التي تحتضر هي، ولو وقع ما كنا نخطط له لسقطت بغداد مباشرة بعدها، حتى الحشود والجيوش التي ستحشد لن تقف أمامها..

-أي..

-ولكن المعارك لم تكن كما توقعناها..

-هي معركة..! يجب أن تتوقع كل شيء.. كر وفر، انتصار وانكسار..

-لم يقف بوجهنا الجيش العراقي أو المتطوعون، ولكنه الطيران

الـذي أجهـز علينـا وأفسـد زرعنـا وأنهـك قواتنـا، المعـارك التـي حصلـت والشـجاعة والبسـالة التـي أبداهـا رجـال الخلافـة لـن يقـف بوجهـه جيـش أمريـكا لـو كان القتـال علـى الأرض، وهـذا كلـه موجـود وموثـق صوتـا وصـورة.

-وتكريت؟

-الجيـوش التـي اجتمعـت علينـا فـي تكريـت لـم تجتمـع علـى مدينـة مـن قبـل.

-ألف مقاتل فقط!

-هـذا مـا تقولـه الحكومـة العراقيـة، وهـل مصـدر الكـذب والضحـك علـى شـعبهم، لقـد هجمـت علـى تكريـت قـوات لـم نعهدهـا، فصائل لـم نسـمع بهـا، شـرطة وجيـش وحشـد ومتطوعو العشـائر والكثيـر مـن الأهالـي وطيـران التحالـف.

-أريـد أن أقـف علـى نقطـة اثبـت لـك إنـك أنـت المسـؤول الأول عـن السـقوط.

-...؟؟

-أجل، أنت.

فقال وهو يبلع ريقه بصعوبة:

-ولمَ؟

-ألقـى رجالـك القبـض علـى شـاب وفتاة بتهمة الزنـا، وقدمتموهم الـى المحكمـة، حكـم القاضـي بالرجـم علـى الفتـاة المتزوجـة والتـي ثبـت أن زوجهـا قـد طلقهـا! وحكـم علـى الشـاب المتـزوج بالجلـد مئـة جلـدة، أنكـر الشـاب ذلـك، ولمـا جـاء الشـهود تلعثمـوا وتـرددوا قبـل أن يثبـت أن أحـد الشـهود لـم يـرَ رأي العـين، فحكـم القاضـي

بالحكم دون أن يلتفت الى تردد الشاهد، ما أثار قلق الحضور، وإذا بوجود مشاغبين وعابثين انتهزوا الفرصة فطالبوا القاضي بالعدل والعدول عن قراره لكن القاضي تجاهلهم متبعًا تعليماتك الصارمة، فأدى الى انفلات وخروج عن السيطرة، والى مظاهرات واحتجاجات ثائرة ومطالب. هنا يأتي دور القائد الحكيم، ولكنك مع الأسف لم تتصرف كرجل دولة ووالٍ وأمير، بل تصرفت كطائش نزق لم يعرف من القيادة شيئًا، فكابرت وتجبرت، وواجهت متظاهرين عزل بالرصاص والقنابل، ومضيت بهم فتكًا وقتلًا، الى أن غدت تكريت منطوية على حقد دفين لك، وثورة ملتهبة في الصدور.. بفعلك قدمت تكريت للكفرة لقمة مستساغة عندما خلقت لك عدوين: من الخارج ومن الداخل. ولو تصرفت بحنكة وحكمة، وتلافيت الموقف بالحوار بدل تلك الدماء لكانت تكريت باقية.

-ولكنهم غوغاء وعابثون، يريدون اسقاط المدينة.

-أنت من سمحت لهؤلاء الغوغاء بالانتشار في المدينة بسياستك الخرقاء، وأنا بدوري سأتولى التحقيق بالتفصيل في قضية الشاب والفتاة، لأتبين أين هو الحق.

فقال أبو عبد الله وهو يتصفد عرقًا:

-سنكون عونك بإذن الله.

-لا حاجة لي بك، ستقضي الوقت في السجن الى أن نكمل التحقيق.

-السجن؟!

-أجل، أنت المتهم الأول عن ضياع وخسائر كل هذه الأراضي فمن المؤكد أننا لن نكافئك.. وسأسعى جهادًا كي يترسخ

العـدل، واطمـأن فلـن يطـول التحقيـق، يومـان أو ثلاثـة فقـط.

-أنـا واثـق مـن عدالـة أميـر المؤمنـين ومبعوثـه، ولكـن أطلـب حقـي فـي الدفـاع عـن نفسـي.

-سـأفعل ذلك بإذن الله في المحكمة... ايها الجند..

ودخل الملثمون الذين آتوا معه ومن خلفهم أبو قتادة وطلحة.

-خذوا أبا عبد الله الى السجن الى حين اكمال التحقيق معه.

فتبـادل أبـو قتـادة وطلحـة نظـرات الاسـتغراب التعجـب. فقـام أبـو قتـادة واتجـه نحـو البـاب.

فقال أبو قتادة: أبا عبد الله، اخلع عمامتك.

فخلعها ببطء وناولها للجند، ثم أخذوه الى السجن.

-٥٢-

جلس طلحـة عنـد تلـة مشـرفة علـى تكريـت، تبـدو مـن بعيـد كتلـة مـن نـور، هـادئـة وادعًـة منيـرة، هنـاك الأعـداء ينعمـون بالأمـن والطمأنينـة، حتـى الجامعـة عـادت الـى الـدوام. كان البـرد قارصًـا مشـبوبًا بقطـرات مطـر قليلـة، متوحـد هـو مـع الليـل والبندقيـة، همـا الباقيـان معـه. أمـه أصبحـت محـض ذكـرى، أبـوه الـذي وجـده بعـد الغيـاب الطويـل فـي خطـر داهـم لا يعـرف مـا هـو آخـره. التنظيـم فـي تراجـع وتقهقـر، تُـرى إذا بـدأ الهجـوم العـام علـى القـرى مـاذا يفعـل؟ الجيـش العراقـي يجهـز لعمليـة عسـكرية كبـرى، ولكـن أيـن يذهـب هـو؟ إن لـم يظفـر بالشـهادةً سـيذهب الـى الموصـل، يقولـون أنهـا تنعـم بالأمـن. شـعر بيـد علـى كتفـه، رفـع بصـره وإذا بأسـامة، جلـس عنـده كغريبـين وحدتهمـا الغربـة مـا لـم يوحـده النسـب. فقـال أسـامة:

-أعلم ما بنفسك من حزنٍ، إنا شعرت بنفس هذا الشعور.

فقال طلحة:

-لكن أباك وأمك جنبك، أنا لا أحد، فأبي لا أعلم ماذا ينتظره، وأمي لا أعلم ماذا حل بها، هل ماتت؟

-أنا ايضًا، أهلي كانوا: أجود وعلي وتحسين، كنا نجتمع في دكان تحسين نضحك ونختلف ونأتلف، نتقارب ونتشاجر، ولكنا كنا عائلة واحدة، هم عائلتي، أجود آخر خبر سمعته عنه أنه في السجن، أما الآن فلا أعلم أين هو، ربما خرج، وربما بقي مع سائر المظلومين. وتحسين هو الآخر لا أعلم اين هو. وعلي الوجع الذي يشق صدري، لا تكف عني كوابيسه، اشعر أن روحه تحوم في المكان، تصب اللعنات علينا، وتنتظر يومًا قريبًا لتنتقم فترتاح روحه.

فقال طلحة بفضول:

-سؤال يلح عليَّ، اجبني بصراحة.

فقال باهتمام:

-نحن أخوة، بالتأكيد سأصدقك القول.

-ألم تندم لأنك سلمت تحسين لنا؟ ألم تتهور وأنت ترى علي يقطع رأسه وهم أصدقاء عمرك؟

-كنتُ أتقطع .. أتألم، ولكن أيهما أشدُّ؟ خيانة النفس الأمارة بالسوء ودحر ما تمليه أم خيانة العقيدة والفكرة والأيمان؟ إن آثرت الأولى على الثانية ارتاحت نفسك لكن عذابًا آخر ينبجس في الروح؛ الخوف من جهنم ومن العذاب الشديد، أما إن آثرت الثانية على الأولى ضمنت الجنة واستقويت

بالطاعة على ألم الذكرى ووجع الفراق.

-وكيف ضمنتَ الجنة؟

-بالطاعة، طِع تفز.

-ومن قال لك أن عملك متقبل؟

-رحمته.

-علي في الجنة أم النار؟

-لا اعلم.

-أكافر أم مسلم؟

فقال أسامة بألم:

-لا أعلم.

-أنت تجهل الطريق، فكيف ضمنت لنفسك الجنة؟

-بل أنا مستقيم عليه.

-إذن علي كافر.

فطفرت من عينيه دمعة:

-لا أعلم.

-أنت تعلم ولكنك لا تريد أن تقنع.



من ملف التحقيق مع أبي عبد الله: بعض الحوارات التي أجراها أبو جعفر مع جنود التنظيم بشأن أبي عبد الله وخسارة تكريت، والجنود رفضوا الادلاء بأسمائهم فلم تكتب في ملف التحقيق:

-كيف تعامل أبو عبد الله مع المتظاهرين قُبَيل سقوط تكريت؟ وهل كانت لهم مطالب محددة؟

-تعامل ابو عبد الله مع المظاهرات والاحتجاجات بالقوة ولغة السلاح لا غير، المتظاهرون كانوا يطالبون بعدة مطالب، لكن أبا عبد الله رفض الاستماع وأبى، بل تعامل معهم كعبيدٍ لا مواطنين في دولة اسلاميةٍ وتحت راية خلافة ستحكم العالَم، بل دكتاتوريا تامةً.



-كيف كان يرى أبو عبد الله أهل العراق؟

-وصف ابو عبد الله أهل العراق بأنهم أهلُ شقاقٍ ونفاق ومعصية، وأنهم لم يطيعوا الصحابة وخانوا الحسَين بن علي فهل سيطيعوننا؟؟ كان يرى الحل الأمثل هو الفتك بهم والتنكيل ... منهج الحجاج بن يوسف كان انموذجه الفريد حتى يستقيم أهل العراق .



-هل رأيت تحسين وغنية في عينيك وهما يمارسان الفاحشة؟ وكم عدد الشهود الذين كانوا معك؟

-لم أرَ (تحسين) و(غنية) متلبسين في الزنا، بل سمعتُ اصواتهم في الحديقة بما لا يخالجه الشك أنهما يمارسان الفاحشة، فصرت كالثور الهائج لا أولي على شَيّءٍ، فانطلقت الى الجند وكانوا تحت إمرة طلحة وهو ابن ابيٍ عبد الله، فكمن لهم، عندما خرجت غنية مسكنا بها وبتحسين الذي حاول الهرب، وقال طلحة: كلنا شهود. لما استشار ابو قتادة أبا عبد الله اصدر الأخير حكمًا مباشرة، اما حكم القاضي

فهو شكلي امام الناس. وبسبب هذا الحكم العشوائي دون الاعتماد على القانون الاسلامي وترك الامر لقاضٍ شرعيٍّ أدى الى تلك الفوضى.



-ماذا فعل الناس إزاء تلك الفوضى؟

-لما أصدر القاضي حكمه ثار تحسين وقال إنه لم يزنِ وغنية هي الأخرى قالت إنها لم تزنِ وهي مطلقة. ولكن القاضي كان قد حسم أمره قبل أن يسمعهم أصلا، ولكن الشيخ خليل اعترض...

-ومن هو الشيخ خليل؟

-الشيخ خليل مدرس يدرّس في المدرسة الدينية الواقعة جنب الجامع الكبير في تكريت، أخوه قتله تنظيم القاعدة ٢٠٠٧، ومنذ دخل التنظيم تكريت وهو محل شك وريبة، وقد شكيناه مرارًا الى ابي قتادة وابي عبد الله ولكنهم استخفوا به. ويبدو أنه كان قد أعد الى ذلك اليوم عدته من الطلاب الذين لم يغادروا تكريت. لما اعترض الملا خليل على حكم القاضي لم يحر له جوابا أو بالا، فصرخ: باطل ..باطل. وانقلبت الجموع المتفرجة الى ثائرة غاضبة، وانفلت الوضع وخرج المحتجون من الجامع ومعهم أناس كثر انضموا إليهم من حيث لا ندري، فصار عددهم ضخما، مما يشي باضطراب وربما حرب شوارع إن لم يتصرف الموقف بحكمة، وهذا الذي حصل عندما واجههم أبو عبد اللّه بالسلاح؛ إذ تحولت تكريت الى حرب شوارع من الساعة الثالثة عصرًا الى العاشرة ليلا.



-كيف نظر الناس للدولة الاسلامية بعد تلك الحادثة؟

-الناس بعد تلك الفوضى ملت افعال الدولة الاسلامية، ورأتها لا تفرق عن الدولة العراقية القاهرة، فكانت نفوس أهل تكريت مستعدة لمساعدة القوات التي ستحررهم، فهي رافضة الدولة الاسلامية، ناقمة عليها.



-منهج الشورى عند أبي عبد اللّه هل كان فعالا؟

-ابو عبد اللّه لم يكن ليستشير أحدًا في حكم بتَّ فيه، ولَم يكن ليرضى بمعارضة احد، بل كان يعد كلامًه ضربا من الكلام المقدس القطعي، لا يُسأل عمّا يفعل، امرُهُ مطاعٌ، وطلبُهُ مجابٌ، فطاعته كما تعلم من طاعة أمير المؤمنين، وطاعة أمير المؤمنين من طاعة اللّه. وهذه نتيجة افعاله .



-كيف تعامل أو عبد اللّه مع المعارك التي جرت على أبواب سامراء؟

-بعد فتح الموصل والأنبار اصابه غرورٌ، وبدأ بالتحرك نحو سامراء وكانت معارك ضارية لكن لم يُكتب لها الانتصار، اذ سرعان ما انحسرت قواتنا وكادت تستأصل، لانّ ابا عبد اللّه كان كثير الانسحاب، لا يبدأ الطيران بالقصف وقواتنا بالتقهقر حتى يعطي امر الانسحاب والتراجع بدل الامداد والاستبسال والتقدم بعزيمة وايمان.



-كيف جرت معركة تكريت؟

-المعركة كانت معروفة النتائج منذ البداية، قواتنا منهكة معنويًا وجسديًا، اصابات كبيرة، سلاح قليل، لا دعم ولا إيمان من قبل الأهالي الذين ندافع عنهم بالقضية التي انبرينا لها، الهزيمة متوقعة خاصة بعد الهجوم من كل تلك المحاور، فالانكسار نتيجة منطقية للتخبط الذي صاحب طول ولاية أبي عبد اللّه.

-٥٣-

(من عبد اللّه أبي جعفر الى أمير المؤمنين وداحر الشرك والمشركين وحامل لواء هذا الدين أبي بكر البغدادي؛ السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.. وبعد:

فقد انتدبتني للتحقيق في سقوط تكريت وما حولها من النواحي والأقضية، وقد حققتُ وتقصيتُ، وبعد طول الأناة والبحث تبين أن أسباب سقوط تكريت وما حولها:

١)سوء إدارة الوالي وهو (أبو عبد اللّه النجدي) وقلة تدبيره وضعف حيلته، وسوء معاملة الرعية.

٢)المجزرة التي ارتكبتها رجال الدولة بحق المحتجين قبل شهر من تحرير تكريت ما أدى الى نفور عام من الدولة الاسلامية.

٣) انعدام الشورى والأخذ بالرأي والمخالفة لمنهج الدولة الاسلامية.

٤)استغلال الامير لمنصبه لمصالح شخصية، سنرفق لكم مع التقرير المفصل وثائق ودلائل كافية)

وهـذا وسـيتم تقـديم أبـي عبـد اللّه الـى المحاكمـة بعـدة تهـم أبرزهـا: هـو المتهـم الأول بسـقوط تكريـت. وسـنعين واليًـا جديـدًا مـن قبلنـا وطبقـا للصلاحيـات التـي منحتهـا لـي. واللّه مـن وراء القصـد.

أبو جعفر

صفر ١٤٣٧.)



ونُصِبَت المحكمة جنب دكان تحسين، محكمة علنية سيحضرها النـاس أجمعـين. وجـاء القاضـي، وجـيء بأبـي عبـد اللّه مكبـلا.. كان يقـوده ملثمـان. أيـن الأمـارة؟ أيـن لغـة الأمـر والزجـر؟ هـؤلاء هـم أنفسـهم الذيـن كانـوا يخضعـون بـين يديـه طائعـين مهطعـين، مـا لهـم اليـوم يسـتحقرونه كأنـه لـم يملـك يومًـا ولـم يأتـوا خاضعـين بـين يديـه وطالبـين رضـاه. وقـف أمـا القاضـي الجديـد الـذي اختـاره أبـو جعفـر. كان أبـو جعفـر جالسًـا علـى كرسـي مـع النـاس. النـاس تجمهـرت علـى شـكل دائـرة كبيـرة وأبـو عبـد اللّه واقـف وسـطها والقاضـي أمامـه. فحمـد اللّه وأثنـى عليـه وعـرض القضيـة. فطلـب مـن المدعـي أن يدلـي بدعـواه. فقـام أبـو جعفـر جنـب أبـي عبـد اللّه ونظـر الـى القاضـي، وقـال: سـيدي القاضـي هـذا الرجـل متهـم بخسـارة تكريـت ومـا حولهـا، وهـو المسـؤول الأول عـن الخسـائر الماديـة وخسـارة الأرواح الجسـيمة وضيـاع الأراضـي التـي كانـت تحـت ظـل الدولـة الاسـلامية. كذلـك تعطيـل حـدود اللّه واقامـة الحـد الـذي يرتضيـه فيحكـم بالقتـل دون بينـة، ويجلـد بتهمـة الزنـا دون شـهود، يسـتغل القاضـي الضعيـف ويحكـم طبقًـا لأهوائـه. اضافـة الـى القتـل العمـد..! نعـم، أمـر بقتـل المواطنـين المحتجـين عمـدًا بالسـلاح دون تـروٍ أو ابطـاء..

عـدا الخزينـة التـي لا نعلـم أيـن تذهـب، وعـدا الضرائـب التـي فرضهـا علـى شـعبه باسـم الدولـة الاسـلامية ونحـن لا علـم لنـا بشـيءٍ. اطالـب بإعـدام هـذا الرجـل واقامـة القصـاص العـدل.

فضج الحضور وبدأوا يتمتمون ويدمدمون ويتهامسون.

فقال القاضي:

-المتهم، لك حق الدفاع. أنت متهم بالقتل العمد.

-لـم اقتلهـم كمحتجـين، بـل كمخربـين وخـوارج ومفسـدين فـي الأرض.

-وكيـف عرفـت أنهـم مفسـدون فـي الارض وهـم ألـوف؟ هـل شـققت علـى صدرهـم؟

-طالبوا بإسقاط النظام، اسقاط دولة الخلافة.

فقال أبو جعفر:

-غير صحيح، طالبوك بالعدل.

فقال القاضي:

-وكيف تعطي أوامر للقاضي؟

-غير صحيح. القاضي هو من يحكم.

فأشـار أبـو جعفـر الـى جنـده، ونظـر الجمـوع وإذا بالقاضـي الـذي حكم علـى تحسـين، جاء ووقـف. فقـال لـه القاضـي:

-كيف كنتَ تحكم؟

-لا حكم لي يا سيدي، إنما يأمرني الأمير فأطيع.

فصرخ به القاضي:

-أنت قاض! أنت أعلى من الأمير لو أبصرت، كيف تكون ألعوبة بينً يديه؟

لم يحر جوابًا. فقال القاضي:

-خذوا قاضي السوء هذا الى السجن... والآن ماذا تقول؟

ارتبك أبو عبد الله ونظر حوله فرأى العيون تكاد تخترقه، فقال بيأس:

-إنها مؤامرة وخيانة.

فقال أبو جعفر:

-أية مؤامرة وأية خيانة وهذه شهادة جندك فيك؟

فأخرج ملف الشهادات وقدمها الى القاضي. وعرض أبو جعفر عرضًا مطولا تحقيقه واتهاماته معززًا ذلك بشهادة جنده.. فلم يبقَ لأبي عبدالله حجة الا ودحضها ودمغها بتهمة قاسمة.. تواترت التهم وضعفت حججه ووهن دفاعه. فنظر الى جنوده وعماله وأهل القرية والشيوخ الذين كانوا يطبلون له. فقال:

-هذه دعوة الاسلام فيكم ودولته؟ خنتم وتآمرتم ضدي. أهذه دعوتكم وأنتم المسلمون الأتقياء الأنقياء؟ (ثم موجها كلامه لأبي جعفر والقاضي) أهذا أمان الدولة التي بنيناها معًا لتضحي بنا أول الناس؟ أولها دعوة وصلاح وآخرها ملك وغنيمة وسلطان وصراع. ضاع عمري هدرًا لأناس لم يؤمنوا بجهدي وخدمتي.

فقال أبو جعفر:

-أي جهد وأنت تقتل وتحكم وتتهزم؟

فقام القاضي لينطق بالحكم... ارهفوا السمع باهتمام:

(نظرًا لثبوت التهم الموجهة الى أبي عبد الله النجدي وابرزها القتل العمد، واستغلال المنصب لأغراض شخصية، والانفراد بالحكم و.. قررنا الحكم عليه بالاعدام رميًا بالرصاص وفورًا)!!

شهق طلحة وهو يقف بعيدًا ويسمع الحكم على أبيه. وأوقفوه فورًا واصطف مجموعة من رجال أبي جعفر، وسحبوا اسلحتهم. فأشار ابو جعفر لأبي قتادة، فقال الأخير: اطلق.

وهكذا هي هذه القرية؛ لا يركن إليها أحد ويأمن مكرها حتى تنقلب عليه وتصليه عذاباتها وتطعمه من الكأس المر الذي شرب منه عباس.



(وفقًا للصلاحيات التي نمتلكها تم تعيين (أبو قتادة) واليًا على صلاح الدين، وعليه عهد الله ورسوله والمؤمنين)

-مبارك يا أبا قتادة.

فقال أبو قتادة باسمًا:

-بارك لك فيك يا أبا جعفر.

-أنا أنتظر أخبارًا جديدةً منك ومفرحة، عائدٌ الآن الى الموصل، وسأطلب من أمير المؤمنين ارسال تعزيزات جديدة.

-بارك الله فيك، وسأكون عند حسن ظنك.

٢

رحمة

الحُبُّ موتٌ صغير.

ابن عربي

مثل قناديل تضيء طرق الغرباء، مثل يقين يلف قلوب الحيارى؛ تظهر رحمة على التلة وتقف ترمق الحقول بزهو وابتسامة تحيي الروح وتعيد سيرتها الأولى كأن لم تذق تعبًا أو نصبًا، يحث الخطى نحوها يشعر أن قدمه واهنة لا تستجيب لنداء الروح الذي نادى واستغاث للمعبودة المحبوبة.. يشعر أن قدمه غاصت في الرمال .. يريد أن يقول لها أنه مشتاق، الطرق طويلة والعاشق يحتاج لوصالٍ يستقوي به على الطريق، جف ما في القلب من عطركِ ورائحتكِ ولم يبقَ الا شوق يلهب بدل أن يبرد، يحيي قبل أن يتدرب على النسيان... القليل من الوصال يكفي كثير البعد والجفاء.. ينادي بصوتٍ ولهان:

-رحمة.

تستدير بوجه وضاء يشع نورًا وقد تبددت سمرتها وغارت:

-أجود..

قالتها وفي ثناياها أنغام عشق باقٍ على قلة اللقاء.. كأنها تقول: هلمَّ إلي .. تعال. يسير ببطءٍ فقد خارت قوته، يصل إليها قائلا بلهفٍ:

-رحمة.. أين أنتِ؟

يريد أن يقبض على يديها علها تذوب في حضنه فتصهر بعد السنين وتنائي المسافات التي بقيت لسنتين تامتين، ولكنها تنفر منه.

-لمَ؟

-لم يحن وقت اللقاء بعد.

-متى إذن؟

-إنه قريب.

وسرعان ما غارت وسط الحقول وبقي هو يناديها. استيقظ وهو يدمدم.. عرف أنه بيت شعرٍ ردده كثيرًا حنينًا وشوقًا الى رحمة:

تاقت إليك عجافٌ أنت يوسفها

هلّا رميتَ على العُميان قُمصانا

ما زال في السيارة ولم يصلوا الى النقطة الفاصلة بين التنظيم وهم، عند تلك النقطة سيكون عملهم، وهو بالذات تعول القيادة كثيرًا عليه، لأنه مفتاح الوصول الى القرية وبطريقة آمنة، تحتاج الى دليلٍ يعرفها ويحفظها، العقيد محمد أقنع القيادة أن أجود هوٍ الشخص، لذلك حصل له على هذه الرتبة بوقت قياسي والتي ربما ستتضاعف بعد التحرير كما أخبره العقيد بذلك. كانت الشمس قد ارتفعت وظهرت الطرق عارية منهكة، تشبه أهلها، الأزمات تنطوي على شيء عميق.. إنها تعري النفوس من بريقها وزينتها وتبقي ما كان راسخًا في النفس.. مستأصلا فيها كالجذور كالبذور. ها هي البيوتات متهدمة خربة تئن وتشتكي، كل شبر يقص لك حكاية عن الوجع وكل مسافة بين نقطة ونقطة تلوح لك ما في هذي المدن من مأساةٍ وأزماتٍ وتشوهات. هذه الاراضي الممتدة أرض النزال. كم مٍن رايةً خفقت فوقٍ هذه الأراضي في هاتين السنتين؟ وكم من قوةٍ بطشت بأخرى وكلٌّ: هذه الأراضي لي. وقفت السيارات، ونًزلوا، كانت القوات المسيطرة هي عراقية. الطريق ممتد وبمنتصف هذا الطريق الممتد بين سامراء وتكريت يتفرع شارع لطريق آخر يؤدي الى قرية «لوعة عباس» والقرى المجاورة وهي التي تربط

قيادات التنظيم بالموصل ومن هناك تأتي التعزيزات لتصل الى الأنبار أو حتى اعادة الكرة ثانية لاقتحام تكريت. وقف العقيد محمد السامرائي ومعه الملازم أجود وبعض الضباط متفاوتي الرتب. فقال العقيد:

-أجود، هل حنيت؟

كان أجود مشغولاً، فقد عادت الذكرى فتية، كرت الصور نفسها ثانية، عاد الحزن الأول: علي، رحمة، اسامة، سعيد، تراهم أين ذهبوا وحلوا؟ هل ما زال سعيدٌ على قيد الحياة؟ ألم تقصمه السنتين الخاليتين فتريح الخلق منه ومن جشعه وطمعه الذي انهك وأتعب الخلق؟ لكنه تذكر كلمة تحسين كلما سمع بخبر نجاة مسؤول أو شخص يكرهه: (العار لا يموت) تلك الصفة لصيقة كل شخص لا يحبذه تحسين، هل حقًّا أن (العار) أمثال عمه سعيد لا يموتون؟ ولكن في كل الأحوال لن يتركه حرًا طليقًا، هو الذي جعلهم يخسرون الأهل والحبيبة والكرامة، هو الذي تركهم يتقاسمون الغربة فجرت عليهم الويلات والمصائب، هم الذين كانوا يتقبلون صفعات الزمن فلا يعترضون، ويهانون فلا يثأرون لكرامتهم، أين المفر ولم يكن لهم ملاذٌ الا في أوكار الذلة والوحشة والغربة الذابحة؟

-الحنين لم يفتر سيدي.. ولكن الآن أشتدَّ واستأسد، كلما اقتربنا اتسع الألم وزاد الخوف، تُرى كيف سأراهم؟ هم الأعداء والأصدقاء، الظالمون والمظلومون، كيف سنلتقي وهل يمكن الفصل بغير هذه الاسلحة.

فقاد العقيد أجود ومشيا بضع خطوات ووضع راحته على كتفه قائلا:

-اعلم هم الأعداء، وهم من كتب مصائرهم، هم من اختاروا

هـذا الطريق، مـاذا علينـا؟ أن نـحـرر الوطـن.. الوطـن هـو المبـدأ المقـدس، ومـا سـواه لا قدسـية لـه، يـزول متـى أصبحنـا نـدًا وعدوًا لمبدئنـا المقـدس، أي بعبـارة أوجـز إذا اعترضت مصالحنـا مـع الوطـن نؤثـر الوطـن..

فقال أجود:

-والسياسيون ماذا يقدسون؟

فضحك العقيد:

-يقدسـون المصلحـة، هـم مختلفـو المشـارب والمـآرب ... وكلٌّ يـرى مشـربه ومأربـه هـو الغايـة المقدسـة.. الوطـن بالنسـبة لهـم وسـيلة لتلـك الغايـة.

-ونحن ماذا نقدس؟

-الوطن.. العسكري ولاؤه للوطن.

-والمواطن العادي؟

-المواطـن هـو الوطـن، نخدمـه نحـن والسياسـيون، ولكـن بـين السياسـي والوطـن شـق كبيـر، يحتـاج لجسـرٍ يوصـل بينهمـا.

-٥٥-

-سجلت البيت كاملا باسمها؟

قالـت مهديـة ذلـك مذعـورة فزعـة. فقـال الخـال وهـو يفـرك صلعتـه مـن خلـف الشـماغ:

-يـا مهديـة الـذي لـي هـو لهـا، الجيـب واحـد، المهـم أن تسـكت. ومـاذا سـتفعل بالبيـت؟ أنـا معهـا ولا فـرق بيننـا.

فقالت وهي تعدل غطاءها:

-يا خال أنت لا تعرف ما تقول، اي خلاف ثانٍ بينكم ستقول لك: الباب يسع جملاً .. اخرج.. ماذا ستفعل عندها؟

فقال بانفعال:

-عندها لن آتي إليك!

وكعادته عندما تجتاحه موجات الغضب العارمة بدأ يزبد ويرعد ويصرخ ويرفض الحديث عن زوجته بما يغضبه. فقالت له بتروٍ:

-لنتحدث حديث عقلٍ وبهدوء، هل أنت راضٍ عمَّا فعلته؟ هل أنت مقتنع بهذا العملٍ؟ أبو مصطفى حسًين صاحب أكبر مطعم على الطريق السريع ينتهي به الحال مقيمًا في بيت زوجه؟ لا يملك شيئًا يتقوى به على الأيام الا زوجٌ لعوبٌ لا أمان لها!

-بشرى ليست لعوبا..

-وماذا تسمي رفضها العودة إلا أن تسجل لها البيت كاملًا؟

-تريد ضمان حقها.. وهذا حقها، ثم أن لها نصيبا كبيرا في البيت.

-خال، هل أنت على ما يرام؟ هل نسيت أن مالها هو مالك وذهبها هو أنت من اشتريته لها؟ وأنّى لها المال، أنسيت بيتهم؟ ألم ترَ أباها الحافي والذي لا يمتلك الا العربة التي يبيع عليها شاي وحامض.

-هذا عمل شريف لا عيب فيه.

-لم نختلف على أنه عمل شريف ولكنهم نهبوك.

فقام بغضب:

-أنتِ لا تفهمين.. لا تفهمين.

وخرج غضبانًا. جلست مهدية على سريرها تسبح الله وتدعو أن يعود أجود سالمًا.



ولم يمضِ من الأيام إلا أقلها عندما أتى الخال حسين الى مهدية يجر أذيال الخيبة وتعلوه ذلة، كانت يحمل بين يديه حقيبة ملابسه، فتحت له بتول الباب، دخل دون كلام الى غرفة مهدية التي بهتت هي الأخرى من دخوله بهذه الرَّزانة وهذا الهدوء، ومن عادته إن تشاجر معها أو أغضبته أن يبقى أيامًا طوالا لا يدخل إليها، ولكنه عاد هذه المرة بسرعة. وقبل أن تسأله دخلت بتول تجر حقيبته ففهمت الأمر. فقالت له بأناة:

-عملتها بشرى بِك؟

فقال وهو يكاد يبكي على ما آل إليه:

-فعلتها بنت أبي الشاي.. عليها اللعنة.

-لمَ؟ لم تعد الا قبل أيام.

-كلٌّ يعمل بأصله، وهي عملت بأصلِها.. عادت وكأنها ملكة ملكت العالم، تأمر وتزجر وكأنني صبيها لا زوجها وصاحب البيت..

فقالت مهدية باستنكار يشبه الاستهزاء:

-صاحب البيت..!!

فتجاوز اهانتها ومضى يسرد عليها:

-تجاوزت عنها وقلت ما زالت تحمل في قلبها بقايا زعل.. امرأة وعقلها صغير .. عاملها يا رجل كما تعامل الأطفال.. أنت الحكيم .. ولكن عبثًا، لم تغير سلوكها هذا بل صار أقرب الى الطبع المتأصل.. لا تراني الا وتكون حادة المزاج .. غضبى.. كأنها تمنن عليَّ بجلوسها عندي، الى أن أتيتها ظهر اليوم فلم أجد طبخًا، وأنا طول النهار أكد وأتعب في سبيلها .. في سبيل أن نأكل ولكنها حتى الطعام ضنت به عليَّ. قلت لها: اين الغداء؟ قالت: لم أطبخ اليوم. قلت لها: ولم؟ قالت: أشعر بدوخة فلم أطبخ. قلت: ماذا سنأكل؟ قالت: افتح الثلاجة واحم طعام الأمس. قلت: أنا آكل لا طعام الأمس. فقالت بغضبَ: وما به؟ ومنذ متى تتكبر على طعام الأمس وهو نعمة الله؟ فقلت لها بعد إن استشطت غضبًا: بنت أبي الشاي الآن تتكبرين عليَّ؟ أنا حسين صاحب أكبر مطعم تتكبرين علي بعد أن مكر بي الزمان؟ أنا بطل حرب الخليج الذي حارب ونازل في الفيافي والجبهات تأتي واحدة مثلك وتتكلم معي هكذا؟ عندما كان أبوكِ يبيع الشاي ليطعمك فتات الطعام كنتُ أنا آكل الشحم واللَحم واللوز. ثم صفعتها صفعة سُمِعَ لها صدىً. فقالت لي: أخرج من بيتي. كانت تلك الكلمة هي قوتها، وهي اللحظة التي كانت تنتظرها. فتقدمت نحوها بجنون فضربتها وركلتها ولطمتها بعنف وهي تصرخ وتبكي وتشتم. الى أن اجتمع رهط من الجيران على صراخها، وها أنا أتيتك. سمعتها وأنا خارج تتوعد أن تشتكي عليَّ. لم يعد يهمني، أنا مصاب بخيبة أمل كبيرة، محبط، لا أعلم كيف انخدعت بها الى هذا الحد.

فزفرت مهدية وهي تقول:

-ماذا قلنا يا خال؟ من أوّل يومٍ رأيتها علمت ما هي من النساء.

-أنتِ بصيرة بهن، ولكنني انخدعت بها كالحمقى والمغفلين.

لم يكن يمانع الخال من الاعتراف بخطئه واطلاق النعوت والصفات على نفسه بما يناسبها.. بل قال لمهدية بتذلل:

-هل تسمحين لي أن أبقى عندك الى أن أحل مشكلتي؟

فقالت مهدية:

-لمَ هذا السؤال يا خال؟ واللّه أزعل عليك إن اعدت الى مثل هذا الكلمة، هل تريدني أن أنسى كيف انتظرتني في الحي الصناعي ليلا والوضع كان خطيرًا؟ ثم ضيفتني ليوم وأجرت معي بيت، وساعدتنا في الاجرة، فضلك لن أنساه. ً

فقال بسامًا:

-أصيلة على أمك.

-رحمها اللّه.

لكن الخال لم يبَت في بيت مهدية بل في السجن! إذ أتى أهل بشرى وذهبوا وأعدوا تقريرًا طبيًا لما تعرضت له من أضرار وجروح وكدمات، وقدموا شكوى ضده وتم إلقاء القبض عليهً وايداعه في السجن.



ها هو الخال يعود وحيدًا مرة ثانية بلا مالٍ أو بيت أو سيارة، ولا يملك الا ملابسه. خرج من السجن بعًد أن باع جودت سيارته نيابةً عنه ليدفع التعويض الذي أراده أخوة بشرى حتى

يتنازلـوا، والمبلـغ بقـي ناقصًـا فدفعـت مهديـة تكملـة المبلـغ مـن التعويـض الـذي اسـتلمته، تنازلـوا بعـد أن دفـع التعويـض وطلقهـا. الخـال حسـين كفـر بالوطـن مـرة أخـرى بعـد أن عـاد غريبًـا.. عجيبـة هـذه المدينـة التـي قالـوا عنهـا إنهـا تعشـق الغربـاء؛ يـا سـر مـن رأى، اعتبرينـي غريبًـا .. لائـذًا .. واحفظـي مالـي.. ولكـن أبيتِ الا النكـران والخـذلان. هـذا هـو الخـال الـذي خسـر مطعمـه الفَخـم وعمـل سـائق أجـرة يعـود اليـوم بـلا مـأوى أو مـال.

-مصطفـى اتصـل بـي وقـال تعـال عنـدي فـي السـويد، سـتعيش بسـلام، هـو يعمـل وزوجـه كذلـك فيبقـى أولاده مـع الخادمـة، سـأذهب كـي أعينـه وأبقـى مـع أولاده... مهديـة، الوطـن لـم يعـد لنـا، منـذ متـى وهكـذا النـاس تسـطو عليـك علنًـا وتتهبـك؟! نحـن ننـزف بـلا انتهـاء..

ثم أخذ يكفكف دموعه المنهمرة.

-لا تبكِ يا خال.

-مللـت وتعبـت.. قلـق وحيـرة وخـوف وضيـاع.. وهـذا كلـه فـي سـبيل الوطـن، مـاذا قـدم لنـا الوطـن؟؟

-ستأكلك الغربة .. تسفح دمك...

-اجعلينـي أخـرج يـا مهديـة مـن هـذا الوطـن وأحـنُّ لـه وأشـتاق خيـر مـن أن أعيـش فيـه. مصطفـى سيرسـل لـي فلـوس التذكـرة..

وسـافر الخـال حسـين الـى السـويد وحنـث يمينـه الـذي قطعـه على نفسـه بـأن لا يركـب الطائـرة مـرة ثانيـة عندمـا سـافر للسـويد أول مـرة.. ركـب الخـال حسـين الطائـرة وغـادر الوطـن وتحمـل أهـوال وأوجـال الطائـرة؛ إذ هـذه الأهـوال أخـف مـن أهـوال الوطـن. سـافر وهـو يحمـل فـي جعبتـه الكثيـر والكثيـر مـن الذكريـات ابرزهـا بطولـة فـي حـرب الخليـج!

-٥٦-

نظر الملازم أجود الى تلك الأرض الفاصلة بين الحرب والسلم، هناك أقرب نقطة لمرمى قناص التنظيم. يقول العقيد يجب أن نجد منفذًا آخرًا لدخول القرية غير هذه الجهة المحصنة، فقد بلغهم أن الطريق بعد أن خربوه ليعرقلوا سير قوات الشرطة قد ملأوه عبوات ومتفجرات في حال الهزيمة والانكسار فهم، لا يستطيعون الدخول من هذا الاتجاه. فقال أجود وهو يستحضر طريقة دخوله الى القرية يوم أخرجهم التنظيم وعاد ليرى رحمة:

-هناك طريق اعرف مسالكه، وهو بعيد عن الأعين وسيكون آمنًا لجنودنا ، هذا الطريق عندما ندخله نغير على لوعة عباس من الخلف، أي سيكون هجومًا غير متوقع، هذا إن لم يحصن الطريق من الخلف.

فنظر إليه العقيد مبتسمًا:

-أحسنت ملازم أجود، هذا الذي نريده منك.. سِر ليلا الى القرية مستطلعًا، وخذ معك بعض الجنود، وكونوا حذرين.

-حاضر سيدي.

جلس أجود على تلة وقت الغروب ويتأمل ذلك المكان البعيد وكيف انغلقت القريةً بكل تلك السدود والقيود، يلفها الخوف من كل جانب، تُرى كيف هو حال البيوتات الآمنة والاهالي الذين لم يهاجروا ولم يتركوا أرضهم؟ كيف ستلتقي الوجوه المعفرة بالغربة والحقد على الآخر.. عامان يا «لوعة عباس» وما زلتِ صامدة راسخة كأنك قرية عجائب، حتى الضباط دعوا بعض المتكهنين والمشعوذين ليفكوا ما يحيطها من سحرٍ ومسٍّ.

شعر بيدٍ تربت على كتفه، نظر إليه ولم يكد يصدق عينيه، عانقه طويلا بعد فراق سنتين:

-أين كنتَ يا تحسين وما هذه البندقية؟

-آه يا أجود، لو تعلم ما الذي جرى عليّ يا صديقي... ولكن ما هذه الرتبة.. صرتَ ضابطًا!!

-أجل أجل .. تكريمًا لذكرى أخي جواد.

-جواد مات؟!

-نعم.. وجدوا رفاته في مقبرةٍ جماعية.

-رحمه الله وأعان الخالة مهدية.

-أمي لم تدرِ ولم أخبرها.

-لمَ؟

-أمي وقعت وانكسر حوضها قبل سنتين تقريبًا، والى الآن لم تشفَ ولم يجبر كسرها.

-سنتان ولم تشفَ؟!

-يا صديقي إن كسر الروح لم يجبر وجرحها لم يندمل، والجسد يمرض بمرضها ويستشفى بشفائها، وأمي عليلة الروح، بقيت تندب الغائبين وتنتظر عودة الراحلين.. آه يا تحسين لو تعلم ما لاقينا من وجعٍ وألمٍ .. لن تصدق..

-كنت مسجونًا؟

-وما يدريك؟

-أسامة قال لي.

-وما يدريه؟

-لا أعلم.

-نعم.. قصة طويلة قد لا تصدقها.. تهمتي أني داعشي وأنا الذي هربت منهم!

-هذه تهمة كل الهاربين من الموت الى أرض أخرى.. حتى العالم أجمع يحسب أن مناطقنا وكر الارهابيين، وتظن أن أهلها هم الآخرون ارهابيون، العالم يا صديقي منزوع الضمير، ولم يبق كلام الا هذه (وأشار لبندقيته) هي أصدق مقال في هذا الصراع المتأجج.

فقال أجود بابتسامة:

-وأنت أين والبندقية أين؟ هي في المشرق وأنت في المغرب فكيف تلتقيان؟

فقال تحسين بأسى:

-الظروف يا صديقي. من كان يتخيل أن أجود القابع وسط الكتب والمطالعة والذي كنا نتخيله مدرسًا أو خطيبًا مفوهًا يغدو ضابطًا في الجيش وفي جبهات القتال الأمامية؟ الظروف التي جرت علينا في هاتين السنتين ثقيلة، أنا التاجر الصغير والذي كنتُ أحلم أن أكون تاجرًا كبيرًا ذا مالٍ طائلٍ أغدو متطوعًا لتحرير أرضي والثأر ممن ظلمنا.

-ما الذي جرى في القرية بعدي؟ عمي سعيد وأسامة ورحمة... صحيح هل تزوجت رحمة من طلحة.

قال متلعثمًا:

-رحمة.. لا أعلم .. أظنها تزوجت بلا عرس.

فقال الملازم أجود بارتياب:

-كيف بلا عرس؟

-بلا عرس وزفة.

-يُحرمون الزفة؟

-يحرمون الطرب.

-ألم تنجب أطفالا؟

-من التي تنجب؟

-يعني من؟ ما بك يا تحسين؟ هل رحمة بخير؟

-طبعًا بخير.. لا يجوز أن نتحدث عن المرأة ولا تنسَ أن النساء لا يخرجن أو نتداول حديثهن، حرام .. وأنا هربت من تكريت قبل أشهر طويلة.. قبل التحرير.

-لمَ هربت..؟

-آه .. قصة طويلة.

ثم قصَّ عليه كيف ألقى عليه التنظيم القبض وكيف هرب وكيف ثارت تكريت، وكيف هرب وسط الجموع الثائرة متلثمًا وغاص بينهم متجنبًا الرصاص الزاخر، لا يعلم كم ركض وكم تخطى من أحياءٍ وأزقةٍ، الى أن قفز في بيت مهجورٍ ليجد نفسه يعاني منْ كدماتٍ وجروح لم يشعر بها. وفجأةً تذكر غنية، أين هي؟ عاد الى الشارع مخاطرًا دون وجلٍ باحثًا عنها .. يقترب من كل سيدة منقبة لعلها تكون هيٍ.. الجموع هائجة صاخبة ترغي وتزمجر.. يقلب الوجوه الفزعة .. اين غنية؟ يتجنب الرصاص الزاخر يقتفي أثر الهاربين في الأزقة والدرابين علها هربت هنا وهناك.. يسير

كالمهووس ..كالممسوس .. الى أن رأى جسدًا متكورًا مغطى بالسواد وحوله الدماء.. فزع وارتعدت أوصاله، لا يمكن أن تكون النهاية هكذا، لم تمت رجمًا فهل ستموت برصاصة طائشة؟ تقدم نحو ذلك الجسد ببطء مشبوب بفزع ووجل .. هي غنية.. أزال الغطاء فراعه وجهها، كانت الرصاصة قد اخترقت رأسها من الخلف وخرجت من وجهها فتناثر مؤخرة رأسها وبدا شكلها مفزعًا، جلس عندها يبكي غير عابئ بالرصاص المتساقط. ثم حملها ورأسه يعج بالتساؤلات؛ أزانية هي أم قديسة؟ شريفة أم عاهرة؟ ملاك أم شيطان؟ الى جنة أم نار؟ شهيدة أم مقتولة؟ من المسؤول عن دمها ودم الألوف غيرها؟ حمل جثتها الى المقبرة وكانت الشمس قد غربت، المقبرة مغلقة، نادى على صاحبها، فرآه بتلك الحالة ويحمل جثة فارتاب وتوجس وخاف من العيون المتجسسة والمترصدة. فقال صاحب المقبرة:

-ماذا تريد؟

فقال بعيون باكية:

-غنية.. ماتت.. أريد دفنها.

-لا يوجد دفن في الليل، تعال صباحًا ومعك إذن من رجال الخلافة حتى تدفن.

-أرجوك.. جثتها ستجيف.

فاعتصر قلب الدفان وفتح له الباب. أدخلها الى غرفة أعدت لغسل الأموات جنب مصلى المقبرة. راع الدفان منظر الجثة، فقال له: الشهيد لا يُغسل. ولفوها بكفن تبرع به الدفان، ووضعوها في تابوت وصلوا عليها ودفنوها. شكر الدفان

ووعده أن يعود بعد التحرير ويدفع له ثمن الكفن والقبر.

فقال تحسين وهو يمسح دموعه:

-ومنذ ذلك الوقت قطعت عهدًا على نفسي أن أثأر لغنية وانتقم من الدواعش الأنجاس ولو كلفني ذلك الأمر روحي.. ولم يبق لي صديق الا هذه البندقية.

فقال الملازم أجود بحزن:

-كل بيت لم يخلُ من شهيد أو مفقود أو سجين، ولكن سينتهون.

-٥٧-

في القرية حصلت تغيرات جذرية. إنه عهد أبي قتادة الذي استلم ولاية ضائعة ولم يبق منها إلا قرى وأرض واسعة ولكنها فارغة بل تتصل بولاية أخرى. عليه أن يحافظً بما تحت يديه، خاصة وأن الأخبار تتواتر عن استعداد الجيش لعملية كبرى يستعيدون بها هذه المناطق التي تعتبر أوكار التنظيم وملاذه الحصين. أول ما تولى أمرهم بدأ بتحصين القرى لتكون عصيةً على الجيش، فقام بتخريب الطرق المعبدة المؤدية الى القرية وحفرها في موضع آخر وفجر عبوة في مكان آخر، الى أن صار الطريق مليئا بالحفريات والعبوات الملغومة التي زرعوها على طول ذلك الطريق، فلا تكاد سيارات الجيش تمشي عليه حتى ينفجر عليها، وهذا ما حصل مع أول محاولة لتحريرها بعد تحرير تكريت مباشرةً. أبو قتادة يرى أن هذا الفعل حكيم، الى أن يرتب جيشه ويستعد للكر عليهم ثانية، لكن قوتهم وهنت، ولم يعودوا قادرين على «الغزو والفتح»، فقد وهن جنودهم، ولم يرسل أبو جعفر امداد الخليفة

كما وعده. والأدهى والأمر أن الخلاف والحقد دب بينهن، ولحقهم ما يلحق كلّ دولةٍ إذا وهنت وشارفت على النهاية من تشقق وخلاف وبغضاءٍ، فطلحة زعم أن أبا قتادة هو من لفق لأبيهً هذه التّهم ولصقًها به، وأن أباه بريءٌ براءة الذئب من دم يوسف، بل أبو قتادة كان صدره ينطوي على جذوةِ حقد لسيدِهِ، وسرت هذه الأقوال بين أفراد التنظيم كالنار فيٍ الهشيمَ، وكعادة أي اشاعة منهم من صدق ومنهم من أنكر، ولكن على الأقل هناك من صدق على قلتهم. ومما يؤكد هذه الخبر ما جرى في تلك الأشهر من فظاعة ورعب، فالإعدامات كثرت بأعداد هائلةٍ، والرجم نفذ في تلك الأشهر ما لم ينفذ في سنة كاملة. أمًّا الهاربون من ذلك الجحيم المستعر فكانوا يعدمون فورًا بتهمة الخيانة والعمالة وبلا مراجعة الأمير أو القاضي. يقول طلحة: فلمَ أعدم أبي وأبو قتادة فعل ما لم يفعله أبي في سنتين؟ لم يحر أحدٌ جوابًا أو يهتدِ الى تغيير نظرته، الا أن الشيء الوحيد الذي استقر في نفسه هو نيته، لم يعد كما كان مؤمنًا بقضيته يفديها بدمه وروحه ومستعد لأن يركب سيارة مفخخة وينطلق الى الأعداء دون وجل، لا، لأنه اعاد التفكير وسأل نفسه: نقاتل من؟ ومع من؟ وضد من؟ والأهم لأجل من؟ تلك الأسئلة التي كانت من أبجديات الأمورِ رآها عصية على الفهم، بل ملغزة، خاصة بعد أن رأى رجلًا غريبًا بزيٍّ عسكري يدخل الى أبي قتادة وتحت حماية رجال التنظيم.

-يقال أنه ضابط امريكي ذو رتبةٍ رفيعة.

ففزع أسامة عندما سمع كلمة طلحة. فقال بتوجس:

-أنت متوهم يا صديقي، الامريكان هم الأعداء الكفرة

الفجـرة، ونحـن نقاتلهـم، فكيـف يسـتقبلهم؟

-أنت لا تعرف هـذا الرجل، إنـه عميل لا محالـة، يبيع نفسـه مـن أجل المنصب والجـاه، لا تحسـب أن الاسـلام يهمـه، مثلـه كمثـل الأحزاب الاسـلامية فـي العـراق، شـعارات خاويـة براقـة سـرعان مـا يصرعهـا الطمـع وحب المـال.

فقال أسامة بعد برهة:

-صحيـح، العـراق منـذ اثنـي عشـر عامًـا تحكمـه أحـزاب اسـلامية فلـم تـزد عليـه الا خرابًـا وتراجعًـا ودمـارًا وتخلفًـا، ولكـن الدولـة الاسـلامية غيـر.

-لـن تختلـف كثيـرًا مـا دام علـى رأسـها أمثـال أبـي قتـادة لا يرعـون فينـا وفـي الاسـلام إلًا ولا ذمـة. سـأصارحك فـي أمـر، قـد يبـدو غريبًـا قبـل إعـدام أبـي، ولكـن الآن لا غرابـةَ فـي الأمـرً، خاصـة وأنـت تـرى همتـي التـي فتـرت، لقـد ندمـتُ علـى التحاقـي بصفـوف الدولـة الاسـلامية وعلـى تـرك أمـي، لأنـي اكتشـفتُ ببسـاطة إننـا نعـدو وراء قضيـة ليسـت لنـا، سـيقطف القـادة ثمـار تعبنـا، ونحـن فـي الواجهـة، نحـن عـدد فقـط.. ألا تـرى مـا أراه؟

-لا.

-أمـا زلـت مؤمنًـا بمشـروع الدولـة الاسـلامية بعـد كل الخسـائر؟ التنظيـم فـي أفـول وزوال.. انتهـى وقتـه، نحـن لعبـة اسـتقطبنا التنظيـم.. الشـاب الفائـر المتحمـس القـادم مـن ثـورات الربيـع العربـي الهائجـة. كان الربيـع أمـلًا وحلمًـا .. كنـا ننتظـره ونتغنـى بقـول أبـي القاسـم الشـابي:

إذا الشّعْبُ يَوْمَاً أرَادَ الْحَيَاةَ

فَلا بُدَّ أنْ يَسْتَجِيبَ القَدَر

وَلا بُدَّ لِلَّيْلِ أنْ يَنْجَلِي

وَلا بُدَّ للقَيْدِ أَنْ يَنْكَسِر

كنا نظن الربيع تلك المطرقة التي ستكسر القيد، وكنا نظن أن التنظيم هو ذلك القدر الذي سيستجيب، فضحينا بكلِّ غالٍ ونفيس في سبيل الحياة التي أردناها.. حياة حرة لا يحكمها مستبد فيتخذنا عبيدًا، أردنا الحرية فثرنا ثورة الأحرار كما كنا نظن، ولكن لم نسِر سير الأحرار بل سير العبيد، ولم نصنع حرية بل صنعنا دكتاتورية جديدة، ولم نحطم أصنامًا إلا لنعبد اصنامًا أخرى، ولم نقتل القذافي إلا لنعبد أبي بكر البغدادي ... الحرية، المساواة، العدل، مبادئ تنادي بها الشعوب القابعة تحت مطرقة الاستبداد، بل أكثر الأمم مناداة بتلك الشعارات، بل نمتلك دستورًا بهذا الشأن: (العدل أساس الملك)، ولكننا مخطئون، تائهون، مستعبدون باسم الحرية وغيرها من الشعارات، ولكن أين هذه الحرية؟ وأين «الربيع» وثماره اليانعة الدانية؟ أيُّ بلد عربيّ ولد فيه «الربيع» فبقي آمنًا سالمًا؟ كنا ننشد السلام والتطور والتقدم والازدهار والأحلام، كنا نحتاج مطية جامحة لا تكبو حتى تتسع تلك الأحلام، وكانت الثورات العارمة هي السبيل الوحيد للغد الرخيّ المتسع لأحلامنا، ولكن سرعان ما تبددت تلك الأحلام لتبدو محض أوهام، فقلنا الثورة المسلحة هي طريق سديد كنور سيشع آخر النفق، وآمنا بمشروع الدولة الإسلامية لأنهم اسلام ودين يتسع للأفكار التي نحملها، ولكن ما النتيجة؟ انظر الى بلاد المسلمين التي غزاها «الربيع» لم تعد الا أوكارًا للاضطراب والدمار، قل لي أي البلاد مستقرة؟ العراق وسوريا وليبيا واليمن وحتى مصر.

فقال أسامة:

-خسرنا ولكن المعركة لم تنتهِ.

فقال طلحة بصوتٍ عالٍ:

-وماذا بقي؟ كل شيءٍ ضاع وانتهى، ونهاية الدولة الاسلامية مجرد وقتٍ.. لنهرب يا أسامة.

فقال أسامة بذعر:

-الى أين نهرب؟

فقال طلحة بصوتٍ خفيض:

-الموصل، ونهرب من الموصل الى كردستان ثم الى تركيا، وإذا وصلنا الى تركيا نكون قد نجونا.

-أتحسب الوصول الى كردستان هينًا؟ أتحسب أن الكفرة لم يضعوا أسماءنا ضمن المطلوبين؟

-لن يضعوها، لأنا لم نخرج ولم ندخل من منفذ شرعي.

-مخاطرة.

-إذن نهرب الى سوريا وندخل تركيا بطرق غير مشروعة ونغوص مع الجموع اللاجئة.

فقال أسامة بترددٍ وتوجس:

-لا أعلم يا طلحة، مجازفة غير قادرين على خوض غمارها.

-ماذا تقول أنت؟ نحن الذين فدينا الدولة بأنفسنا وأرواحنا ونمشي تحت ظلال الموت يعجزنا الهروب؟ نحن الذي أقبلنا عليه يعجزنا الهرب؟

-الهرب من الموت أصعب.

-لا تخف يا أسامة، لنهرب قبل أن يبدأ هجوم الجيش علينا، معركتنا خاسرة، وقضيتنا خاسرة، فلمَ البقاء وفي سبيل من؟

-في سبيل الله.

-أنت وحدك الذي تظن أن الدولة باقية في سبيل الله.. لنهرب.

فقال بتردد:

-وأبي وأمي؟

-لا شيء عليهم، عندما تتحرر القرية يخرجون نازحين الى سامراء أو تكريت، وبعدها نلتقي معهم في اسطنبول، عنوان صديقي موجود، سنهرب ووجهتنا اسطنبول، ثم نعمل هناك الى أن يأتي أبوك وهو ما شاء الله أمواله كثيرة، بعدها أعود أنا الى أمي وأنت عش مع أهلك في تركيا أو أي دولة عدا العراق، بلدكم لم يعد صالحًا للعيش.. ألا تسمع ما يعانيه أهل الموصل وديالى والأنبار الذين لم يغادروا العراق من ذلة وتعاسة في المخيمات؟ لن نعيش بعد تحرير القرية، سنقتل صدقني.. لنهرب.. أفق يا اسامة.. ثم حتى إذا هربت من الجيش من يتركك؟ حتى ابن عمك أجود حاقد عليك، وتحسين صديقك، والكثير من الذين عاقبتهم مع التنظيم، سيستأسدون كلهم عليك، افهم اللعبة.

فقال أسامة بعد أن اقتنع:

-متى نهرب؟

-غدًا أو بعده..

-ولمَ لا نهرب غدًا؟

-عندي مهمة أخيرة أريد تنفيذها في القرية...

-٥٨-

ختفى بسام!

شاع الخبر في المحلة أن بسامًا اختفى ولم يعد يعرف له أثر! أُعتقل بسام وخرج في اليوم التالي. ظن أهل الحي أن تهمته بسيطة، بل لا تهمة أصلا كما يحصل لسائر الناس الذين يسجنون ويخرجون مبكرًا. ولكن ما خُفِي كان أعظم وأدهى، كل الأسئلة كان تدور حول محادثاته في الفيس بوك وحواراته مع الملحدين ومحاولة اثبات أن الاسلام دين الحق.. وأهم نقطة كانت تهمهم هي تلك الأفكار التي حسبوها تنتمي لداعش ونسوا أنها مفاهيم اسلامية اتخذها داعش وسيلة لمآربه. يقول له المحقق:

-تقول أن الزنا حرام، شرب الخمر حرام يستحق الجلد.

-لستُ أنا من أقوله، هذا ما قاله القرآن وهذا شرع الله منذ أربعة عشر قرنًا، كتاب موجود ودستور يعمل به المسلمون.

-لمَ تدافع عن الدين بهذا الاندفاع؟

-لأنه دين الله، وهو دين الحق والشريعة الحق.. على الناس الذين ابتعدوا وضلوا ضلالا مبينًا أن يعوا ويعودوا الى رشدهِم.. لأن الاسلام طريق الحق والنور والعدل والتقدم..

ومضى يسرد على ذلك المحقق مفاهيم الاسلام وأصوله

وواجباته كما تعلماها من الكتب ومن المدرسة ومن الجامعة وبلا تحفظ أو تردد، بل أوغل في ذلك ايغالا بعيدًا عندما سأله عن الجهاد في الاسلام وحكم المرتد والكافر والجزية ..بل مضى الى أبعد من ذلك عندما بدأ يتحدث عن حرب الصحابة والخوارج والفئة الباغية وابن تيمية وابن القيم ومحمد عبد الوهاب .. فقد ظن ــــبسذاجتهــــ أنه حديث عابر واستفسارات يحتاجونها من طلاب الشريعة، خاصة وأن الضابط أبدى ليونة وحسن انصات...لكن الضابط مضى يكتب تلك المصطلحات في سجله ومقارنًا بيها وبين أفكار التنظيم: (ضلالا مبينًا)،(يعودوا الى دينهم)،(الاسلام)،(الجهاد)،(الجزية)، (الكفرة)، (المرتد يقتل في الاسلام). وأسماء الأشخاص: (ابن تيمية)، (محمد عبد الوهاب)، (ابن القيم).

ثم اطلقوا سراحه. عاد يتهادى الى بيتهم في منتصف الليل، دفع الباب بهدوء فلما سمعوا أهله صوته وهو يقول: أين أنتم؟ قاموا فرحين جذلين، وسرعان ما انطلقت الزغاريد من حنجرة أمه ونوار صداحة الى أن اجتمع الجيران مباركين ومهنين، كانت ليلة ساهرة وجذلى من ليالي الحي القليلة. في اليوم التالي استيقظ مبكرًا يريد الذهاب الى الجامعة.

-يُمَّة لا تذهب اليوم، ما زلت متعبًا.

-ماذا فعلت أنا؟ ساعات في التحقيق وهذا كل ما في الأمر.

-أنت متعب.

-لا تعب وأنتِ جنبي.

ثم طبع قبلة على خدها، وقام مستعجلا، ارتدى ملابسه على عجلة وخرج دون افطار، كانت أمه ترمقه وهو خارج

وهـي تـذرف الدمـوع وكأنهـا عليمـة بمـا هـو آت.. ولـمَ لا تعلـم؟ أليسـت بصيـرة القلـب أبصـر مـن العـين؟ وأليسً قلـب الأم يـدرك مـا لا تدركـه الحـواس ومـا تكنـه الأقـدار؟

ومنذ ذلك الصباح لم يعد بسام أبدًا الى الحي!

لـم يتـرك أبـا بسـام مستشـفى أو مركـز شـرطة أو سـجن إلا وقصـده وسـأل الـى أن مـلَّ ولـم يهتـد الـى طريـق يوصـل إليـه.. أيـن أنـت يـا بسـام؟ ميـتٌ أم حـيٌّ؟ فـي أيِّ سـجنٍ وأيِّ عتمـة قابـع أنـت؟ لا دليـل يوصـل إليـك، كل الطـرق التـي توصـل إليـكً موصـدة، معتمـة، أتعـرف يـا بسـام مـا كنـه الانتظـار حتـى يجعلنـا نشـيخ ..يغزونـا ذلـك الوقـار المبكـر؟ لأننـا نسـتعين بمـن نحبهـم فنسـقي القلـب وصـلًا وحبًّـا فيبقـى عصيًـا علـى الكبـر لعقـود، ولكـن ذاك الخـواء والجفـاف يتـرك القلـب عجـوزًا وإن كان فـي شـبابه واهنًـا يائسًـا.

أخيـرًا وجـدت مهديـة نفسـها قـادرة علـى الحركـة فقامـت متكئـة علـى عصـى وبتـول معهـا فقطعـت بعـض الأزقـة الـى أن وصلـت الـى بيـت أم بسـام، فـرأت مسـكنهم القـديم وهاجـت الذكريـات، فقالـت بوهـن: لـم نـرَ منـك خيـرًا.

كانـت أم بسـام جالسـة عنـد البـاب تنتظـر كالمجنونـة وهـي تدمـدم: سـيأتي.. لـمَ تأخـر؟ قـال سـأذهب للكليـة.. بسـام لا يكـذب..

فقالـت مهديـة وقلبهـا يـكاد ينخلـع حزنًـا علـى رفيقتهـا فـي الغربـة:

-يا أُخيتي، قومي، انتظريه داخل.

-لا .. سيعود.. هـو قـال ذلـك.. إنـه آتٍ.. كـذب الذيـن قالـوا لـن يأتـي.

فظهرت نوار وهي باكية متوسلة بأمها أن تدخل. وبعد عناء أدخلوها البيت... فهاجت مواجع مهدية واتقدت حنينًا الى الغائبين الراحلين.. جواد، أجود، الخال حسين، وبسام الذي أكمل سلسلة الغائبين ونفض الغبار عن ذكراهم، كأنه قنديل يضيء مسالك الغرباء، هكذا أحيا بسام ذكرى الغائبين... وما أن استقرتا في غرفة المعيشة حتى بدأت أم بسامٍ تلطم وتندب، وسرعان ما ذرفت مهدية الدموع السواجم، كلٌّ يبكي ويلطم على عزاه.. أين هم؟ لم يبقَ إلا الشجا يبعث الشجا.



أسبوعٌ مضى ولم يرد خبرٌ عن بسام، لم يتركوا مكانًا إلا ولجأوا إليه، ولا تنظيما مسلحا إلا ودقوا بابه، بل اتصلوا بعقداء ونواب في البرلمان، ولكن بسامًا ملحٌ وذاب في ماء، لا خبر يشفي الغليل. أمُهُ استسلمت للجنون على وحيدها.. ذلك الوحيد الذي لم يعلم أحدٌ أين ذهب وبأيِّ ذنب..

أشرَعَتْ بتول الباب، فقالت بذهول: نوار!!

دخلتْ مسرعة، فقالت: أين الخالة مهدية؟

جلست عندها باكية، فقالت بصوت متهدج:

–سنرحل يا خالتي، لم يعد لنا بقاءٌ هنا، خسرنا أخي الوحيد، وأمي على أعتاب الجنون، وابي مستسلم لليأس، ماذا بقي لنا؟

–يا بنيتي، لم يمضِ الا أسبوعٌ واحدٌ على اختفائه لم العجلة؟ تروَوا وتمهلوا، لعلَ اللّه يحدث بعد ذلك أمرًا، لو تعلمين عمتي حمدية كم انتظرت عليًّا؟ ثم عاد، وأنا منتظرة دائمة الانتظار على سنة حمدية.

–لقد حسمنا أمرنا وقررنا الرحيل.

-الى أين؟

-الى بغداد، ولكن هذا الحل مؤقت، لن نبقى هنا أبدًا، هذا البلد لا يصلح للعيش، ما زلنا في الصدمة الأولى، كيف يختفي هكذا؟ ما زال يا خالة في زهرة شبابه، لمَ ذهب؟؟

فبكت مهدية وقالت:

-لا اعلم.. لمَ أولادنا دون العالم يذهبون وهم يافعون؟

-سامحينا خالة.

-على ماذا أسامحك يا بنيتي؟ أنتم من يسامحنا، قصرنا في حقكم.. اعطني عنوانًا نستدل به عليكم.

-لا أعلم في أي أرض سنسكن، رقم هاتفنا عندكم، سنتواصل.

فعانقتها والبكاء وحده سيد الموقف. وخرجت الى الباب وقبل أن تخرج نوار قالت:

-أوصلي سلامي الى أجود..

فقالت بتول ذاهلة:

-أجود!!

فقالت نوار بصوت خفيض:

-كنتُ أحبه، وحسبت أنه سيأتي ويطلبني، تلك النظرات التي أوهنت قلبي، عيناه اللتان لا تستقران على شباكِ حتى ترتبك، ومن ذلك الارتباك يصل شعاع قلبه ويستقر في قلبي.. كنتُ ولهى به..

-أنا راحلة .. قولي له: كنتُ أتمنى أن يحصل أكثر من النظرات بيننا!!

عانقتها وخرجت وتركت بتول في ذهولها.

وغادر بيت أبي بسام الحي، بل والمدينة كلها، بعد أن تخطف الغياب بسامًا، والجنونُ أمَه، واليأسُ أباه.. لم يعرف أحد أين ذهبوا وأيّ أرض ولوا وجوههم، قيل بغداد، وقيل كردستان، وقيل تركيا. أما مصير بسام فبقي مجهولا بالنسبة لأهل الحي ولعائلة مهدية، حاولت بتول التقصي عنهم من خلال رقم الهاتف ولكن الهاتف مغلق، قيل أن بسامًا عاد الى أهله في بغداد وما خروج أهله الا اتفاق سري من أجل الهروب من جحيم المدينة، وقيل أنه قتل، ولكن الذي يعرفونه يقينًا أن بسامًا لم يعد الى سامراء أبدًا، شأنه شأن الكثيرين الذين اختفوا ولم يعودوا.

ين بسام؟

هذا السؤال بقي يتردد في المحلة طويلا حتى بعد أن ترك أبو بسام المحلة بفترةٍ طويلة بل والمدينة كلها وصارت حكاية بسام سراً مجهولا يتردد صداه في أرجاء الحي كلما تندروا وتفكهوا بذكر الغائبين قبل أن تستسلم حكاية اختفاء بسام المفاجئ الى النسيان.

-٥٩-

أسقط هاتفه من يده وبقيت بتول تناديه: أجود..

بسام اختفى.. إنه شعور الغربة إذا عصف بالروح فتبدو وحيدة.. كيف تسلو يا أجود والعدو أمامك والليل غطاؤك؟ تذكر تلك الأبيات لذاك الشاعر العراقي (عماد جبار) فسرت في روحه كالتراتيل .. كالمواويل:

«يا والد الانهار

يا شيخ الجبال السمر

يا شجر الروابي

يا سفح روحي ان بكت روحي

ودثرني ضبابي

يا أنجمي الاولى

اذا اغفيت كنّ يجئنني يحرسن غابي

يا وحدتي وعراق روحي

يا أجمل الاطفال في قلبي

وأحلى الضوء يسهر في رحابي

لا قلب الا راحتاك تضمني

وتجير نافذتي وبابي

الارض تعمر بالدخان

وانت تلمع قطرة أولى على ذهب القبابِ

البحر شاخ وانت تزخر بالعبابِ

عش هكذا أنت المكابرُ

مذ مشى نخل على عطش اليبابِ

يا عذبُ

يا فانوس أضلاعي البعيد

يا أول الآباء في قلبي ويا شجر الصحابِ

يا خصلة سوداء كم أبكي اذا ابيضت

والقتها الرياح على ترابي

وأقول ما بي؟

اذ التقي عينيك تسالني

فأغسل بالدموع ندى جوابي

عش مالئا قلبي وممتلئا بما بي

عش مالئا حبري

ومنحنياً كضوء الانبياء على ثيابي»

ثم أحنى رأسه مستسلمًا لنداء عينيه بأن يبكي كما لم يبكِ من قبل.. بسام الذي حذره مرارًا ووبخه ولكنه يأبى إلا المضي مهتديًا بطيبة قلبه وشغفه بأن (يهدي الناس الى الطريق المستقيم)..

يا بسام، الناس وحوش ضارية .. فلمَ تواجه قساوة هذا العالم اللعين بطيبة قلبك الرقيق؟ الناس متكالبة على الدنيا وأنت تفكر بهم وبإنقاذهم لأجل أن ينعموا براحة أبدية فمحوه. ركض أجود كالمجنون الى العقيد محمد .. افعل أي شيء، انقذ توأم الروح.. أنا واياه روح واحدة حللنا جسدين، فكيف يختفي ويرحل؟ العالم بائس تعس بما فيه الكافية فلن يتحمل اختفاء بسام.

يقول العقيد:

-لم أعثر عليه.

يجيبه أجود بحزن بالغ:

-ولكنه توأم الروح!

-افهم حرصك عليه وخوفك ولكن لم نجده ماذا أفعل؟ استنفرت معارفي كلهم، ولكن تأسفوا واعتذروا، لم يجدوا له أثرًا.

-٦٠-

لبس أجود سروالًا وثوبًا أفغانيًا وتلثم، ولم يحمل سوى مسدس، وتحسين هو الآخر ارتدى الملابس نفسها. كان أذان العشاءً قد ارتفع يقطع سكون الليل بعد أن كانت تقطعه قذيفة هاون هناك أو انتحاريّ هنا. الآن سيتسلل أجود وتحسين الى القرية من الطريق الذي سلكه عندما عاد الى رحمة في ذلك اليوم. ودعهم العقيد محمد قائلًا: طالعا المكان جيدًا ولا تتأخران الى وقت السحر، وإن بقيتما حتى مطلع الفجر فهذه رسالة لنا بأنكما أسيران.

عانقهما بحرارةٍ وودعهما. انطلقا الى الحقول الخربة، تلك الحقول الشبيهة بأعجاز النخل الخاوية، قد غرقت في فوضى المعارك ودارت رحى الحرب عليها، بل وجرت معركة من أشهر معارك التحرير على هذه البساتين؛ عندما كانت تمر مصفحات الجيش من هنا يخرج لهم انتحاري، أو تتساقط عليهم الصواريخ والقنابل والرصاص كالرطب إذا تساقط من نخل تلك الحقول.. في قلب أجود بسقت الأحزان متضاعفة، من كان يصدق ذلك النعيم الدائم والجنة الوارفة التي بناها عباس فاتسعت اتساع جنة الخلد للمؤمنين سيصير هذا حالها وتغدو ساحة النزال لأكبر صراع اقليمي ودولي يشهده العالم في القرن الحادي العشرين؟ لمَ نحن دون

الناس؟ أنحن مذنبون الى هذا الحد فاستحققنا عقابا ووبالا فانقلبت جنتنا يبابًا؟ لكننا على الأقل لم نزهق نفسًا أو ننتهك عرضًا أو ندنس شرفًا؟

وكل تلك التساؤلات شيء ورحمة شيء آخر، تلك الملتصقة بالروح، وكأنها قدت منه.. لماذا يا رحمة جئتِ عذابًا؟ متوحدة بي الى هذا الحد، رابضة في حنايا القلب وكَأنه مسجد ولاذ به ناسك .. الآن يا رحمة قد جاء موعد اللقاء يدق طبول الترقب والتوجس.. هل فعلها ذلك اليوم وأخرج الدم منكِ؟ هل قربه منكِ جعلني عندكِ في خانة النسيان؟ الآن أنا آتٍ لأنفض ذلك الغَبار وأعيد الذِكريات.. هل ما زال ذاك المأفونً على قيد الحياة؟

كانا قد وصلا الى الحقل المحاذي لبيتهم وبيت عباس، هناك التلة ساكنة حزينة تنتظر عودتنا ومناجاتنا المقدسة.. تحت ذلك النخيل المتعانق .. يومها كنا نتلو ترتيلة أخرى من تراتيل السياب الخالدة:

حسناء تسفر عن محيا شاحب ... ما زال يغلب كل طرف غالب

رمقت صباها وهي في ريعانه ... بنواظر عبرى وقلب ناصب

في الريف بين نخيله المتعانق ... وعلى جوانب كل نهر دافق

عسب يجاذبه النسيم ظلاله ... وندى يصفق بالأريج العابق

وأزهر غيناء رف نديها ... فرحا بأجنحة الفراش العاشق

هل ما زلتِ تذكرين تلك القصيدة من روائع السياب بل وهذا المقطع تَحديدًا؟ يومها قلتُ لكِ أنه بعث مسودتها الى شاعر مصري وكانت أبياتها تزيد عِن الألف بيتِ، عندما سمعتِ أن القصيدة ضاعت ولم يبق منها الا مئةً وعشرون

بيتًا بكيتِ على السياب!! هكذا كنتِ رقيقةً.

-أجود.. حذارِ.

جاء صوت تحسين ليوقظه من تلك الذكريات.. تنبه وسار ببطء في الظلام، جنود التنظيم غير موجودين هنا، لا بدَّ أنهم على الخطوط الأمامية يتوقعون الهجوم الذي سيأتيهم.. اقتربا من التلة، ولكن لم يصعداها، بل التفا من جهة أخرى غير معروفة ومظلمة وليست كالتلة مشرفة على الحقول.. صعدا وصارا داخل القرية، سارا ببطء.. تفحصا البيوتات، وإذا بها هامدة الا من ضوء باهت جاء من بعضها، أما بيتهم فكان مظلمًا مهجورًا .. وسارا بظلام نحو بيت سعيد ولكنهما تسمرا ولم تعد بهما حركة عندما رأيا طلحة وأسامة قادمان باتجاه الفرع الذي يتوسط بيت أجود وبيت عمه سعيد والذي يفضي الى التلة.. سرعان ما وقفا في الظلام الدامس قرب بيتهم.. فمضيا نحو التلة غير منتبهين.. كانت الحرب قد دقت طبولها وفكرة الهرب قد استولت على طلحة وأسامة ولا هم سوى الهرب من هذه الجحيم القادم. جلسا عند تلة أخرى ليست تلك التلة التي كان يجلس عندها أجود ورحمة وجدهما عباس، بل تجنباها وجلسا على تلة ملاصقة لبيت أجود المهجور.

قال طلحة:

-غدًا هو وقت الهروب بعد أن أنفذ الأمر الذي عزمتُ عليه.. أنت تنظرني هنا.

-وما الذي عزمت على تنفيذه.

-لا يعنيك.

فقال أسامة:

-إذن لنفترق وانسَ أمر الهروب.. سنواجه المصير ونمشي في الطريق الذي اخترناه منذ البداية.

-لمَ؟

-لأنك بدأت تلف وتتحايل وتخاتل.

-ليس كذلك.

فقال أسامة:

-قل لي إذن.

فقال بعد تردد وبأناة:

-عزمتُ على أن أثأر لوالدي من أبي قتادة.

فقال أسامة بذهول:

-وكيف تثأر منه؟

-غدًا ليلا وقبل هروبنا خططتُ لقتله!

-قتله!

-نعم قتله.

فلم يستطع أسامة كتم دهشته:

-لا.. نقتله ..!

-هو الذي قتل أبي!

-المحكمة التي قتلته.

-هو الذي لفق له كل تلك التهم وهو الذي اتصل بأبي جعفر

وكان يسرب القرارات التي يتخذها أبي .. الى أن وقعت الكارثة.. إن لم تكن معي فاكتم عني.

-لا.. لن أفعل هذا الشيء.. إنها جريمة.

فقال طلحة بغضب:

-والذي فعلته أنت أبوك برحمة ماذا تسميه؟ براءة؟؟!

سمعوا شهقة مكتومة من البيت.. فانتبهوا الى أن أحدًا في بيت عمه.. وأرهفا السمع جيدًا فسمعا حركة وهروب المتواجد في داخل البيت وإذا به يتعثر بآنية أصدرت صوتًا وتيقنا من وجود أحد في البيت، سحبوا البنادق والتفوا الى باب البيت مسرعين.. كان أجود يحمل مفتاح البيت ففتحه ودخل الى خلف البيت، ولم يبقَ بينه وبينهم إلا ذلك الجدار واستمع الى حديثهما واتفاقهما. وما أن ركضا نحو البيت وإذا بتحسين واقف ورآهما مقبلان فاطلق عليهما النار .. فعادا مذعورين واختبئا خلف البيت مجددًا..

قال طلحة:

-عُرِفَتْ خطتنا.. وسيبلغ أبا قتادة... لن يخرج من البيت وهو حيٌّ.. لنقتله ونقول لصٌّ أو جاسوس ..

تردد أسامة قائلا:

-لا .. لم نعرفه.

-أنت غبي... سنموت.

وسحبا بندقيتهما وأطلقا النارٍ نحو تحسين الذي كان يحمل مسدسًا ويطلق بين الفينة والأُخرى ليتراجعا. فقال طلحة:

سيخلص عتاده ولكن رجال أبي قتادة سيأتون على أصوات النار.

وخرج يطلق النار بكثافة باتجاه تحسين الذي دخل نحو البيت فارًا من وابل الرصاص.. وقف تحسين داخل البيت وأنفاسه تتصاعد بصعوبة فسمع أجود يناديه: -تعال يا تحسين سنهرب عبر الحائط..

-دقيقة.. سأضربهم ليبتعدا..

وما أن أخرج رأسه حتى أتته رصاصتان واستقرتا في صدره ليعود الى داخل البيت مدحورًا واهنا. فصرخ أجود: تحسين..

فارتعدت أوصالهما.. قال طلحة:

-ليس واحدًا!

-هذا الصوت أعرفه.. لكن أين؟

-أخشى أن يكونوا كثر..

ركض أجود نحوه فاحتضنه:

-تحسين.. يا حبيبي، لا تمت..

فقال تحسين وهو في سكرة الموت:

-أجود... أهرب.. أهرب الى قواتنا وعد غدًا لتحرر القرية من رجسهم.. اهرب.

-كيف أتركك يا حبيبي؟

فقال باسما وقد غشته سحابة الموت:

-أنا انتهيت.. سأكون طيرًا.. ملاكًا.. سأطير الى السماء.. الى غنية، هي تنتظرني، وحدها في وحشة، سأذهب وأُزيل

وحشتها، سنستأنس سويًا..

-لا تتعب نفسك، ارتح.. سنخرج سوية.

-إن كنتُ عزيزًا عليك فاستمع إليَّ وطعني ولو لمرة واحدة.. تذكر؟ كيف كنت طول عمرك أنت وابن عمك وعلي تعتبرونني طامعا لا افهم، فلم تطيعوا لي أمرًا، طعني يا أجود فقد تعلمت من الحياة ما لم تعلمه المدارس.. اهرب وانقذ القرية.. الدواعش متفرقون.. وغدًا سيقتل طلحة أميرهم.

كانت أصوات كثيرة قريبة قد اقتربت. فقال تحسين:

-ها هم قد أتوا.. اذهب.

فقام أجود وهو يبكي، قبل رأس تحسين:

-سلامًا يا صاحبي .. يا حبيبي.

وراح يركض الى الحائط الخلفي. كان رجال التنظيم قد أتوا وتشجع طلحة وأسامة وتقدما نحو الرجال وهما فزعانِ، وأخبروهم أن مسلحين موجودون في البيت.. فوقفوا كلهم أمام الباب واقتحموا البيت ليجدوا تحسين مسجى وهو يرتدي ملابسهم.. ركض أحدهم نحوه ليجده ميتًا، سمعوا صوت أجود وهو يقفز من الحائط فركضوا مسرعين ولكنه كان قد اختفى كالجن في الظلام والحقول الكثيفة.

تقدم طلحة نحو الجثة ببطء وهو يحمل مصباحًا فارتدَّ مرعوبًا.

-ما بِك؟

سألوه كلهم بصوت واحد.

-تحسين..

قال أبو قتادة بعد أن علم بالخبر:

-هذا جاسوس، جاء فنال جزاءه.

وشحطوه في الصباح بطول القرية وعرضها الى أن رموه أمام دكانه.. كان حلمه الأبدي أن يكون تاجرًا حصيفًا أو يموت وهو في الطريق.. لم يطل عمرك يا تحسين لتكون تاجرًا..

وجاء أبوه مكمودًا حزينًا ليحمل ولده ويدفنه فلم يحمله معه أحدٌ.. وبعد أن تركه الناس جاء أسامة ليودع صاحبًا قديمًا. حملوه وأخذوه الى بيته ودفنوه في الحديقة، إذ أن أبا قتادة قرر أن لا يدفن تحسين في مقابرهم وقد اعتبره مرتدًا خارجًا عن الملة! وكان فعل أسامة هذا خرقًا لقوانين التنظيم ولكن الأقدار لم تسمح له المضي في استبداده مضي الخيل الجامحة التي لا تتخيل الكبوة.

-٦١-

كان أبو قتادة متكئًا على نمارق مصفوفة متفكرًا بحادثة أمس، كان السكون يلف المكان إلا من صوت مسبحته وهو يداعبها. فدخل حارسه وقال:

-سيدي الأمير، قد أحضرت طلحة في الباب، وهو يستأذن في الدخول عليك.

-فليدخل.

كان مجلسه محفوفًا بالترف، فالفاكهة من كل صنف ولون، والشراب بكل ألوانه، منهم من قال أنه يحتسي خمرًا، ومنهم من أنكر وقال إنه يحب عصير العنب، إضافة الى الجواري العربيات منهن وغير العربيات، ومنهن المسلمات اللواتي أسرن

وغالبًا ما يكون أهلهن عساكر أو مسؤولين في الدولة، ومنهن من أديان اخرى .. أبو قتادة هو الوجه السافر لتنظيم الدولة، ففي شخصه اجتمعت كل صفات الخسة ومخارم المروءة والخيانة.. هو الوجه القبيح للدولة الظالمة إذا أزفت النهاية.. هو آخر الأمراء، فبعده سيسقط الخليفة والحاجب في شَرك واحدٍ ولن تبقى الرايات السود محل رعبٍ وهلعٍ. كانت جلستهً جلسةً جبارين.. فقال بتؤدة:

-ما علاقتك يا طلحة بالذي جرى أمسِ؟

فقال بارتباك:

-لا علاقة لنا، كل ما في الأمر أننا كنا نسير فسمعنا قرقعة وجلبة وهمهمات في البيت المهجور، فحسبناهم لصوصا وتواجهنا معهم.

-حدسي يقول غير ذلك!

فقال طلحة ساخرًا:

-وماذا قال حدسك الموقر؟

-جاسوسان في بيت علي عباس أبي جواد، وجواد عسكريٌّ قضى نحبه في سبايكر، وأخوه هو أجود ذلك الشاب المشاغب الذي اقتنصت حبيبته منه، وأسامة يدفن ذلك الجاسوس في الصباح.. يعني أمركم مريب.

فقال بحزمٍ:

-وماذا تريد الآن؟

-ماذا أريد؟ الحقيقة، لأني أشك شكًا أقرب ما يكون الى اليقين، وخلاصة شكي دون أن نكثر الكلام هو إنكما عملاء،

تعملون لصالح الجيش، خاصة أن أجود وعلي ابن عمه الملحد وتحسين وأسامة كانوا رفقاء كأشد ما تكون الرفقة، وأنت اتبعت سنة أبيك، و «من شابه أباه فما ظلم» وأنت تشبه أباك بالخيانة.. ستقدم الى التحقيق بتهمة الخيانة أنت وأسامة، ثم الحكم عليك بمحكمة عادلة بتهمة خيانة الدولة الاسلامية.

فقال باستهزاء:

-محكمة عادلة!!

-عادلة شرعية.

-أنت من شرعنها ووظفها كما يشاء، وعندي أدلة على عملك واتصالاتك بأبي جعفر الى أن أتى هنا وبقيت أنت ورهطك تدس الدسيسة تلو الدسيسة، والنميمة تلو النميمة الى أن حُكِمَ ظلمًا وبهتانًا وزورًا، والذي يجب أن يحكم ويعدم هو أنت.

-ستلحق أباك، ولتكونن عبرةً ومثلًا..

فقال طلحة وقد استشاط غضبًا:

-أيامك انتهت يا ابا قتادة.

فقام صارخًا:

-أيها الحرس..

وقبل أن يتم كلمته قفز طلحة عليه ووضع المسدس على رأسه فاندفع في تلك اللحظة الحرس داخلين ومشهرين أسلحتهم ومستعدين لما أعد له سابقًا ليدهشوا بذلك الموقف؛ طلحة يضع مسدسه على رأس الأمير أبي قتادة.. فقال طلحة:

-واحد غبي مثلك لا أضعه راعيًا للغنم فضلا عن أن تكون

واليًّا، جهزت كل شيء لاعتقالي الا من تجريدي من سلاحي..

فقال أبو قتادة غاضبًا:

-خائن.

-اصمت، والا رصاصة واحدة تنهي كل شيء.

-ستموت فورًا.

-ولكن بعد أن أثأر لأبي.

قل لهم ليفسحوا لي مجالًا هيا.

كان الجند قد اجتمعوا وأغلقوا مدخل البيت. فقال أبو قتادة:

-افسحوا المجال ... أنا الأمير آمركم.

وتنحوا جانبًا ولكن لم ينزلوا أسلحتهم، وسارا والجموع تجري معه وعشرات البنادق مصوبة نحوه الى أن وصل الى بيت سعيد فدهش أسامة وأبوه وهما يلاحظان هذا المشهد .. فوقف بين بيت سعيد وبيت أجود وهو يهم بالنزول الى الحقول من التلة.. فقال له:

-قل لهم: لن يلحقنا أحد...(ثم صارخًا): قل.

فقال أبو قتادة مستاءً:

-لن يلحقنا أحد.. سمعتم.. أنا الأمير وطاعتي واجبة.

فتوقفوا. وأخذ طلحة يسير ويدفع أبا قتادة أمامه الى غرقا في الظلمة الكثيفة، وأخذ طلحة يعدو ويأمر ابا قتادة بالركض أمامه الى أن ابتعدوا مسافة ظنوا أن لا أحد يلحقهم. فتوقف طلحة وهو منهك، وسقط أبو قتادة على الأرض متعبًا

وجسده يتفصد عرقًا ولم يبقَ الا صوت الذئاب البعيدة ..
فقال طلحة:

-الآن حانت ساعتك أيها النذل.

فقال بصوتٍ باكٍ:

-أرجوك لا تقتلني.. أنا بريء .. لا دخل لي.

فضحك طلحة ضحكة مجلجلة تردد صداها في المكان:

-بريء؟

فقال متوسلًا:

-اعفُ عني.

-هذا ثأر أبي..

وقبل أن يضغط على الزناد وبسرعة خاطفة قام أبو قتادة كوحش ضار صارخًا ومهاجمًا طلحة عله ينجو ولكن طلحة كان أسرع فأطلق عيارًا ناريًا عليه استقر في صدره.. فشعر أبو قتادة أن الدنيا أظلمت وتوقفت وعاد من وثبته متهاويًا على الأرض ولكن قبل أن يسقط أتبعه بعيارين ناريين ليستقر في الأرض بلا حراك. فانتشى وهشَّ وبشَّ وبصق على جسد أبي قتادة بجذل، وقال: ارتح الآن يا أبي في قبرك.

ثم ولى وجهه للهروب ولكنه فوجئ برجال الجيش يحيطون به مشهرين اسلحتهم يتقدمهم الملازم أجود ببدلته الأنيقة: ارمِ سلاحك يا طلحة.. انتهت اللعبة وانتهت الدولة المزعومة.

فقال ذاهلا:

-من؟ أجود !!!

-اي نعم، أجود عاد لينتقم منك.

-كان أبو قتادة محقًا.

-اجلس على الأرض.

فرمى سلاحه وجلس وتقدم أحد الجنود وكبله بسلاسل. وجاءت أصوات جنود التنظيم من جهة القرية هائجة لاحقة بأميرهم. فقال أجود: نار..

وجاء جنود الجيش وبأعداد كثيفة من وراء أجود وهجموا نحو القرية لتبدأ معركة حامية الوطيس في الحقول... والصواريخ تبدأ بالهطول على القرية بكثافة .. وما هي إلا دقائق على بدء المعركة حتى حلق طيران التحالف فوق القرية وبدأ بقصف مواقع تجمع التنظيم.. وقصف القرى المجاورة.. لقد غدا ليل القرية نهارًا بفعل الصواريخ والمتفجرات.. أما أجود فبقي جاثيًا جنب طلحة يسأله عنها..

(أين هي) قالها أجود وهو يكاد قلبه ينخلع.. علم طلحة أن الطريق انتهى، فلم يمنع نفسه أن يقصَّ على أجود قصة رحمة البائسة على صوت القتال وتدمير القرية..

-٦٢-

في ذلك اليوم عندما قرر أبو عبد اللّه أن يختار زوجةً لولده الذي وجده بعد أعوام طوالٍ سائرًا على سنةِ أبيه، ممتطيًا الجواد نفسه .. الجهاًد بمفهومه الضيق وهو الجهاد ذاته الذي فهمه والده. كان الاختيار قد وقع على رحمة بنت سعيد عباس، شيخ القرية ومن كبار القوم، فبينه وبين شيوخ عشائر القبائل المجاورة أواصر قوية يجمعها نسب ومصالح مشتركة، فإذا ناسب أبو عبد اللّه سعيدًا كسب بذلك الزواج المبني

على مصلحة أمورًا عدة؛ أهمها شراء قلوب تلك القبائل لصالح التنظيم مقابل شيء بخس يعطيه لسعيد، دولارات كثيرة يأخذها من الغنائم التي غنمها لصالح التنظيم، وسعيد هذا جماع المال يمر في ظروف اقتصادية حالكة، فمعرض السيارات الذي يمتلكه قد تفجر، وسوق الأراضي التي كان يبيعها أضعاف ثمنها لما تحيط بالقرية من قدسية واسطورة قد بار وكسد ولم يعد لها نفع بل صارت أرض رعب وخوف، فدفع ذلك المال كان كفيلًا بأن يقلب على أبن أخيه أجود العاشق لابنته. جرى ذلك الحوار قديمًا بين أبي عبد الله صاحب الدولة المترعة بالانتصارات وسعيد الرجل الذي خسر ثروته توًا بسبب هذه الدولة...

قال أبو عبد الله:

-كيف حالك يا سعيد، أما زلت غضبانًا على ابنك لأنه ألتحق بالمجاهدين؟

فقال بتوتر:

-لا، كانت مفاجأة فحسب، وماذا يريد المرء خيرا من الجهاد في سبيل الله؟

-فما لك شاحب الوجه متغير اللون؟ هل الخسائر الفادحة في العمل هي السبب؟

كانت لهجته رقيقة، وأنّى لأبي عبد الله هذه اللهجة الهادئة؟ ألم يطرده قبل شهر عندما زاره في تكريت متوسطا لعلي وأجود فما الذي قلب حاله؟ ثم أن أبا عبد الله ليس محتاجًا لشيءٍ عنده، فلا مال بقي، والولد أخذه، ولكن لا بد أنه يريد شيئًا، مصلحة ما.

-خسائر ليست بالقليلة، يعني خمسين سيارة لا تقل ثمن الواحدة عن خمسة عشر ألف دولار غير هينة.

-قاتل اللّه الكفرة، ولكن لا تقلق سأعوضك عن كل هذه الخسائر!

-....!!

-لم العجب يا أبا اسامة؟ الدولة الاسلامية آتية لخدمتكم، هي الدولة المؤمنة والمنقذة من دولة الكفر التي ستزول، نحن سنزرع بدل كل شوكة وردة!!

أراد أن يهتف به، أو يصرخ قائلا: أي ورد وأنتم تزرعون بدل الشوك قنابل، تدمرون الشوارع بحجة عرقلة سير الأعداء، أي ورد وأنتم تريدون قتل كل من خالف. ولكنه آثر السلامة. وعاد لكرم أبي عبد اللّه الفياض والذي انهمر فجأة كانهمار سحابة الصيف المطيرة.. تعويض عن الخسائر.. انقاذ.. ما الأمر؟ لا يكاد يستوعب.

فقال أبو عبد اللّه متابعًا:

-لا يخفى عليك أن الدولة الاسلامية تدخل عهد ازدهارها، عملية البناء وتوطيد الأركان، سيبدأ العهد الجديد للدولة، الحضارة المنشودة، سنقضي على الخصوم ونفتح البلدان عنوةً أو صلحًا وهذا شأن المجاهدين المقاتلين وقد تشرفتَ بأن انضم ولدك..

وشعر سعيد أن ابا عبد اللّه يضغط على جرح لم يندمل، يريد أن يوصل رسائله، يقول له: لست أعظم ًمن الدولة، لست الا جرما صغيرا!

يتابع بزهو:

-أما مهمة السادة الاشراف والشيوخ وعلية القوم فهي ترسيخ الدولة في أذهان الناس، والسير معها قدمًا نحو دولة قوية.. ابناؤها هم ابناؤكم، ورجالها هم أنتم الخُلصاء..!

فقال سعيد بارتباك وقد بدا كقط أليف لا ذاك الجبار الذي كان يصرخ في وجه مهدية:

-والآن ماذا عليَّ أن افعل؟

-الآن كخطوةٍ أولى أريد القرب منك أنت تحديدا!

-أنا ..!!

-أجل!

-وكيف هذا؟!

-ولدي طلحة، كما تعلم التقيت به بعد أمد طويل، فلما جمعني الله به بعد لم أتفرغ له، بل بقينا في الجهاد والقتال، وهو شجاع كأبيه، مغوار لا يخشى شيئا، إذا بدأ القتال رأيته في المقدمة!!

فتقاطر وجه سعيد عرقًا.. وتابع أبو عبد الله:

-وأزف وقت زواجه.. فقد تخطى العشرين!

-..!!

-أبو أسامة، أطلب يد ابنتك رحمة لولدي طلحة على سنة الله ورسوله وعلى صداق أنت تختاره.

ففغر سعيد فاه مدهوشًا مبغوتًا، واعتلاه صمت رهيب يشبه صمت الأموات، وقال بصوت خفيض مشبوب بفزع هائل:

-الحقيقة يا أيها الأمير لا أعلم ماذا أقول.

-وهل هناك قولٌ غير الموافقة؟ أم أنت رافض لقربي؟

كان يتوقع أي شيء الا هذا، يصاهر أبا عبد اللّه؟ أي وحلٍ هذا الذي سيغرق فيه وأي قاعٍ هذا الذي سينزل فيه؟

-حاشا، ولكن تفاجأت قليلا..

وأشار أبو عبد اللّه لأبي قتادة الذي كان يقف على مقربةٍ من مجلسهما، فغاب دقيقة وعاد يحمل حقيبة كبيرة من حقائب السفر، ووضعها أمامهما، وفتحها .. فلم تكد عينا سعيد تصدقان ما تريان، حقيبة مليئة كلها بالدولارات..!

فقال أبو عبد اللّه باسمًا من منظر سعيد وهو يحدق بالحقيبة بتلك الدهشة:

-اعتبر هذا تعويضا بسيطا من الدولة الاسلامية لما أصابك أنت وعائلتك من ضررٍ بالغ جراء العمليات العسكرية، اعلم أن خسائرك فادحة، فمعرض السيارات انتهى، ولم تستلم الى الآن شيئًا من أموال الحنطة التي بعتها في العام المنصرم..!

داهية هو أبو عبد اللّه يعرف من أين تؤكل الكتف، وكيف يشتري قلوب الرجال. فقال سعيد وهو يداري فرحته:

-شكرًا لك وللدولة الاسلامية، تعويض عاجل وسريع.

-متى يكون العرس!

-أيُّ عرسٍ؟

فقال أبو عبد اللّه ضاحكًا:

-المال أنساك! زواج طلحة ورحمة.

-حدد الموعد.

-الخميس القادم، يعني بعد خمسة أيام.

-على بركة اللّه.



وبدأت التجهيزات للعرس بعد خمسة أيام، وصرفوا أجود عن الأعين وهجروهم كي لا يتسبب بمشاكلً لا قبل لهم بحلها، وكان أجود سباقًا في هذا المضمار ومن رواد سجن التنظيم بكثرة. وجاء يوم الخميس ولبس طلحة حلةً جديدة لعرسه وانطلق مع أبيه جذلين فرحين وجلسوا في ديوان سعيد الذي بدا في كامل أناقته وقد جهز كل شيءٍ. وقدم أسامة الحلويات بأشكالها والعصائر وكادت تبدأ مراسم عقد القران عندما سمعوا صرخات أم أسامة المدوية وهي وتدق بباب رحمة فوق، فنزلت كالمجنونة .. كالملدوغة.. تصرخ وتولول وتقول: : أجود فوق عند رحمة.. أنجدونا!

في تلك اللحظة كل الرجال شعروا أنَّ الدماء تغلي في عروقهم وأن العرض أنتهك، ورحمة متخذة أجود خدنًا لها.. بل قفز الشيطان الذي في عروقهم نشيطًا وصوَّر لأذهانهم العلاقة الغرامية بين أجود ورحمة وأن ابن الأمير سيتزوج زانية وسيعلق الأمير وولده قرونًا ويركبهم عارٌ يبقى موصوما بهم أبدَ العمر، هذه الخواطر المفزعة قد صلتهم جنونًا وهياجًا وثورةً .. فقاموا كلهم وقد سحبوا أسلحتهم وصعدوا كالمجانين هائجين فضرب سعيد الباب بسلاحه ليفتحه على مصراعيه ويجدوا رحمة وحدها بفستانها الأبيض وهي تبكي والنافذة مشرعة، فركضوا وضربوا الرصاص نحو الظلام. فاستدارت الوجوه الغاضبة الهائجة المحمرة نحوها وهي تزداد بكاءً وعويلًا. فقال أبو عبد اللّه بغضب:

-ألم أقل أن هذا الفتى سيسبب لنا مشاكل كبيرة..؟ قلت لك لندعه في السجن أو نلحقه بابن عمه فنريح ونستريح ونريح خلق الله من شره فننال أجرًا وراحة بال.. ولكنك أبيت وآثرت العاطفة وهذه النتيجة.. إنه العار يا سعيد الذي ما بعده عار.

فسحب طلحة سلاحه قائلا:

-سأقتلها وأنهي هذا العار الذي ركبنا.

فمد أبو عبد الله يده أمام مسدس ولده قائلا:

-لا.. أبوها وأخوها هم من ينهون الأمر.

كان سعيد قد احنى رأسه بذلة وانكسار ولم ينبس ببنت شفة. فقال أسامة بغضب وقد بدا كثور هائجٍ:

-لن تعيش.. والله لأدفنها حيةً..

فقال سعيد بصوت باكٍ:

-عارٌ عليَّ.

فقال أبو عبد الله بلهجة عتاب:

-الآن علمت أنه عار؟!

فبكى سعيد.. وزوجه بدت تصرخ وتبكي. ودمدم سعيد:

-أنا انتهيت!!

ومضى ينشج كالنساء.. فقال أبو عبد الله لرهطه:

-هيَّا.. أخرجوا.. سعيد وولده سينفذان الأمر ويغسلان عارهما بيديهما..

فصاحت رحمة:

-لا .. أنا طاهرة.

فقال طلحة:

-اسكتِي يا فاجرة يا عاهرة.

كان سعيد يستقبل الاهانات والمسبات على عرض ابنته ووصمها بالعاهرة والداعرة والزانية وهو مكلوم لا يحير جوابًا.. فقال أبو عبد الله بصوتٍ خفيض:

-اغسل عارك بيدك أنت وابنك.. انهِ الأمر سريعًا.. القرية ستهجع الآن كلها ولن يعلم أحد بالأمر، سنقول إنها متزوجة ولن يسمع أحد، بل ستبقى سمعتك كالزلال... هيَّا يا رجال.

فقال طلحة:

-اتركني معهم للمساعدة.

فقال أبوه:

-أنت زوجها وقد سُميت إليك.. ابقَ معهم.

خرج أبو عبد الله ونشر الجنود قرب البيت وأمر الأهالي بأن يعودوا الى بيوتهم ومن يخرج الليلة يعرض حياته للخطر.

وأتت أم رحمة نادبة وصارخة.. فجّرها سعيد بقوة وحبسها بإحدى الغرف. ومسك رحمة وهي تصرخ وتنادي وتستنجد ولكن لا صوت يتردد الا عياط أمها الحبيسة وأخرجها الثلاثة وهي تحاول الهرب.. تطلب الحياة.. كان صوتًا داخليًا يقول لسعيد: دعها.. لتهرب.. إنها حبيبتك وصغيرتك التي كنتَ تحبها وتدللها ها هي تستنجدك.. ولكن صوتًا آخرًا يأتي ليقول له: لا. إنها عاصية زانية . اصوات الشياطين. وصوت أبي عبد الله وهو يقول له: اغسل عارك. ونفسا طلحة وأسامة

وهمـا ممسـكان برحمـة خلفـه وينادونهـا بالفاجـرة والعاهـرة. يمشـي وتلـك الأصوات متدافعـة .. ثائـرة.. يريـد التخلـص منهـا ومـن نحيبهـا. كانـت عينـاه قـد فاضتـا بالدمـع ولكـن لا منـاص مـن غسـل العـار.. أيـن المفـر؟ سـيبقى حبيـس عـاره إن لـم ينهـه الآن فلـن يعيـش بعدهـا .. بـل قـد يمـوت كمـدًا أو جنونًـا.. قطـع الفنـاء خارجًـا نحـو التلـة.. تلـة عبـاس.. وفـي هـذا المشـهد ودمعـه منهمـر وروحـه متشـظية تائهـة فـي عالـم الخنـوع والمـوت: لـمَ علـيَّ أن أمـوت مـرارًا؟ أن أخسـر مـن أحبهـم؟ أن أقضـي عليهـم بيـدي؟ علـي قطـع رأسـه وأنـا انظـر ولـم أرعَ أمانـة أخـي، أجـود خاننـي ولـم ينـل جـزاءه.. والآن رحمـة، ابنتـي ووحيدتـي.. ولكـن لا تـراجع، فهـا هـي أمتـار قـلال ونكـون علـى التلـة الملعونـة. ولكـن بـين فنـاء بيتـه والتلـة توقـدت ذكريـات وعـادت حيـاة حيـة سـتنتهي بعـد قليـل.. مهـد ولحـد، بقـاء وفنـاء، قـدوم ورحيـل، وصـل وهجـر، حـب وكـره، المسـافة بـين هـذي المتناقضـات قريبـة جـدًا، مقـدار المسـافة بـن الفنـاء والتلـة، اللعنـة الأبديـة تحـت النخيـل المتعانـق لـن يطفئـه إلا دمـاء رحمـة..!

وصلوا قرب التلة. فقال سعيد: احفروا قبرًا هناك.

وأشـار الـى ذلـك المكان .. الـى مـكان جلـوس عبـاس وهـو ينتظر عليًـا أن يعـود مـن الحـرب، وهـو المـكان ذاتـه الـذي مـات فيـه، وهـو ذاتـه الـذي اتسـع لحـبِّ رحمـة وأجـود، الغـزل المتبـادل .. قصائـد السـياب.. حتـى القبلات المسـروقة.

ومضـى طلحـة يحفـر التلـة وكأنـه يضـرب تلـك النـار المتأججـة.. ذلـك الحقـد الفائـر.. كان أرض التلـة صخريـة، قويـة، متحجـرة، ولكنـه حفرهـا بحقـد صلـد ووحشـية طاغيـة. رحمـة تصـرخ ولكـن صوتهـا ضـاع فـي الفضـاءً المفتـوح وفـي ظـلام الليـل الدامـس. ومـا أن أتـم الحفـر وعلـم سـعيد أن لحظـة غسـل العـار قـد أزفـت وقتـل

الضمير والطمأنينة معه في آن سيكون.. ارتد وارتعش. فقد جاء صوتها الطفولي متموجًا وسط ذكريات هادرة وعياطها.

فقال طلحة بحقد:

-هيا.. لنقتلها.

تردد سعيد.. فقال أسامة:

-دعها لي.

وصوت أبو عبد الله طغى وهو يهمس له: اغسل عارك.

فقال: اعطني سكينا.

فناوله طلحة خنجرًا حادًا، وتقدم نحو رحمة التي امسك بها أسامة بقوة، فمسكها سعيد من شعرها فتركها أسامة.. رحمة تصرخ.. وسعيد متردد لكن صوت ولده الذي جاء هادرًا: اقتلها يا أبي وطهر شرفنا. كان الفاصل وكان أقوى من أي صوت آخر.. فغرز ذلك الخنجر وبقوة بصدرها وهي تصرخ: بابا لا تفعلها.. ب..ا..ب..ا..

انقطعت الأصوات وسيغسل العار ويبقى صوت الندم والحسرة.. وأخرج الخنجر الذي كان يسيل منه الدم ونظر إليه بفتور وخوف ورماه أرضًا وجلس ينتحب.. لكن رحمة قامت وكأن صوت الحياة ابتعث من جديد .. قامت وهي تشخب دمًا محاولة الركض.. الهروب.. النجاة.. لكن طلحة وأسامة مسكاها .. فصرخ بهم سعيد وهو يشيح بوجهه عنهم: اتركوها.. فلتهرب.. دعوها..

ولكنهم لم يستمعا له بل شحطاها وقد خارت قواها وبدأت الروح بالصعود الى أن أوصلاها الى الحفرة وفيها نفسٍ رابض يخرج بتروٍ فدفعاها الى الحفر ببدلتها التي غدت خليطًا من

الأحمر القاني والتراب والدموع لتسقط هامدة في الحفرة ودقات قلبها لم تزل تدق، وأهالا عليا التراب بسرعة مفرطة ولم تمض الدقائق القلال حتى وقفا أمام سعيد الذي كان ينشج. وقَالا:

- انتهت المهمة وغسلنا عارنا.



قال طلحة الكلمة الأخير بلا مبالاة: انتهت المهمة وغسلنا عارنا!!!

فقال أجود وقد تغيرت بحة صوته من البكاء:

-أيها المجرمون.

-أنت المسؤول.. أنت من دنس شرفنا.

-أيها الداعشي النجس، رحمة عرضي وشرفي، وأنت من دنسه.

-بل أنت!

فقال أجود وهو فائر ثائر:

-وأين سعيد وأسامة؟

-في القرية، كنا قد قررنا الهروب أنا وأسامة لكن الاقدار لم تشأ أن نموت سوية.

-سيلحقانك سريعًا.

-وأنت لا تتأخر.

فقام أجود ومسك بندقية وقال له: ستموتون ثأرًا لرحمة.

وسرعان ما أفرغ مخزن السلاح فيه حتى لم تعد تعرف جثة طلحة أين رأسها من قدمها.

-٦٣-

كانت خيوط الفجر الأولى قد لاحت القرية التي لم تعرف الليل. كانت قرية «لوعة عباس» عبارة عن يوم الحساب ولكن بلا حشر أو ميزان أو صراط؛ يوم أهوال تشيب له الولدان، فقد أفرغت القرية من الأهالي الذين اختاروا أخيرا خيار النزوح والخروج من قراهم، كان الخروج من البيوتات أمرًا لا نقاش فيه، فحمل كل بيت ما يقدر عليه من مالٍ مكنوز وذهب مخبأ وأيٍّ شيء له أهمية، فقد قررت القيادة قصف البيوت، خاصة بعد أن شاع أمر البيوت الملغومة.. كان بيت تحسين أول البيوت التي نسفت.. ثم قُصِفَت البيوت تباعًا، بيت أبي عبد اللّه الذي نال نصيبًا وفيرًا من طائرة التحالف حيث دكته دكًا ثم بيت ابي حازم وأخيه، ثم بيت أجود الذي لم يكلفهم سوى صاروخ واحد حتى انهار كجرف هارٍ.. ثم بيت سعيد بعد أن خرجَ هو وزوجته، وقف سعيد بلحيته الطويلة وهو يبكي.. راح يتوسل الى الجندي ويبكي على بيته ويقول له: أرجوك.. لا أملك شيئًا عداه. فقال له الجندي: أخرج وإلا وضعتك داخله.

لم تمضِ ساعة بعد الصباح إلا وكانت القرية عبارة عن جحيم مستعر والدخان قد عم المكان، والأهالي كالسيل العرم خارجون متفرقون في الأرض. قاد سعيد زوجه وسار وهو يحمل صرة على ظهره ومثلها على ظهر زوجته الى أن بلغ الى أحد مداخل القرية فرأى الجنود يفتشون الناس ويعزلون من هو داعشي متنكر، أو مشتبه به، أو له أموال مشكوك بها، فوقف وأشاح بوجهه عنهم، ثم ارتد وقاد زوجته ليخرج من مخرج ثانٍ، فقالت زوجته:

-وأسامة..!؟

فقال بصوت خفيض:

-اسكتيِ.. لننفذ بجلدنا.

وفجأة وقف متسمرًا.. التقت الوجوه أخيرًا.. أجود وعمه سعيد.. عمه الذي عفرته الأيام ذلةً ومهانةً وبؤسًا، وأجود الهائج الثائر الذي خسر بسببه كل شيء، الحبيبة والمسكن والعزة. فصرخ به: أيها القاتل...

وركض نحوه كوحشٍ كاسرٍ ولم يكن من سعيد إلا التوسل والذلة:

-أنا عمك... هل نسيت؟!!

فمسكه من رقبته وسقطت صرة سعيد، ورمى أجود عقال عمه وأخرج مسدسه ووضعه على رأسه:

-أيها الحقير الوغد.. كيف فعلتها وقتلتها؟ كيف سمحت لنفسك بقتل ابنتك؟

-ابتعد عني أيها الوغد الجبان.

-وغد وجبان من يقتل فتاة مثلك.. أين ابنك؟ أين؟ واللّه لتقتلن أنت وولدك أيها الحقير.

-اتركني.

كان قد قرب المسدس على فيه ليطلق قبل أن يأتي جندي قائلا:

-سيدي... سيدي الملازم.. اتركه .. سيحسبونه عليك رجلا .. العقيد يريدك..

-هذا داعشي حقير.

فتلقفه الجندي وضربه وراح يتهادى الى العقيد محمد السامرائي. كان العقيد قد قبض على رجال التنظيم الذين استسلموا وعلى بعض الأهالي الملتحين. فقال لاجود:

-ميز لي الداعشي ممن سواه.

فنظر الى الوجوه متفحصًا باهتمام:

-أبو حازم.. آكل السح والربا والحرام، ثم المتدين..

فقال بخوف:

-هم اجبروني يا أجود على أن أكون معهم وإلا قتلوني.

-كذاب.. سيدي هذا داعشي أصيل.

فقال العقيد:

-قم.. خذوه.

وظل يفرز ويميز الى نهايتهم فلمحه جاثيا لا حراك به.. هو اسامة..

فقال للعقيد بتوتر:

-ذاك الداعشي اتركه لي.

-هو لك.

فتقدم نحوه قائلا:

-الأيام دول.. يوم لك، ويوم عليك.

فرفع أسامة رأسه بذعر:

-أجود!

-أيها الوغد.

فبصق أسامة على أجود:

-وغد وحقير أنت.

وبسرعة خاطفة لكزه أجود على وجهه وجعله يبصق دمًا. ثم قام وأخذه إليها.. الى قبرها... أتعرف ذلك الشعور المنهك للروح والجسد معًا؟ يوم تقترب من مثوى الأحباء لأول مرة، يوم تزورهم في القبور وأنت لم تعتد أن تزورهم فلا يتكلمون، ولا تراهم، ولا يجيبون، يكونون مستمعين وصامتين صمتهم الأبدي الذي لا نطق بعده.. أيها الموت لمَ تأخذ صالحينا؟ لم كُتب علينا أن نموت وجعًا بعدهم مرارًا؟

انتشى أسامة بشيء من الجذل وهو يظن أن ابن عمه ما زال على حاله جاهلا بما كان ومغفلا. فقال:

-فك قيدي.

فلم يجب.

فقال بلهجة مرتعشة:

-ما بك؟ بالتأكيد لن تسلمني إليهم، اطلقني يا أجود، ولنعد صاحبين.. ثم ما هذه الرتبة؟ لن تسلمني للجيش أليس كذلك؟

فقال أجود بصوت واهن مبحوح:

-نعم، لن أسلمك للجيش.

فقال بجذل:

-اطلقني.

-ولن أطلقك.

-ماذا إذن؟

-ستموت.

فقال بتوجس:

-لم؟ أنا ابن عمك.

-وعمي الملعون سيموت.

-غدا قلبك حجرًا صوانًا يا ابن عمي.

فصرخ به:

-لا تقل ابن عمي.. أنتم القتلة السفلة، قل لي: لم قتلتها؟ (ثم بكى) لمَ؟

فتشجع أسامة وعلم أن الموت آتٍ لا محالة:

-طهرنا عرضنا بعد أن دنسته أنت.

-لم أدنسه.. رحمة طاهرة ... طاهرة .. هل فهمت؟

-لا..

وقبل أن يكمل كلمته ضربه على وجه بما أوتي من قوةٍ. كان قد وصلا الى بيت سعيد وبيتهم المتهدم فلم يأبه اجود الى مشهد الخراب، فقد ذهب ما هو غالٍ فهل يسأل عن الرخيص؟؟؟

رأى قبرها بمستوى الأرض كي لا يبن، وحيدةً لسنتين خلف القرية الظالمة القاتلة سابقًا، والخربة التي لم يبقَ منها الآن الا الاطلال... لماذا؟ ما الذي فعلته رحمة؟ ماذا كلفهم لو أتوا بقابلة ففحصتها؟ أو حتى نساء الجيران فيعلمنا صحة طهرها... لماذا تقتل فتدفن وهي ما زالت حية وفيها روح؟ قبرٌ مستدبر القبلة، وبلا كفن أو صلاة عليه أو معاملة المسلمين.

-من أين اتيتم بهذي القسوة؟

فقال أسامة بلا مبالاة:

-من كان بلا شرف لا يشعر بقيمته.. رح افحص أختك.

فضربه ضربة اطرحته أرضًا وهو مكبل.. ثم بدأ يركله وأسامة يتأوه.. فقال له:

-لو كنتَ رجلا لقاتلتني كما تقاتل الرجال، رجلا لرجل، لا أن تستأسد على رجل مكبل!

فثارت ثائرته وفك قيده، وقال له:

-قم قاتل كالرجال وأمام قبر أختك الطاهرة.

-تقصد العاهرة..!

فضربه ضربة أخرى وسرعان ما ردها أسامة بأقوى منها ليرتد على اثرها أجود ويسقط أرضًا. كانت يد أسامة قد اشتدت بالتمرس والتدرب على القتال فلم يعد رخوًا كما كان. فقام أجود وهجم عليه ومسك واحد بساعد الآخر وتقلصت العروق وغلى الحقد، كلاهما يريد أن يجفف ماء الحياة في الآخر الى أن ضرب أجود أسامة برجله خصيتي أسامة ضربة انصهر فيها الحقد والثأر ووجع سنتين خلتا في الغربة والألم والموت والذلة والفقد فارتد أسامة على إثرها متألمًا متأوهًا وقبل أن يفيق من الضربة تبعها بضربة أخرى على صدغيه ليسقط وقد خارت قواه على الأرض يئن من الجراح الغائرة والآلام.. فركله أجود بقوة .. وشحطه الى حافة التلة المشرفة على الحقول محاذاة قبر رحمة.. وأجلسه لينظر الى قبرها الذي هو لعنته التي أصابته والى الحقول الخاوية والى القرية المتهدمة:

-هذا حصاد زرعكم.. تأمله!

فقال أسامة بقنوط:

-خسارة معركة لا تعني خسارة الحرب، ونهاية معركة واحدة لا تعني فتح باب السلم، الدولة الاسلامية باقية وتتمدد، وسيأتي يوم يقطفون فيه رأسك.

-انتهت دولتك الباطلة. (ثم بصوت باكٍ) لمَ قتلوها؟

فنظر الى قبرها بيأس:

-لأنها يجب أن تموت... هذه الشجرة ملعونة، وهذه البساتين يجب أن تسقى بالدماء سنة جدنا عباس!

-بل سنة التخلف والعنجهية والعقول المتحجرة.

فقال مبتسمًا ابتسامة الموت:

-لعنة عباس التي ستصيبك وتصيبك عاجلا أو آجلا.

فأخرج أجود مسدسه وصوبه على رأسه.. فأشاح أسامة بوجهه عن القبر وعن السلاح ونظر الى الحقول: أتذكر يا أجود مراتع الصبا؟ كانت هنا، في هذه الحقول، في جنة عباس وحمدية، نركض ونلعب.. اقتلني ولكن الغيمة العابرة لن تحجب الشمس، ورتل الكفرة المرتدين لن يسقط الدولة الاسلامية..

فاطلق أجود النار على رأسه ليتطشر رأسه على التلة وعلى قبر رحمة ثم يسقط متهاويًا من على التلة متدحرجًا الى الحقول. فرمى أجود مسدسه وجلس ينتحب ويبكي عند قبرها.. ثم بدأ يحفر فيه!



وصلوا الى سامراء مساء ذلك اليوم، كان أجود قد أخرج رفات رحمة ليكفنه ويدفنه كما يدفن الناس موتاهم. وصباح اليوم التالي شيعها هو ورفاقه وصلوا عليها ودفنوها في مقبرة سامراء. في ذلك اليوم بقي وحده أمام قبرها يبكي ويشكو إليها ويئن. رأى أجود ملائكة تتنزل على قبرها، وفيضًا إليها وأنوارًا أضاءت ذلك القبر وشع نوره فأضاء أرجاء المقبرة كلها، وكأن قبرها قمر تحفه النجوم. رأى ذلك النور في القبر وكأنه معجزة، كان النور قد اخترق عروقه فبث فيها طمأنينة وسكونًا وراحة.. رأى ذلك النور يجتاح قبر جواد أخيه فيؤنس وحشته وينير ظلمته.. بل عله يصل الى بسام فيسعده أينما كان. ثم رأى النور يكبر ويتعاظم ليضيء سماء سر من رأى كلها. ولكن مع تلك الراحة والطمأنينة التي غمرته بقي معوَّلا على الحزن ومتخذًا منه رفيقه الأبدي على أمل اللقاء فيسكن ذلك الشوق وإن كان قد حفظ مقولة ذلك الإمام منذ أمدٍ بعيد:

«كُلُّ شَّوقٍ يسكن باللقاءِ لا يعوَّلُ عليه»

قصة قرية (لوعة عباس) الواقعة في أطراف مدينة تكريت عند سيطرة تنظيم (داعش) عليها عام ٢٠١٤، تضطر (مهدية) الأم أن تفر من القرية بولديها وابنتها بعد أن اختفى ابنها الكبير جواد في قاعدة (سبايكر) العسكرية، وبعد ما شهد ولديها من ظلم وممارسات رجال التنظيم القمعية ، تفر إلى مدينة (سامراء) وهي المدينة الوحيدة التي بقيت تحت سيطرة الدولة العراقية، لتقع هذه العائلة في شَرَك الفقر وشظف العيش ، إنها قصة الفارين من جحيم (داعش).

كما تسلط الضوء على صراع الجيش العراقي وقوات التحالف ضد التنظيم. إنها قصة داعش في أكثر المناطق سخونةً في العالم وما تنطوي تحتها من قصص حبٍّ وفراق، بقاء وفناء، غربة وموت.


ISBN 9789948378037





محمود السامرائي

رَمَادُ الشَّوق

دار راشــــد للـنـشــــر
Dar Rashid Publishing